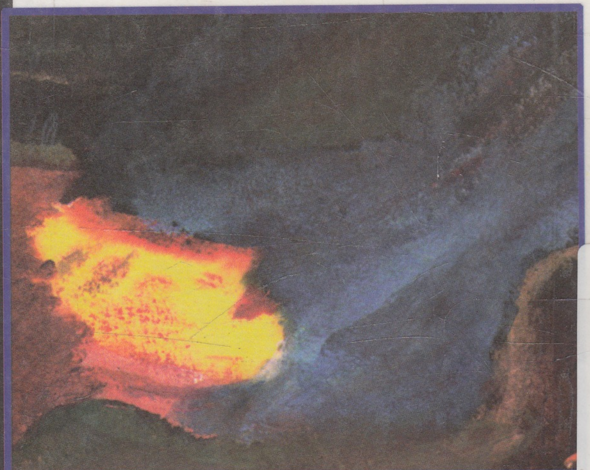


جمال الغيطانى



الخطوط الفاصلة

يوميات القلب المفتوح







تصميم الغلاف الفنانة : ميسون صقر

الخطوط الفاصلة

يوميات القلب المفتوح

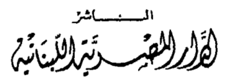
الناشـر : الـدار المصريـة اللبنانيـة
١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة
تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣
فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو
ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة
رقم الإيداع : ٧٢٨٣ / ٩٧
الترقيم الدولى : 3 - 365 - 270 - 977
جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر
العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين
تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨

الطبعة الأولى : ربيع آخر ١٤١٨ هـ ـ أغسطس ١٩٩٧م .
تصحيح ومراجعة لغوية : محسن بيومى محمد

جمال الغيطانى

الخطوط الفاصلة

يوميات القلب المفتوح



أصْبَحْتُ لا أملاً ولا أُمْنِيَّة

أرْجو ولا مَوْعُودة أتَرَقَّبُ

الجيلاني

ذهـــاب

أخيراً . . تحين لحظة الخروج .

إنها تكتمل ، وفادتها مستمرة منذ حقبة . تختلف الحدود التى أحاول وضعها . ربما بَدَأَتْ منذ عقود أربعة على الأقل . لا أدرى بالضبط ، عندما أصابتنى حمى روماتيزمية تركت أثرًا فى صمام قلبى الميترالى ، لا أدرى متى كانت هذه الحمى . كم استمرت ، لكم ارتفعت درجة حرارتى أثناء طفولتى ، أتذكر جيدًا أيام إصابتى بالحصبة ، خاصة المرحلة الأخيرة منها ، سريان ما يشبه النمل تحت جلدى . وعتمة الغرفة التى حرصت أمى على إغلاقِ نافذتها الوحيدة ، وبابها أيضا ، وتغطيتى بثوب أحمر . أتذكر نوبات الصداع النصفى . . أقدم ما يحتفظ به وَعْيِي من آلام ، جدتى تُعد لبخة من البن وأشياء أخرى . . تلصقها مع تلاوة التمائم والتعاويذ الغامضة على جانبى دماغى .

متى جرى ذلك بالضبط ؟

لا يمكننى التحديد . . وإنْ شككت فى آلام ،ازات أعييها . صاحبها ارتفاع فى درجة الحرارة . وخزات سريعة فى الصدر ، وتناولى لأقراص حمراء صغيرة اسمها « سلسلات » ، نصحنى الصيدلى الذى افتتح محله حديثا بشارع الجمالية أن أتناولها ، وكان ذهابنا إلى الطبيب نادرًا . فقط . . عند

اشتداد الآلام وحلول الرقاد القسرى . وكان والدى مثالاً فى قوة التحمل والجلد . فى عام ستة وخمسين أثناء إقامتنا بحارة الدر الأصفر ، التى لم تستمر إلا عامًا واحدًا ، شكا أبى من ورم فى ظهره . مازلت أذكر مداه وملمسه . ويبدو أن الألم وصل إلى حَدٍّ لم يستطع الأب الحَمُوْلُ أن يطيقه ، أو أن الطبيب نصحه بضرورة إزالته . فى ذلك الصباح البعيد خرج ، فى نفس موعده اليومى ، لكنه قال لأمى أنه ماضٍ إلى مستشفى القصر العينى ، وأنه لن يتأخر كثيرا . . . غير أن موعد عودته اليومى مضى ولم يظهر ، لم يطرق الباب كعادته بقبضة يده ، اعتدنا موعده اليومى المرتبط بنشرة أخبار الثانية والنصف ، لحنها المميز ، بسكون الظهيرة صيفية كانت أَمْ شتوية ، كان يجيء بالغَدَاء معه ، خضار ولحم لتطبخه أمي ، أو طعام جاهز ، سمك مقلى ، طعمية ، لم يكن لدينا طعام مُدَّخَر ، حتى الخبز ، كان يشتريه يوميا من «السنى» الخباز ، على ناصية حارة قصر الشوق . وأَنْ يتأخر . . . فهذا يعنى بقاءنا بلا طعام . اعتدنا أن نأكل معاً أيضا ، أن ننتظم حول الطبلية ، وأن يوزع هو نصيب كل منا ، خاصة من اللحم . ولا أذكر لحظاتٍ نَعِمْتُ فيها بالأمن الحقيقى ، كتلك التى عَرَفَتْ تَضَامُنًا ، وانتظامنا حول الطبلية ، ولحظات الصفو التى تعقبها .

أَنْ نسمع اللحن المميز للنشرة ، أَنْ يرتفع آذان العصر ، أَنْ يَحِلَّ الوَهَنُ بضوء النهار ، أَنْ يقترب المغيب ، والوالد لم يظهر بعد ، فتلك نُذُر مخيفة ، حتى ذلك الوقت . . لم تكن الوالدة تعرف الخروج إلى الطريق ، إلا بصحبة أبى ، لم تكن تعرف المنحنيات ، والنواصى ، والميادين الصغيرة . لم تكن تعرف التعامل مع الخضرى ، أو البقال ، أو الفاكهى . كانت مقيمة فى البيت . ترعى شئونه ، وتنظم أمورنا ، ولا تخرج إلا بصحبة والدى عند

المضى لزيارة مولانا وسيدنا الحسين ، أو أحد الأولياء الصالحين ، أو أحد الأقارب .

ماذا نفعل ؟

إلى مَنْ نتجه ؟

الوقت شتوى ، عقب أحداث الهدوان الثلاثى . النهارات قصيرة ، الليالى تفد بسرعة . حوالى الرابعة والنصف ، خرجت إلى الطريق ، بعد أن أقنعتُ أمى أننى لن أمضى أبعد من نهاية شارع الجمالية ، بل إننى حددت وكالة بازرعة .

أى حيرة ؟

أى مجهول ؟

إلى مَنْ أذهب ؟ إلى أين أمضى ؟ ، أين أبى الآن ؟ .

لم يكن فى ذهنى هدف محدد . لا مكان ، لا رقم هاتف ، لا اسم شخصى .

لماذا خروجى إلى الطريق إذن ؟ .

ربما لانتمائى بشكل إلى العالم الفسيح الذى يضم والدى ، ولا يمكننى تحديده . بقائى فى البيت مُمْرِض ، موجع . احتمالات الطريق متعددة ، غير أننى بمجرد اجتيازى الباب إلى أرض الدرب ، إلى شارع الجمالية ، تضاعف عندى ذلك الخوف الغامض ، والحب والشفقة . نطقتُ بصوت لم يسمعه غيرى :

« يا ترى انت فين يا بوى . . »

مشيت متمهلا أمام خانقاه بيبرس ، أمام مدرسة الجمالية . تجاوزت وكالة بازرعة . والبقال الذى ـ بمرورى عليه ـ أشم رائحة الجبن الرومى المعتق والسمن البلدى والمخلل والصابون بأنواعه وروائح أخرى لا يمكننى تحديدها .

كنت أتجه إلى الطريق المؤدى إلى مولانا الحسين ، أقطعه يوميا صَوْبَ مدرسة محمد على الإعدادية التى أدرس بها . كان عمرى أحد عشر عاماً ، وكنت فى السنة الأولى الإعدادية . هذا الطريق مألوف عندى . أعرف واجهات بيوته ، ومساجده وأصحاب هذه الدكاكين والعاملين فيها . بعد ميدان الحسين ، ومع الدخول فى شارع الأزهر ، يبدأ المجهول المقيت ، المُمْرِض أيضا . لم أتقدم كثيرا . . . قبل مدخل درب المسمط لمحت والدى ، كان يرتدى جلبابا من الكستور المقلم ، وكان يزحف ، يتقدم بخطى ثقيلة . . . يبدو منها مدى الألم الموجع . . تَطَلَّعَ إلىّ ، قال بصوت خافت :

« إلى أين ؟ . . »

« أبحثُ عنك . . »

ضغط شفتيه ، وبعد خطوة تناولت ذراعه لأحيط بها كتفى ، غير أنه عاد إلى مَشْيِهِ المتئد ، وكنت أنطق الدعاء له بالشفاء ، فيهز رأسه مُطَمْئِنًا لى . فيما بعد عرفت أنه رفض تماما أن يقضى الليلة فى القصر العينى ، أصَرَّ على خروجه فى نفس اليوم ، متجاهلاً تحذير الطبيب ، مستعينا بطبيب آخر يمت بصلة إلى جهينة ، مسقط رأسى ، وأصل منشأنا .

بعد حوالى ربع قرن . بعد أن تزوجت وأنجبت ، وتَشَعَّبَ سَعْيِ فى الحياة

الدنيا ، وأثناء زيارتى لوالدتى ، لاحظت انتفاخ يده . رحت أستفسر منه ، جرح أصيب به منذ فترة ، أبديت انزعاجى وإصرارى على مصاحبته إلى طبيب جراح قريب ، بمجرد أن رأى اليد المتورمة ، وكشف الذراع ـ التى أصبحت نحيلة جداً ـ تساءل متعجباً :

« كيف أمكنك تحمل الآلام الناتجة ؟ » .

وتَطَلَّعَ أبى صامتاً .

مثله تحملت آلام الحمى الروماتيزمية التى يعسر علىّ تحديدها بدقة ، وإنْ كنت أحوم حول تلك الأعراض التى ماتزال تَعِيَها ذاكرتى ، والتى أقدر مرورها بى فى الحادية عشرة ، أو الثانية عشرة . لم أعرف آثارها المقيمة إلا بعد سنوات طويلة ، كان ذلك فى منتصف السبعينات . وأثناء كشف طبى عادى فى المؤسسة (أخبار اليوم) . أصغى الدكتور فاروق عبد العزيز طويلاء ، ثم قال : إن ثمة ضيق وارتجاع فى الصمام الميترالى . واعتدت فيما بعد أن اصغى إلى هذا التعبير . وكان رأى الدكتور محمد الفقى المتخصص فى القلب ، أن الضيق يمكن التعايش معه ، وأنه ليس فى حاجة إلى تدخل جراحى ، وترددت عليه حتى منتصف الثمانينات ، ثم . . انقطعت ، إلى أن اضطررت إلى دخول المستشفى عام تسعة وثمانين لإجراء عملية فتق . وأثناء التحضير للعملية ، وخلال رسم القلب بالصدى ، أبدى الأخصائى انزعاجاً ، وسمعته يزجر مساعده :

« كيف تدع هذا ينصرف . . ؟ »

وطلب أن يرانى الدكتور جلال السعيد ، طبيب القلب المشهور ، وكان يتردد على تلك المستشفى وقتئذ . جاء الرجل وفحصنى بدقة . ودَوَّنْتُ رقم

هاتفه على أساس أن أتوجه إليه بعد إجراء العملية . ويبدو أنه نصح بإجراء الجراحة بالبنج النصفى ، وهذا ما تم فعلاً . ومازلت أذكر كافة التفاصيل فى غرفة العمليات التى قُدِّرَ لى أن أدخلها فى المرة الأولى متيقظاً ، بكامل وعيى . غير أن ذهابى إلى الدكتور جلال السعيد لم يحدث إلا بعد سبع سنوات ، أسباب عديدة أدت إلى الإرجاء ، منها انغماسى الشديد فى العمل الصحفى ، خاصة بعد بدء الاستعداد لإصدار « أخبار الأدب » وبعد صدورها ، وما صاحب ذلك من جهد وتوترات ، وانشطار مروع داخل ذاتى ، بين ممارستى عملى الصحفى ، وعدم قدرتى على الكتابة الإبداعية بكامل الطاقة ، أو بنفس المعدل الذى نجحت طوال عمرى فى تحقيقه ، طبقا لتلك المعادلة الوعرة للتوازن بين ما أعتبره وسيلة للعمل ، والظروف اللازمة للكتابة الإبداعية . هذا التناقض أشد ما عانيته فى حياتى ، وأدى إلى توترات داخلية ، وانفجارات خارجية ، وأشكال شتى من المعاناة أكاد أوقن أنها أدت بقلبى إلى هذا الوضع الذى استيقظت عليه فى تلك الليلة الإبريلية ، عندما انبعثت داخلى أول موجة ألم مباغتة . . . ذلك الألم الذى لم أعرفه قط بين آلامى . أسباب أخرى عديدة ، أعى بعضها ، وأجهل الآخر ، منها ذلك الميراث الطويل فى تحمل الآلام ، وعدم اللجوء إلى طبيب إلا عند الضرورة القصوى ، والرغبة فى تجاهل الخطر ، ولكن فى هذه المرة لم أستطع .

تلك اللحظة تحوى هذا كله ، واللحظات الفاصلة تكتسب صفاتها مما تتضمنه من السابق واللاحق . لحظة السفر بالذات ، لحظة الخروج تستمد معانيها من الأسباب المؤدية ، والظروف المولدة ، والعناصر الكامنة ، الدافعة ، تحوى بالنسبة لى ظروفاً تَمُتُّ إلى السنوات الأولى من العمر ، وأياما

حاسمة تعود ـ بالتحديد ـ إلى إبريل الماضى ، بداية نوبات الألم ، والحقيقة أن خروجى هذا من البيت فى تلك الساعة المبكرة من صباح الجمعة ، قاصدًا مطار القاهرة ، ترافقنى شريكة عمرى (ماجدة) ، لم يكن إلا تجسيدا لخروج طويل ، أَعْدَدْتُ له بِوَعْيٍ وصبر ودقة ، طوال الشهرين الماضيين ، ذلك أننى ـ بلغة الصوفية ـ لزمت مقام القبض ، بكل ما يحويه من حزن وأسى شفيف ، وانكفاء إلى الداخل ، وأفضى بى القبض الشديد إلى اليأس ، وأخفيت ذلك عن أقرب الخلق إلىّ ، وإنِ اسْتَشَفَ بعضهم ذلك الحال العجيب ، الغريب ، من قصة قصيرة نشرت قبل حلول تلك اللحظة بأسابيع ، عنوانها « طلة السبات » وفيها يعى الراوى ـ فى لحظة إشراقية فياضة ، ذات صباح شاهق الضوء ، هادىء السمت ـ أنه سوف يرحل بعد ساعات ، وأن هذا النهار آخر ما سيراه ويعيشه ، وهكذا يبدأ ـ بهدوء ـ قضاء ساعاته الأخيرة ، وإنْ ظلت اللحظة النهائية مجهولة الموقع ، فمهما بلغ حدس الإنسان ، أو قوته على التنبؤ ، تبقى لحظات فى دائرة الغيب ، وأمور وعر عليه إدراكها .

بالضبط هذا حالى فى تلك الأيام المؤدية إلى اللحظة ، لحظة مفارقتى البيت ، حيث أسرتى الصغيرة ، ومكتبتى ، وأوراقى .

قررت إجراء العملية ، بدأت خطوات القرار . صدر بالفعل بتدخل من أصدقاء أعزاء ، وزملاء كبار . وسوف أظل مديناً ـ بشكل خاص ـ إلى الزميل الكبير العزيز الإنسان جلال دويدار رئيس تحرير الأخبار ، الذى تحرك منذ اللحظة الأولى لإطلاعه على حالتى ، ولم يكتف بتجنيد كافة اتصالاته لصدور قرار السفر من رئيس الوزراء الدكتور كمال الجنزورى ،

وإنما تدخل فى أدق الشئون لتسهيل السفر ومصاعبه . كان جلال دويدار بحق إنسانا رائعاً وكريماً . إننى أكن الود أيضاً للدكتور أسامة الباز ، للفنان فاروق حسنى وزير الثقافة ، للزميل محفوظ الأنصارى ، للصديق الحميم رجاء النقاش ، لكل زملائى الأدباء فى الحركة الثقافية فى مصر والعالم العربى.

تحدد موعد اللقاء بالطبيب الذى سيشرف على حالتى هناك ، وتحدد موعد العملية ، التاسع من يوليو ، التاسع أيضا ! .

مازلت أذكر دهشتى المباغتة عندما تَطَلَّعَ إلىّ الدكتور جلال السعيد، وحدد موعداً لإجراء القسطرة يوم التاسع من مايو . ساعتها نظرت إليه بدهشة ، قلت :

« لكنه عيد ميلادى . . »

قال بهدوء الطبيب الذى اعتاد تنوع الحالات، وورودها عليه :

« ليكن ميلادًا جديدًا . . »

ولسبب ما . . تراجعتُ فى آخر لحظة ، وطلبتُ إجراء القسطرة بعد أسبوع . كان من المفروض أيضا أنْ أجرى عملية توسيع الصمام الميترالى بالبالون . حدد الدكتور جلال السعيد موعداً جديداً . السادس عشر من مايو ، أما هذا الموعد الجديد فى تلك الديار البعيدة ، فلا يمكن رده أو تغييره .

فى تلك الليلة بدأ رُسُوِّى عند هذا الحال المغاير ، لا يمكننى توصيفه ، أو القطع بتسمية معينة ، مزيج من السكينة والاستسلام وأيضا . الأمل . مجرد السعى إلى إجراء الجراحة ، يعنى كمون الأمل ورسوخه . أسباب تعلقى بالحياة عديدة ، رغم نوبات الاكتئاب ، وتَقَطُّعِ بعضها فى السنوات

الأخيرة ، ولكن كلها ظروف يمكن التدخل فيها وتعديلها . لكن . . هذه الجراحة من ناحية أخرى ليست عادية . إنها جراحة فى القلب، إضافة إلى حالتى الخاصة ، حيث سَيتِمُّ إجراء عمليتين فى وقت واحد . لكل منهما أسلوبها واتجاهها . مجرد السعى لإتمامها ، يعنى الأمل .

غير أنه سعى تَحُفُّهُ المخاطر أيضا .

إذن . . فَلْأَضَعْ أقصى وأخطر الاحتمالات نُصْبَ عينى . فَلْأَتَعامل معه كحقيقة مفروغ منها . أمر سيقع . هكذا اعتبرت التاسع من يوليو حدًّا، ما يفصلنى عنه عندما تلقيت النبأ حوالى شهر ، إذن . . أمامى فى الحياة ثلاثون يوماً . تليها علامة كبرى ، فإنْ اجتزتها ؛ أعود إلى الحياة من جديد بخطط أخرى . ونوايا أخرى ، وأحوال لا أدرى عنها شيئا الآن ، أما إذا قُضى أمرى ، واجتزت تلك العلامة إلى اتجاه واحد ، فليكن هذا قَدَرِى . تَطَلَّعْتُ إلى ذلك الاحتمال القوى بهدوء ، وقَصَدْتُهُ بسكينة . ومنذ أن استقر أمرى ، وطويت ما طويت ، بدأت أتعايش مع تفاصيل دقيقة ، بعضها عملى . وبدأت أتعرض أيضا للذكريات الرواجم ، شُهب ونثار متبقى من أيامى المنقضية ، نيازك من أماكن وأزمنة وروائح وتوق طويل وتأججات أشعلت الوهج فى ذلك الفلك ، كنت أتضام وأنغلق على ذاتى ، تماما كالنجوم التى يقاربْ عمرها على النفاد . تتمدد ثم تتقلص فى انفجار عظيم، يعقبه انهيار مروع إلى الداخل . ويتحول الوهاج ، المشع ، المرصود من بُعد سحيق إلى ثقب أسود شديد الكثافة ، لا يسمح حتى للضوء بالنفاذ منه .

ذكريات هبوب ، تمحورت كلها حول الأهل . الأمكنة المألوفة الحاوية لأزمنتها . والأزمنة الضَّامَّة لأمكنتها . ورغم تعدد أسفارى شرقا وغرباً ،

وبلوغى نقاطا قصية من العالم المسكون ، فمعظم ما وَرَدَ علىّ قادم من القاهرة القديمة ، الجمالية بالتحديد ، ثم تتسع الدائرة لتشمل بقاعًا أخرى، تَمُتُّ كلها إلى مصر ، إلى موضع سكنى ومثواى الأبدى كما أرجو وأتمنى ، طالتنى أشجار النخيل وظلالها وسرمدية أشجار الدوم والجميز والزيتون ، وصرير خشب الساقية القبلية ،. وبكات ماكينة الطحين الغامضة ، المؤدية إلى آفاق نائية . النيل في مواضع شتى . عند فوة . الطمى السخى المتراكم فى الأرض ، عند المراسى ، عند رأس البر ، عزبة البرج ومراكب الصيادين الراسية وصاحبى عبد الفتاح الجمل الذى يرقد الآن متوحداً بثرى « محب » والأبدية . النهر إذ يتحول إلى بحيرة قرب سوهاج، الجزر الوليدة ، الجبل المطل ، المزروعات الخضراء ، الجبل فى مواجهة المنيا، غابة النخيل ، سطوع الشروق الفرد لا مثيل له ؛ يؤجج عناصر الوجود من صخور ومياه ونبات وحيوان شتى ساعية ، ثم يصهرها ، يوحد بينها ، إذ يغشى البصر ما يغشى عند محاولة العين الحسيرة التدقيق والنفاذ بالرؤيا عبر حجب النور ، صخور جزيرة الفنتين بما تحمله من كلمات هيروغليفية ، رموز ، دلالات ، ندرك بعضها ويستغلق علينا الآخر، لماذا يترسخ اليقين أنَّ بداية الكون كانت من هنا ، من تلك الناحية، الجسور والقناطر والطحالب العالقة بالجدران العتيقة ،. الشواديف الرافعة ، والسواعد المتعبة ، القواديس الممتلئة ، الطريق من طهطا إلى جهينة ، من سوهاج إلى جهينة ، أبراج الحمام بتكويناتها القديمة ، شواهد المقابر الصامتة ، المتطلعة إلى حوار مستحيل ، أشجار الجميز وثمارها العسلية ، النزول عند ترعة البئر ، تجاوز الجسر ، لا أدرى لماذا نَظَرَتْ أمى إلَيّ محذرة؟ ، ولماذا رددت بصوت خافت ؟ هذه أول غلطة فَلأَنتَبِه . . » ثم أدركنى خجل لازمنى بعد بلوغ بيت خالى الذى وُلِدْتُ به ، والذى اعتدنا الإقامة به ،

والذى طلبت الحفاظ عليه ، وعدم المساس بغرفه وساحته وفرنه وخزاناته وصوامعه عندما عاد المغتربون فى أقطار الخليج ، وبدأوا يحولون بيوت الأجداد الفسيحة إلى عمارات تضم شققا ضيقة من الأسمنت ، تشوى النفوس قيظاً ، وتحجب السماء عن الأبصار المتطلعة . رائحة أشجار الجوافة، ومذاق البلح . الفوح الطاهر للمياه المعطرة بالزهر ، المتدفقة من الفوهات النحاسية للقرب الجلدية الراقدة فوق ظهور السقاة المتأنين، الصابرين ، المادِّين الأيدى بالأكواب النحاسية الممهورة بالأختام السلطانية.

تتدفق ناحية شارع قصر الشوق ، مجرد مثولها عندى يُجرى دمعى . ماذا تعنى تلك الناحية ، وأى قدرة لاستثارة كوامنى وتهديم متراسى ؟. أفق المدينة ، المآذن عند الظهيرة ، الأهرام البعيدة عند الأفق الغروبى ، الأذان النائى ، لواح البيوت المرتفعة فوق التل . موضع عتيق حتى لا تغمرها مياه الدميرة التى توقفت عن الوصول بعد اكتمال السد العالى . مداخل شتى لبيوت ، لمقاهٍ ، لمساجد ، لكنائس ، لمقابر فرعونية قديمة ، طرق مؤدية، كلها ذات مَيْل .

وجوه تفاجىء الذاكرة ، ظننت تواريها إلى الأبد ، قادمة من سنوات الصِّبَا ، من أَزِقَّةِ القاهرة ، من الساحات المحيطة بضريح مولانا ، من المدارس التى تعلمت بها ، يتردد عندى لفظ قيل يوماً على مسمع منى ، أى قانون يحكم الذاكرة ؟ أَمْ أنها فوضى العالم الأول ، لحظة التكوين، ولحظة الانهيار ، يقوى حنينى إلى الأماكن ، إلى اللحظات ، إلى بعض مَنْ عَرَفْتُ. أهفو إلى الجنوب ، لماذا تقاعست عن التودد خلال الأعوام الماضية ؟. لماذا تركت العمل الصحفى يجمدنى ، ويحولنى إلى مخلوق مبرمج ، ينتزع منى روحاً عزيزة ، طالما أجبت نزقها ، وهفواتها المفاجئة ، وقراراتها المباغتة ،

بالسهر ، بالسفر . للأسف ضيعت ما ضيعت ، وليكن ندمى شديداً ، لكن الوقت ضيق ، حدوده جلية الآن . اليوم المتبقى حتى الخط الفاصل ، والعلامة المحددة ، يوازى سنة أو أكثر من حقبى الماضية . الأسباب المؤدية إلى الندم عديدة ، حصارها ضرورى ، فالأَمَدُ محدود ، ضيق ، والحدود جلية الآن .

يظل الإنسان هادئاً ، ناعماً ، قادراً على التخطيط وإرساء الآمال ، طالما أنه جاهل بالحد . لكن إذا اتضح الأمر ، وبان اليوم الذى قد يقوى فيه احتمال الاقلاع ، ومتانة المغادرة ، فإن الأمر يصبح مغايراً . لزم الانتباه . .

الحنين . . حال غلب علىّ . تعددت احتمالاته واتجاهاته . وما أثار دهشتى . . نزوعى إلى أطعمة بعينها ، الخبز الشمسى ، والحمام المحشو بالفريك ، والسمك المقلىّ . والتقلية المدوية المسبغة على الملوخية أو الويكة، الفطير المشلتت ، العسل الأسود الممتزج بطحينة بيضاء ، الجبن القديم ، الطعمية الطاهرة فى رغيف من الخبز البلدى الساخن، هل يفسر نزوعى هذا ما قرأته يوما عن شراهة المحكوم عليهم بالإعدام ؟ ربما . . ما لفت نظرى أن كل ما اشتهيته ينتمى إلى موطنى ومحلى ، وكأن الأطباق الفرنسية من البط بالفواكه ، وكوكى سان جاك الذى تتقن عمله صديقة عمرى فريدة الشوباشى ، وتتفرغ لعمله عند زيارتى باريس ، واللحم المطهو فى مرق الجنوب الفرنسى ، وفواكه البحر ، والأطباق المكسيكية ، وامتزاج المذاقات فى المطبخ الصينى ، والجلاش المجرى ، والكبسة العربية . . كل ما تذوقته خارج النطاق المألوف ، إنما كان استثناء لا يدخل ولا يَمُتُّ إلى الثوابت . أنتبه إلى منظور خفى ، طال توجهى إلى بلدان شتى عرفتها ، ومدن أقمت بها ، وأطعمة تذوقتها . ما أكثر ما سيتكشف لى

خلال الأيام المتبقية ، ما أكثر ما سأتوهمه ، فلأنتبه . . . غير أن استسلامى للحنين كان تاماً ، حال غلب علىّ ، فَصَدَّنى ولم أقدر على رَدِّه ، رغم معايشتى له باستمرار ، إلا أنَّ الحنين هذه المرة كان مغايراً . . ذلك أننى وضعت فى الاحتمال ألا تقع عيناى مرة أخرى على الأماكن الملحة واللحظات الوافدة ، المارقة . بقدر ما سمحت به الطاقة سَعَيْتُ وطُفْتُ .

قَصَدْتُ ضريح مولانا الإمام الشهيد ، وحارة أم الغلام ، ومطلع الكفر ، وشارع قصر الشوق ، ودرب الطبلاوى ، وعطفة باجنيد التى زالت ، وشارع حبس الرحبة ، ودرب المسمط ، والدرب الأصفر ، وطريق المعز لدين الله ، وبيت القاضى ، والصاغة ، وخان الخليلى ، وسوق العطور بالحمزاوى ، وحارة سيدى معاز ، حيث يقيم أقدم صاحب لى على الإطلاق ، حسن بكر ، لكننى لم أجده للأسف ، لم أعتد أن أطرق بابه بموعد مسبق .

كان آخر مكان زرته قبل عودتى إلى البيت ظهر الخميس (الرابع من يوليو) مسجد وضريح مولانا . قاومت دمعى أثناء قراءتى وَتَلَمُّسِى لتلك اللوحة الجميلة التى أحبها حُبًّا جماً ، وأفضل مضمونها وشكلها ، آية كريمة توقد عندى شجنا شفيفا ، رقيقا ، لكنه وعر ، نفاذ ، وتهمس إلىّ بِمَعَانٍ يصعب تحديدها .

﴿ قل لا أسألكم عليه أجرا ، إلا المودة فى القربى ﴾

مكتوبة بخط ثلث جميل ، معلقة إلى يسار المدخل المؤدى إلى الضريح الذى يطوف به المصريون ، يتوقفون ويَشْخصُونَ ويتضرعون ، تماما . . كما كان أجدادهم يفعلون من أجل الشهيد أوزيريس فى مثواه الرمزى ، الأبدى ، فى أبيدوس . كلاهما قضى من أجل الحق ، والعدل . وكلاهما له المعزة والإجلال فى نفوس قومى القدامى .

فى الأيام السابقة . . قمت بإنجاز ما سَمَحَتْ به الطاقة ، رغم الآلام الموعرة التى توالت هجماتها تعكم صدرى ، وتقبض أوردة وشرايين صدرى، صَحِبْتُ أسرتى إلى مكان يفضلونه عَمًّا عَدَاهُ ، إلى الغردقة ، أمضينا إجازة قدرها عشرةِ أيام ، ورغم مصادر البهجة العديدة ، إلا أن وطأة الفراق القريب بَدَتْ ثقيلة ، مخيمة ، وبدا كل منا كأنه يتطلع صَوْبَ اتجاه من الجهات الأربع ، تحاشيًا للمواجهة . كنت أقضى اليوم كله بعد الإفطار فى غرفتى ، أقرأ وأعيد كتابة الجزء الأخير من حكايات المؤسسة . اتَّخَذَتْ قراءاتى خلال هذه الفترة محورين : الأول هو استعادة بعض النصوص التى أحببتها وتعلقت بها خلال مسارى ، هكذا أخرجت من الأرفف ، موبى ديك لميلفيل ، جسر على نهر درينا لأيفو اندريتش ، العالم سنة ١٩٨٤ لاورويل ، قاتل بلا أجر ليوجين اونكو ، المجلدات الأربعة لقصص تشيكوف المختارة ، ذكريات من منزل الموتى لدستويفسكى ، لعبة الكريات الزجاجية لهرمان هسه ، البحث عن الزمن الضائع لبروست ، أرض البشر لانطوان دوسانت اكزوبيرى ، الثلاثية وأصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ ، الفتوحات المكية لابن عربى ، وبدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس ، الإشارات الإلهية للتوحيدى ، وديوان الحماسة لأبى تمام، وأربعة كتب مقدسة ، كتاب الموتى المقدس عند فراعنة الزمن الأول . والعهدين : القديم والجديد . ومن قبل ومن بعد . . القرآن الكريم . بالطبع لم يكن الشهر المتبقى يكفى لقراءة هذا كله ، لكننى شرعت ، وقررت أن أصحبها معى إلى كليفلاند ، بحيث تكون باستمرار فى متناول يدى ، ومَصْدَرًا من مصادر استقرارى الروحى . . فلم أكتمل طوال حياتى إلا بمصاحبة الكتب ، وقد أمضيت وقتا طويلاً أتأمل الأرفف المثقلة ، وأتأكد

من وجود بعض النصوص النادرة فى أماكنها ، وقد كتبت ما يجب عمله فى هذه الكتب خلال الخطاب الذى ضَمَّنْتُهُ نِقَاطًا عديدة ، خاطبت فيها ابنى الأكبر ، وأودعته درج المكتب ، وأخبرته بموضعه ، ولكن طلبت منه ألا يفتح هذا الخطاب بالذات إلا بعد التمام !

أنهيت فى الغردقة قراءة المجلد السابع الأخير من كتاب « المقفى » للمقريزى ، وكنت بدأت الإبحار عبر صفحاته التى تتجاوز الأربعة آلاف منذ حوالى عام . ولم أشأ السفر قبل الانتهاء منه ، وتدوين الملاحظات الخاصة به . و« المقفى » من أمتع موسوعات التراجم وأهمها .

المحور الثانى الذى انغمست فيه ، إعادة اكتشاف التاريخ الفرعونى ، وقراءة المصادر الأساسية له . وبدأت معايشة موسوعة سليم حسن « مصر القديمة » . فرغت قبل سفرى من المجلد الثالث (تَضَمَّنَ ستة عشر مجلداً) . وأعدت قراءة مؤلفات برست وارمان ، وبلوتارك . وتأملت طويلا اللوحات الفرعونية في المجلدات الضخمة التى تنقل للقارىء العالم الثرى الخفى لمقابر وادى الملوك ، ودير المدينة ، وشيخ عبد القرنة ، وهرم أوناس الجميل . معظم هذه المؤلفات قرأتها منذ سنوات طويلة ، لكننى أستعيدها الآن فى سياق آخر ، ومازلت أوغل فيها ، مزوداً برؤية تزداد عمقاً وثراءً باضطراد ، وتحدث تغيرات روحية شتى عندى .

بشكل ما تنتمى قراءاتى خلال هذه الفترة إلى حال الحنين الغالب علىّ ، وأيضا إلى الرغبة فى المعرفة ، وتلك الرغبة لم تهن عندى قط ، بل تصاعدت خلال تلك الأيام المؤدية ، وأثناء إعداد ما يلزم للرحيل ، خصصت حقيبة لتلك الكتب التى ذكرتها ، ولم أصحب معى إلا جزءا واحداً من الفتوحات المكية ، وكتابًا صغيرًا لمولانا محى الدين ابن عربى ، عنوانه « إنشاء الدوائر» ،

ومُجَلَّدًا واحدًا (الرابع) من بدائع الزهور لابن إياس ، لم يكن ممكنا سفرى بدونهما .

فى الغردقة فرغت من إعادة الجزء الأخير من « حكايات المؤسسة » ، لم تَنْتَهِ كما خَطَّطْتُ فى البداية ، لكننى أنجزت العمل ، بحيث يمكن نشره ، وإذا قُدِّرَ لى المواصلة . . فيمكن عندئذ إعمال النظر ، وتدبير الأمر . بعد عودتى إلى القاهرة قمت بنسخ ثلاث صور من المخطوط . أودعت إحداها بين يدى صديقى وزميلى عزت القمحاوى ، على أن يتولى مسألة النشر كما تسمح الظروف فى حالة سفرى إلى اتجاه واحد .

خرجنا من القرية السياحية ظهر الاثنين ، كان الجو حاراً والقيظ شديداً واستغرقت رحلة السيارة الخالية من تكييف الهواء حوالى خمس ساعات ، لم نتبادل خلالها إلا كلمات قلائل ، ومنذ وصولنا إلى البيت وحتى الخروج منه تلك اللحظة فجر الجمعة ، كان الوقت كله بمثابة تمهيد مكثف للرحيل . كنت أدبر الأمور بهدوء ، ومرت بعض اللحظات التى أعددت لها العدة بسكينة وسلام ، منها زيارتى لأستاذى وصاحبى الحميم ، الكبير ، نجيب محفوظ مساء الثلاثاء . أثناء جلوسنا فى المركب الذى يشهد لقاءنا الأسبوعى قلت ضاحكا :

«فى مثل هذا الوقت الأسبوع القادم سيكون الشغل على قدم وساق . . » .

الثلاثاء القادم ، التاسع من يوليو ، عند الانصراف كنت محايدًا ، فيما عدا أننى مِلْتُ لأُقَبِّل يد الأديب العظيم ، الذى أعتبره بمنزلة شيخى ، وعندما احتضنته ضممت جسده النحيل ، ودعت صاحبى الحميم يوسف القعيد رفيق الدرب الطويل منذ الستينات ، وأصدقاء جلسة الثلاثاء :

الأديب زكى سالم ، والشاعر نعيم صبرى ، والمهندس حسن ناصر، والمهندس عماد العبودى. خرجت مودعاً لهم وللنيل ، وللحظاتى الحميمة معهم ، آملاً أن تعود . . . تماماً كما كنت أفعل عند توديع أبى . هكذا مضت أيضاً زيارتى السريعة لأشقائى فى منزلهم بمدينة نصر ، ظهر الأربعاء، وزيارتى المبكرة صباح الخميس لمثوى والدىّ - رحمهما الله - وزيارتى للمكتب، وتوقيعى أمر طبع العدد رقم ست وخمسين بعد المائة من أخبار الأدب ، وتبادلى الحوار الأسبوعى مع زميلى سامى من المطبعة ، ثم الجلوس قليلا إلى الزملاء : عزت ومحمود الوردانى ومصطفى عبدالله ، وإلى الصديق طلعت الشايب الذى جاء مبكراً وعند انصرافه فوجئت به يدس فى جيب قميص مظروفاً غير نحيل ، وبلهجته الحازمة يصر على إبقائه ، فالسفر طويل ، والتزود مطلوب ، ثم استدار خارجاً ، وكان يخفى تأثراً ، وهو من أولئك الرجال الذين لا يظهرون عواطفهم بسهولة . فتحت المظروف ، فوجئت بألف جنيه إسترلينى ، أوراق مالية حمراء ، جديدة ، تحمل صورة الملكة إليزابيث ، لم أرها من قبل ، كل منها فئة خمسين جنيها . المبلغ بالنسبة لى كبير ، وبالنسبة له أيضا ، ولو أننى أخذته معى ، فربما لا أقدر على رده مرة أخرى . ورغم حاجتى إليه ، إلا أننى طلبت من عزت - صديقنا المشترك - أن يبلغ طلعت امتنانى وتأثرى الحقيقى ، وأن يشرح الأسباب التى فَصَّلْتُهَا له ، والتى تجعلنى لا أضم المبلغ إلى رصيدى القليل الذى أسافر به .

اعتدت عند كل رحيل محدود أن أصافح الزملاء ، حتى مدخل الصالة الخارجية ، لكن الأمر هذه المرة يختلف . . . لذلك خرجت قاصداً مكتب الشيخ عبد الوارث الدسوقى . صافحته مقبلا يده ، وجاء عزت . تعانقنا ،

وأخبرته أننى سأخرج الآن فى هدوء ، قاصداً زيارة مولانا وسيدنا الإمام الحسين ، وأننى تَجَنُّبًا للضجيج أُوثِر الانسحاب فى صمت، فليبلغ كل الزملاء سلامى . كان عزت متأثراً ، غير أننى انصرفت بسرعة . كان سعيد سنبل فى إجازة ، وهو أحد الذين أُكِنُّ لهم ودًّا غير محدود ، أما جلال دويدار ، الذى لعب الدور الرئيسى فى استصدار قرار سفرى ، فبدت ملامحه مترقرقة . ورغم مظهره الصارم ، إلا أنه يضم بين صدره قلب طفل . بسرعة صافحت الزميل أحمد الجندى مدير التحرير ، وركبت المصعد المؤدى إلى الطابق الأول . ألقيت نظرة على المبنى ، على شارع الصحافة، على السنوات السبع وعشرين التى أمضيتها فى عملى هذا ، وكنت محايداً . . قادراً على التطلع إلى ما مضى من مكان قَصِيٍّ .

مضى العصر هادئاً ، مثقلاً ، وكذلك مطلع الليل ، خَلَوْتُ بابنى محمد قليلا ، استعرضت له الأوراق التى يضمها الدرج الرئيسى للمكتب، وعَقْدًا ابتدائيًّا لتملك بيت صيفى بقرية الصحفيين ، وأوضحت له المبلغ المتبقى ، وطريقة سداده ، وهذا البيت هو الشىء الوحيد الذي يمكن القول أننا نمتلكه ، وبالتالى فإن بيعه سوف يحقق رصيدًا ، يُمَكِّنُ محمدًا من إنهاء الأعوام المتبقية من دراسته فى كلية الهندسة . هذا كل ما ادَّخَرْتُهُ عبر هذه السنوات الطوال . كنت أخشى الأرق . . ذلك الاضطراب الداخلى الذى يمر بى ليلة السفر ، سواء أكان ذهابا من مصر ، أَمْ إيابا إليها ، غير أننى نِمْتُ بدون مساعدة ذلك الدواء الفرنسى الذى لا أتخذه إلا نادراً . وعندما استيقظت فى الرابعة فجراً ،كانت الأضواء كلها مشتعلة . لقد أمضت ماجدة الساعات الماضية مع محمد وماجدة الصغيرة . بعد الدش البارد ارتديت ملابسى ، وتأكدت من وجود بطاقات السفر والجوازات والنقود فى الحقيبة الصغيرة التى أحملها بيدى . وخرجت إلى الصالة .

فى الخامسة والربع تماما وصل زميلى السائق محمد رجب . ولديه قدرة هائلة على الوصول بدقة فى المواعيد التى نتفق عليها ، حتى إننى لأَعْجَبُ من قدرته على التوفيق بين المواعيد ، رغم زحام القاهرة ، واختناقات المرور . أَلَحَّ بعض المقربين الأعزاء فى القدوم إلى المطار ، غير أنى رجوتهم ألا يفعلوا، فكل ما أرجوه مرور تلك اللحظات بهدوء . ومظاهر الوداع قد تفجر عواطف كامنة ، ومشاعر أحاول تحييدها ، خاصة عند ماجدة ، التى أعرف جيدا قدر الألم الذى تعانيه بسبب ابتعادها عن الأبناء .

طوال عمرى اعتدت ألا أبدى كَوَامِنِى عند لحظات الفراق ، وعندما بدأت أسفارى داخل مصر فى الستينات ، لم أكن أُقَبِّل أمى ، اعتدنا أن نتواجه ، أن تتلاقى نظراتنا بعمق ، أن نشد الأيدى عند المصافحة ، كأن عواطفنا تخجل من التعبير عن نفسها . وقد استمر هذا معى ، كنت إذا وصلت إلى المنحنى عند فرن الحاج ناصيف ، أَلْتَفِتُ إلى الخلف ، فأجد أمى واقفة فى الشرفة ؛ أبتسم غير واثق من رؤيتها لابتسامتى . وكنت أثق أنها تقف قليلا بعد اختفائى عند الناصية . أول مراحل الغياب ، أما الوالد ، فكان يصحبنى فى البدايات إلى محطة مصر ، أو موقف الحافلات ، ثم ميدان الحسين .

عند اتجاهى إلى باب المسكن فوجئت بمحمد ابنى ، يحتضننى بقوة ، يقول ضاحكاً ، مُهَوِّناً :

« ولا يهمك يا جيمى . . شدة وتزول . . خليك جامد . . »

أجبته مبتسماً :

« انت شايف إيه . . ؟ »

هز رأسه ولم ينطق . عندما نزلنا السلم ، لَحِقَ بأمه عند الطابق الثانى ، تَخَلَّى عن هدوئه ، عانقها ، وقَبَّلَ يدها . أما ماجدة الصغيرة ، فكانت تبدو مضطربة ، تغالب دمعاً ، وكنت أفكر فى اللحظات التالية لخروجنا ، لبدء رحيلنا ، ما أثقلها على روحها الهشة ، الرقيقة ، على محمد ، على جدتها ـ والدة زوجتى ـ التى لم تكف عن الدعاء طوال الأيام الماضية . كانت ماجدة الصغيرة ترتدى سترة حمراء ، كان الجو حارًا ، والضباب عند الأفق ينبىء بيوم رطب . وقف البواب وزوجته الصعيدية مودعين ، لمحت فى عينيها دموعاً . تحركت العربة . عندما استدارت لتتخذ الطريق السريع المؤدى إلى المطار ، لمحت محمد وماجدة فى الشرفة . ولسوف يظل قميصها الأحمر الغامق ماثلا فى وعيى عند استعادة هذه اللحظة الفارقة التى يكتمل بها ثالث خروج مؤثر فى دنياى . . وإنْ كان أخطرها كلها . .



قبـل دخـولى طائرة مصر للطـيران التـى تحمل اسم «حتشبسوت»، وعلى دفتها رأس حورس الفرعونى ، توقفت عند نهاية السلم الطويل ، واستدرت لألقى نظرة أحاول من خلالها استيعاب المكان والزمان، ليس المطار . . فما أكثر ما تطلعت إلى مبانيه وساحات انتظار الطائرات ، والحظائر المعدنية ، والمنشآت الغامضة ، ولكنها نظرة مرتبطة بالموقع الذى أقف فوقه . . نظرة من موقع الثبات ، فوق الأرض التى أنتمى إليها قبل الإقلاع .

تلك عادتى قبل ولوجى جوف الطائرة ، عادة مرتبطة بمطار القاهرة فقط، بمغادرتى الوطن ،غير أن هذا السفر مغاير لكل ما سبقه ، لذلك أَطَلْتُ . . حتى دعتنى المضيفة إلى الدخول بابتسامة رقيقة . بادلتها التحية، وخلال لحظات كنت أجلس على مقعد الدرجة الأولى الوثير ، الذى تَدَخَّلَ الزميل جلال دويدار لتوفيره لنا . وعندما سلمنى البطاقتين، قال ان ما يتعلق برحلة العودة يدخل فى اختصاص مكتب نيويورك ، وأنه دبر الأمر مع مديره على مراد ، وهو زميل قديم بأخبار اليوم ، زودنى بأرقام هواتفه ، فى المكتب ، فى البيت ، وبأرقام هواتف المسئولين عن مصر للطيران فى مطار نيويورك لاستخدامها عند رحلة العودة . وكنت أصغى إلى لفظ « العودة » وأردفه بدعاء خفى ، غير منطوق . .

« يا رب . . »

النهار فى بدايته ، يوم جمعة هادىء ، الإقلاع سيتم فى موعده تماماً ، هذا يعنى لحاقنا بالطائرة المتجهة إلى كليفلاند ، لن نضطر إلى الجرى ، فثمة وقت فاصل بين الوصول والإقلاع الثانى ، يكاد يصل إلى حوالى ثلاث ساعات .

أُغْلِقَت الأبواب ، وبدأت الاهتزازات المصاحبة لدوران المحرك ، ثم تحَرُّك الطائرة الضخمة من طراز بوينج ٧٤٧ ـ وهى من أضخم أنواع الطائرات ـ صوب ممر الإقلاع الرئيسى الذى يربط بين مبنى المطار القديم والجديد . أعرف الطريق جيداً . . فلكم سافرت خلال الأعوام الماضية . إنها المرة الثانية التى أقصد فيها الولايات المتحدة . كانت الأولى عام تسعة وثمانين عندما سافرت إلى المكسيك . ولم نَقْضِ فى نيويورك إلا سبع ساعات فقط . . المسافة الفاصلة بين الطائرة التى أقلتنا من القاهرة ، وتلك التى ستحملنا إلى عاصمة المكسيك . كانت ماجدة بصحبتى أيضا عند عبورنا الأطلنطى للمرة الأولى ، لكن شتان بين المرحلتين ، ما أشد شُسُوع الفارق ، والحقيقة أن الظروف لا تتكرر أبداً ، حتى فى الأحوال العادية . لقد نزلت باريس منذ عام تسعة وسبعين حوالى أربع عشرة مرة ، وخلال بعض السنوات قَصَدْتُهَا ثلاث مرات . وفى كل زيارة كنت أجد أوضاعاً مغايرة للمرات السابقة . وينطبق هذا على كافة الأماكن والنواحى ، بدءا من النجوع والكفور ، إلى العواصم الكبرى .

يعلن الطيار مع استدارة مقدمة الطائرة صَوْبَ الممر أن الإقلاع خلال دقيقة . .

أتطلع خارج النافذة بالنظر ، الرمال ، الصحراء الممتدة ، جندى

حراسة يقف قريبًا من الممر ، سينصرف بعد ساعات ، وينام الليلة فى بيته ، أو بين زملائه . سيعود إلى الطريق المؤدى ، الطريق الذى سيتحول بلوغه مرة أخرى إلى حلم وأمنية بعد ساعات . .

تندفع الطائرة ، أحاول التشبث بكل ذرة رمل ، بكل شبر ، بكل لحظة مولية . الكوكب فسيح ، لكن لكل منا كوكبه الخاص ومداراته وأيامه الأقرب ، وتلك الأرض التى مازلت ملاصقاً لها هى الأقرب والأدنى ، وأهلى الأقدمين جزء من ثراها . أحاول التعلق بكافة التفاصيل ، هذه الحجارة ، تلك الأسلاك ، هياكل الطائرة القديمة المحطمة ، غير أننى أنتبه إلى تلك اللحظة المعنية ، الفارقة ، المؤدية ، الفاصلة ، عندما ترتفع مقدمة الطائرة ، تفارق العجلات اليابسة ، تتراجع الأرض بسرعة ، تشير البيانات الموضحة بالشاشة الحديثة المواجهة لنا إلى أن السرعة التى نتقدم بها فى الفضاء تبلغ حوالى مائتى وخمسين كيلو متراً ، تتزايد باضطراد . . كذلك الارتفاع .

مازلت قادراً على تحديد المعالم ، البيوت ، الطرقات ، الميادين ، الأشجار القليلة . تنطفىء اللوحة المضيئة الخاصة بمنع التدخين . يعنى ذلك أن الإقلاع تم بنجاح ، والحقيقة أننى لم أعرف مثيلاً لمهارة طيارى مصر للطيران ، عند الهبوط وعند الإقلاع ، حتى إننى أحياناً لا أشعر بفرق بين ملامسة العجلات للأرض ، وبقائها فى الفراغ .

أعرف الطريق ، بل أكاد أحفظ بعض معالمه ، الطيران فوق الدلتا ، حتى مدينة الاسكندرية التى نجد الحد الفاصل بين اليابسة والبحر غربها ، ثم نمضى إلى جزيرة كريت . . الخ ، غير أن ما يعنينى تلك الأراضى التى تشكل الدلتا ، اللون الأخضر الخاص ، تجمعات البشر فى المدن أو القرى ، لا أعرف أسماء مما أرى بالتحديد ، ربما كانت هذه طنطا أو دمنهور ، النيل

لا أضل عنه أبداً . . بانتظامه ، بعرضه ، بتدفقه ، بفضية مائه ولمعتها طبقاً لموضع الطائرة وسريان الضوء ، أستعيد لحظات مماثلة عبرت فيها هذا الفراغ ، متجها إلى الشاطئ الآخر من البحر ، غير أن الظروف كانت مغايرة .

تستغرق المسافة من القاهرة حتى الحد الفاصل بين اليابسة والبحر حوالى ثلاثين دقيقة . وتكون الطائرة قد قاربت على اتخاذ ارتفاعها المحدد . بالنسبة لى لا أعتبر أن سفرى بدأ فعلاً إلا عند اجتياز الأرض البادية إلى البحر، بل إن شعوراً بالأمان يستقر عندى فى الذهاب أو الإياب، طالما أننى فوق الدلتا وما تحويه من مراقد وقرى وترع وجسور وقناطر وعشش ومقاه، ونثار لحظاتى الآفلة .

هاهو الشاطئ ، واضح ، جلى ، وإن كان بعض من بخار الماء مازال عالقاً بالفراغ ، يضبب المشهد ، يمتد مصعداً صوب الغرب . أكاد ألمح بعض تقسيمات الساحل الشمالى ، مع المدى تندمج الأرض فى الفراغ ، تتحول إلى سراب . من خلال الطائرة تبدو الحدود جلية ، واضحة ، أذكر عند حلول الشروق أو الغروب ، يمكن رؤية النهار من جانب ، والليل من الجانب الآخر ، هكذا تختلف درجة الضوء من يسار الطائرة إلى يمينها ، ولكن ما يعنينى الآن هذا الشريط النحيل ، الشاطئ الممتد لمئات الكيلومترات بحذاء البحر . كنت أحاول التشبث بآخر ما يبدو لى من ثرى وطنى. تختلف وسائلى من لحظة إلى أخرى ، ومن موضع إلى موضع ، الآن ليس بوسعى إلا التعلق بالنظر ، بما لايمكن التشبث به ، كنت أحاول استيعاب المسافات الفاصلة بين نقطة يصعب تحديدها ، وأخرى وَعْرٌ بلوغها ، مع وعيى الأتم بحتمية المفارقة ، فلن تمضى دقائق إلاّ وتتحول

المرئيات الثوابت إلى صور فى الذكرى المكونة ، الدافعة ، تنصهر كافة المكونات فى الضوء والضباب الذى يصعب اختراقه ، تحلق الطائرة الآن صوب الغرب ، ألتفت بالقدر الذى تسمح به النافذة المستديرة ، الفضاء ، غمامات متناثرة ، سرعان ما تتكاثف . هذا الطريق قطعته مراراً ، لكن . . لا أثر ، المواضع التى تبدو على الخريطة مجرد علامات ، رغم أن بعضها سعيت به ، وأقمت فيه ، وأمضيت به بعضاً من زمنى ، ولى فى مواضع أخرى أصحاب أعزاء ، لكن كل ما أقرأه مجرد رموز ، علامات ، صقلية ، روما ، باريس ، ينحنى السهم محدداً وجهة الطائرة المتجهة إلى المحيط الأعظم من نقطة مغايرة لعبورنا الأول ، من جنوب إنجلترا هذه المرة . فى المرة السابقة صعدت شمالاً ، إلى اسكوتلندا ، تتعدد المسارات وتختلف .

رحلة هادئة ، اهتزازات نادرة ، نهار صحو يرافقنا حتى بعد غروبه ، إذ إننا نتجه غرباً ، وكلما تقدمنا لحقنا بالشمس ، أو لحقت بنا . عندما نصل إلى نيويورك فى الواحدة والنصف ظهراً ، ستكون الشمس هناك فى أوجها ، لكنها ستكون قد غربت عن القاهرة ، عن الإسكندرية ، عن موطنى ومستقرى ، دائماً يظل توقيته المركز والأصل ، مهما اتجهت شرقاً أَمْ غرباً ، حتى إننى لا أبدل عقارب الساعة أبداً مهما بَلَغْتُ دياراً مغاير توقيتها .

مع اختفاء شاطىء إسكندرية ، مع توحده بالضوء ، مع ذوبان اليابسة فى الضباب واستحالته على البصر ، انثنيت متجها إلى مكنونى . كانت ماجدة مستغرقة . ولابد أنها تكتم ما يمر بها ، خاصة فراق محمد وماجدة الصغيرة والبيت والعادات الصغيرة ، وتولية الوجه صَوْبَ المجهول . كيف يمكن لى أن أخفف أو أُضْفِى مَرَحًا ما ؛ كل منا كان يتكىء على الآخر ، كل منا يدرك ويعى ، لكنه يلتزم الصمت ، أو يقترح على الآخر قراءة هذه

الصحيفة ، أو تلك المجلة ، إضافة إلى حوارات قصيرة عابرة ، ومحاولات شتى من جانبى لشرح بعض تفاصيل الرحلة ، والحديث عن بلدان نمر فوقها ونعبر فضاءاتها ، قُدر لى بلوغها بمفردى يوماً .

الحقيقة أن اللحظة الأخيرة من سفرى تمت مع اختفاء الشاطئ ، وغلبة زرقة البحر على الآفاق البادية ، ولُوَاح هذا الاستفسار المصاحب :

« هل سَيُقَدَّرُ لى قطع هذا الاتجاه ، ولكن فى العودة . . ؟»

أغمضت عينى ، رغم تعدد أسفارى ، وتكرار لحظات خروجى . . فإننى أستعيد أياماً بعيدة، نائية، يلح على بالتحديد يومان شهدا خروجين وعرين، الأول : عام خمسة وستين ، بالضبط منذ واحد وثلاثين سنة ، كأنى أعى فوات الأعوام لأول مرة ، ما أطول المدة، رغم قصرها البادى فى وَعْيِى . خرجت بصحبة الوالد من بيتنا فى حارة درب الطبلاوى بالجمالية، لا أدرى ماذا دار بيننا فى ذلك الصباح البعيد ، لا أذكر حجم الحقيبة التى وضعت فيها حاجات تقتضيها طبيعة هذا السفر الذى يختلف عن كل أسفارى الماضية ، منذ التحاقى بمؤسسة التعاون الإنتاجى عام ثلاثة وستين. بدأت رحيلى إلى محافظات الوادى، فى الصعيد ، فى الدلتا ، كنت أقوم بمهمة التفتيش على وحدات السجاد التابعة للمؤسسة فى المدن والقرى. أتاح لى ذلك التجوال فى الريف المصرى، التعرف على مصر ، على التنوع والوحدة، من برارى الحامول شمالاً إلى الشلالات جنوباً ، من قرى الصعيد ذات الحضور الخاص المترسب داخلى، إلى قرى الوجه البحرى الأشد كثافة، والموزعة خلال الخضرة الممتدة حتى الأفق البادى . فى عام خمسة وستين شاركت فى كشف اختلاسات فى بعض الفروع التجارية التابعة للمؤسسة ، اختلاسات بمقاييس ذلك الوضع ، أى لا يتعدى حجمها

بضع مئات من الجنيهات ، وكانت التحقيقات تتم من خلال الشرطة العسكرية ، أو س خمسة التى كانت تتخذ مقراً لقيادتها فى سراى عابدين التاريخى. كانت القوات المسلحة ـ ممثلة فى أجهزة التحرى والرقابة التابعة لها ـ قد بدأت التدخل فى وحدات القطاع العام لوقف الانحرافات كما رددت الصحف وأجهزة الإعلام . فى هذه الفترة كنت شديد الإيمان بالاشتراكية ـ ومازلت ـ وكنت أعتبر أن ما يقوم جمال عبد الناصر بتطبيقه لا يَمُتُّ إلى الاشتراكية بصلة ، إنما هو نوع من رأسمالية الدولة ، وأنه ضرب للمصالح البورجوازية على المدى القصير ، لكنها خطوات تهدف إلى فائدة هذه البورجوازية ذاتها ، وكان أبسط ما أردده : كيف تتم الاشتراكية بدون اشتراكيين ، كيف تجرى التأميمات والاشتراكيون الحقيقيون فى السجون ؟ .
كنت معتنقاً لفكر وتحليلات تنظيم يسارى ، ضم عدداً من أبرز المثقفين من جيلى ، وإلى هذا الفكر أدين بتكوينى المبكر . والحديث فى هذا الموضوع يطول ، لكننى أُقَصِّرُ خشية الإطالة ، فأقول : إن شعورى الخاص كان ينبئنى بسريان خلل جسيم فى البنية ، لكننى لم أكن قادراً على تحديده ، أو تعيينه بالضبط ، وعندما بدأ تَدَخُّلُ القوات المسلحة ؛ اندفعت متحمساً لكشف الانحرافات فى المؤسسة التى أعمل بها . أليست تلك الوحدات من المال العام ؛ ألا يمتلكها الشعب ؛ ألا يعتبر تَدَخُّلُ الجيش فى ذلك الوقت خطوة حاسمة لحماية القطاع العام؟. هنا يصبح واجبى الإسهام بقدر ، مهما بَلَغَتْ ضآلة المنصب الوظيفى الذى أحتله . هكذا اندفعت بكامل الطاقة مشاركا فى لجان الفحص ، ومراجعة المشتريات والمبيعات . فى هذا الوقت استدعانى مدير عام المؤسسة ، وكان مهندسا زراعيا ، وشخصية معروفة ، أصبح نقيباً للزراعيين فيما بعد ، قال لى بهدوء :

« لا تكن ملكياً أكثر من الملك . . »

تطلعت إليه صامتاً ، قال :

« هذه الضجة التى تشارك فيها ستنتهى اليوم أو غدا ، وستكون أنت أول ضحاياها . . »

أبديت دهشتى ، وقلت أننى لا أقوم إلا بما يمليه عَلَىَّ ضميرى . وانصرفت متعجباً من لهجة الرجل الذى يحتل المنصب الثانى فى المؤسسة ، واعتبرت هذا اللقاء شكلاً من أشكال التهديد ، ورويت ما جرى لوكيل النيابة ، الذى كان يقوم بالتحقيق ، مازلت أذكر اسمه ، حسن صيام . . ، ويبدو أن أحد ضباط الشرطة العسكرية علم باللقاء وما جرى فيه ، عندئذ أرسل فى استدعاء المدير العام ، وأتى به راكباً خلف أحد الجنود دراجة بخارية حمراء من طراز اسمه (جاوا) . ويبدو أن الجندى كانت لديه توصية خاصة بخضخضة المدير العام ، والسير بسرعة فى شوارع القاهرة ، حتى إنه وصل إلى مقر س خمسة فى عابدين أصفر الوجه ، مضطرب الحال .

لكن يبدو أن المدير العام كان أبعد نظراً ، وأكثر خبرة ، لم تمض إلا أيام قلائل ، وصدرت تعليمات بحفظ التحقيقات ، أو وَقْفِهَا ، وانطوى الأمر كله ، ثم صدر قرار بنقلى إلى محافظة المنيا ، لأشرف على وحدات السجاد فى المحافظة ، وكانت موزعة بين سمالوط وملوى وزاوية سلطان شرق النيل ، على أن يكون مقرى المنيا ، وأن يتم التنفيذ خلال ثلاثة أيام ، أقوم بعدها بتسليم نفسى فى مقر الجمعية التعاونية بمدينة المنيا ، وإلاَّ . . اعْتُبِرْتُ منقطعاً عن العمل . مازلت أذكر الأمر الإدارى بلهجته الجافة ، المختصرة . ولم يكن هناك أى مجال لمراجعة القرار أو تعديله ، لم يكن أمامى إلا التنفيذ ، وكان ذلك يعنى ابتعادى القسرى لأول مرة عن الأسرة ، ولم

يكن الأمر يقتصر فقط على الإقصاء وبدء الغربة ، بل كان يتم فى إطار ظروف صعبة . كان مرتبى فى ذلك الوقت اثنى عشر جنيها، كنتِ مُعَيَّناً وفقاً لبند اسمه المكافأة الشاملة ، أى أننى لست مثبتاً على درجة لها اعتماد وعلاوات دورية . وتعنى المكافأة الشاملة بقاء هذا المرتب ثابتاً ، إلى أن يتقرر أمر !

كان صافى ما أتسلمه أول كل شهر عشرة جنيهات وخمسة وسبعين قرشاً، وكنت أساهم فى ميزانية الأسرة بسبعة جنيهات ، وأحتفظ بأربعة وخمسة وسبعين قرشاً أنفقها على المواصلات ، ومصروفى اليومى ، والكساء إذا اشتريت بعضه . ولكن كان معظم هذا المبلغ ينفق على شراء الكتب . الحقيقة أننى لم أنفق بسخاء طوال عمرى إلا من أجل اقتناء الكتب . إنها اللحظات الأولى التى لا أتردد فيها ، ولا أحسب ، ولا أفكر ، وربما كانت الرغبة فى الاقتناء ـ التى لم تهن حتى كتابة هذه السطور ـ رد فعل لتلك السنوات البعيدة التى كنت أستعير فيها الكتب من دارها العريقة بباب الخلق ، وإذا أعجبنى كتاب ؛ تمنيت لو اقتنيته ، وكثيراً ماكنت أُقْدِمُ على نسخ بعضها ، حتى تصبح ملازمة لى . وبعد خمسة وأربعين عاماً من القراءة المنتظمة المستمرة ؛ أقتنى الآن مكتبة خاصة ضخمة ، أعتز كثيراً بما تضمه ..

مع بدء تحرك عجلات قطار الثامنة صَوْبَ الجنوب ، تَعْلَقُ فى ذهنى ملامح أبى فى لحظة من أشد ما عرفته منها حزناً . تلك الملامح الحزينة أصلاً لطول ماعانته ، وماتعاقب عليها من صروف . لسوف تعاودنى تلك اللحظة مراراً ، وفى أماكن شَتَّىٰ ، خاصة عندما بدأ الوالد يمشى، محاولاً مسايرة سرعة القطار المتزايدة . ومن جانبى . . وقفت ولم أعد إلى مقعدى ،

حتى غاب عنى ، وغابت عنى المحطة بأرصفتها وباعتها وحماليها وزحامها وأوانها . هكذات بدأت أصعب مراحل حياتى ، وأوعر سنواتها . فى العام التالى (ستة وستين) أُعْتُقِلْتُ . ويمكننى القول أن شهور المعتقل ـ رغم قسوتها ، والرعب الملازم لها ـ كانت بالنسبة لى أقل معاناة وأهون . لم أتوقف عن الإسهام بنفس المبلغ فى ميزانية الأسرة ، وكنت أعيش مما تبقى ، وساعدتنى على ذلك . . إقامتى فى قصر آل الشريعى بسمالوط . وكانت أنوال السجاد اليدوى التى تكون الوحدة تستقر فى الطابق الأول منه ، وكنت أنام فى إحدى الحجرات العشرين الفسيحة التى تكون الطابق الثانى . الطريف . . أننى أثناء عودتى بالقطار فى أحد الأيام ، فوجئت بوكيل النيابة حسن صيام ، صافحته بحرارة ، وعلمت منه أن قراراً صدر بنقله إلى محافظة أسيوط ، أو قنا ـ لا أذكر بالضبط ، لكننى ظللت أروى تلك الواقعة زمنًا ، وأتساءل بعدها .

« ألم يكن المدير العام أبعد نظراً ؟ »

ملامح أبى المصاحبة لى . أستعيدها الآن فى الطائرة ، القعدة المصاحبة لانتظار أمى ، عندما نُقِلْتُ قسرا إلى المنيا ، أين كان الدكتور كوسجروف وقتئذ ؟ . اسمه حاضر عندى بشدة ، مثير لفضولى ، لخيالى . أليس هو مَنْ سيمسك بقلبى بعد أن يشق صدرى ، أليس هومَنْ سَيَبْلُغُ المخبأ الأمين بالنظر والأصابع النحيلة المدربة ، المزودة بالعلم والخبرة ، ليرتق ما فَتَقَهُ الزمن ، ليصلح ما أفسده الوقت ؟ أليس هو من سينحنى فوق جسدى الممدد ، ويعمل عمله ؟ . لست مشغولاً باسمه فقط ، بل . . باسم كل شخص فى فريقه العامل معه ، كل مَنْ سيتواجد فى حجرة العمليات ، داخلها أو خارجها ، كل ذى صلة .

كوسجروف . .

أين كان عام خمسة وستين ؟

لابد أنه كان طالباً فى المرحلة الثانوية تقريباً . قيل لى : إنَّ عمره ستة وأربعون سنة تقريباً . أى أنه كان يبلغ الخامسة عشرة فى تلك السنة التى نُقِلْتُ فيها إلى المنيا ، إنه من أبناء مدينة كليفلاند ، هذا ما أخبرنى به أحد العاملين هنا .

فى عام ستة وستين ، ربما لم يكن بدأ دراسته للطب بعد ، ربما كان فى عامه الأول أو الثانى . لا أدرى . . ولكن المؤكد أننى عندما أعْتُقِلْتُ لم أكن سمعت به ، ولا بمدينة كليفلاند ، بل إن احتمال زيارتى للولايات المتحدة كان مستبعداً . فى عام ستة وستين كان الدكتور صبرى عوض الله قد استقر مهاجراً فى مدينة كليفلاند بعد هجرته من مصر ، وبدأ عمله كطبيب تخدير، ولم يكن الدكتور فوزى اسطفانوس قد شرع بعد فى الهجرة من مصر.

فى عام ستة وستين ، بالتحديد فى أكتوبر ، عرفت اللحظة الثانية الصعبة . خرجت للمرة الثانية خروجاً وعراً ، لكنه قسرى فى تلك المرة ، فى التاسع من أكتوبر ، عند الفجر ، طرق باب شقتنا الصغيرة فى حارة درب الطبلاوى ، طرقات هجومية ، غتيتة . مازلت أذكر وقعها . كنت أنام فى إحدى الحجرتين الضيقتين ، وإلى جوار السرير منضدة صغيرة ، فوقها كتاب ضخم مجلد ، أخضر اللون ، الأعمال المختارة من مؤلفات فلاديمير ايليتش لينين ، وقلم رصاص كنت أسجل به بعض الملاحظات . الغريب أننى لم أَسْعَ إلى التخلص من هذه الكتب ، رغم كل الشواهد التى تؤكد شمول الحملة البوليسية التى بدأت منذ أول أكتوبر لأصدقاء مقربين . كانت ومازالت القراءة ذلك النشاط الذى لا يمكننى التوقف عنه إلا لسبب

قسرى ، خارجى ، يرغمنى على الكف . وأنى لَمُرَدِّد دائماً : طالما أقرأ ، فأنا بخير .

دخل ضابط يرتدى الملابس المدنية، قميصاً وبنطلوناً ،يصحبه جنديان، يرتديان الملابس المدنية أيضاً ، وقال أنه العقيد (لا أذكر الاسم الذى نطقه) من المباحث العامة ، التى تُسَمَّى الآن مباحث أمن الدولة . وفى تلك السنوات، وقليل مما تلاها ، كنت أنظر بحذر وقلق إلى أولئك الضباط الذين لا يرتدون الملابس المدنية . كان ذلك بالنسبة لى مثيراً للغموض وأحياناً للخوف ، فهو نوع من التنكر، يبيح لصاحبه أفعالاً غير عادية ، لا أدرى طبيعتها ، لكنها فى كافة الأحوال غير مريحة .

راح الضابط يفتش ـ بدقة ـ الدولاب الوحيد المخصص للكتب ، كان يخرج بعضها ، ويضعها فى كومة منفصلة ، راحت تعلو شيئاً فشيئاً . وعندما لاحظت أنه يستولى على بعض المؤلفات التى لا يوجد مبرر لمصادرتها؛ أبديت احتجاجاً هادئاً ، غير أنه تَطَلَّعَ إِلَىَّ بلا مبالاة ، وقال أن لديه أسبابًا قوية ، ليس مضطراً إلى شرحها . وحتى الآن أذكر ـ بحسرة ـ استيلاءه على المجلد الأول من (الكامل) للمُبَرِّد (طبعة بولاق)، والمجلدات : الثالث والخامس والسابع من « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » للجبرتى ـ طبعة دار البيان العربى ، الطبعة الوحيدة المحققة التى تتكون من سبعة أجزاء ، كان يصادر أجزاءً من كتب ضخمة وطبعات نادرة . وبعض هذه الأجزاء التى افتقدتها تلك الليلة ، لم أستطع الحصول على بديل لها حتى الآن بعد ثلاثين عاماً كاملة .

مما أثار حسرتى أيضاً . . كمية الورق الأبيض التى صادرها ، حوالى سبع رزم ورق مسطر وأبيض ، وورق مخصص للكتابة . وكنت أدخر هذه الكمية

مما أحصل عليه من مؤسسة التعاون الإنتاجى التى أعمل بها ، أو مما يحضره أبى إلَيَّ من عمله بوزارة الزراعة . كان يعرف حاجتى إلى الورق ، وحرصى على ادخاره ، ويرجع ذلك إلى الأيام الأولى التى بدأتُ فيها كتابة القصة ، كان ذلك عام تسعة وخمسين ، عندما بلغتُ الرابعة عشرة . كنت أحتاج إلى ورق مسطر لكتابة القصص ، وكنت أشترى الورقات الأربع (مجوز) بقرش صاغ ، أى ما يوازى مصروف يوم مدرسى كامل . كنت أحرم نفسى من شراء الحلوى ، أو شطائر العجوة ، أو الفول والطعمية ، لأوفر حاجتى من الورق والكتب ، ولكن المبلغ الزهيد لم يكن يكفى . وهنا قَدَّمَتْ والدتى ـ رحمها الله ـ ما يمكنها لمساعدتى ودعمى . كان شراء الورق والكتب مما يرضينى ويضفى البهجة علىّ ، لذلك حَاوَلَتْ هى ـ من خلال مصروف البيت ، أو ما يصل إلى يدها من مبالغ زهيدة ـ أن تؤازرنى . باستمرار كان عندى حاجة إلى الورق ، بعد عملى حرصت على ادخار كميات قليلة كنت أحصل عليها من زملائى الموظفين العاملين على الآلة الكاتبة . كنت أحاول تحقيقِ ما أسميه ـ مداعباً ـ «الأمن الورقى » . وهذا ما يلازمنى حتى الآن ، إذ أحرص على أن أوفر قدراً من الورق ، يكون على مقربة منى .

استولى هذا الضابط على رزم الورق السبع ، وعندما سألته عن سبب أخذها ، أشار إليها رافعاً حاجبيه :

« يمكن طباعة المنشورات بها . . »

فقلت مجادلاً :

«لكنه ورق لا يصلح . . لا يتشرب الحبر . . »

عندئذ قال غاضباً :

«حتعلمنا شغلنا . . »

لم يكتف فقط بحمولة ثلاث ملاءات سرير كبيرة من الكتب ، إنما استولى على رزم الورق ، وعلى جميع الصور الخاصةبى وبالأسرة ، وكنت أضعها فى مظروف سميك ، ونتج عن هذا . . غياب كافة الصور الملتقطة لى ولأخوتى حتى عام ستة وستين ، فيما عدا صورة نادرة ، صغيرة ، أفلتت بسقوطها فى أرضية الدولاب ، صورة فوتوماتون ، أبدو فيها متنكراً فى ثياب أعرابى ، وأخى إسماعيل أمامى ، ومسدس بيدى ، ربما كنت فى التاسعة وقت التقاطها فى استوديو للتصوير بشارع أم الغلام ، وكانت ماكينات التصوير السريع حدثاً وقتئذ فى القاهرة .

كانت سيارة المباحث العامة تقف أمام مسجد سيدى مرزوق عند مدخل حارة درب الطبلاوى . وكان البيت الذى نقيم فيه داخل الحارة الضيقة ، فى الفرع الأيمن ، إذ تتفرغ الحارة إلى فرعين : الأول إلى اليسار ، وتقع به سراى المسافر خانة ، أحد أشهر قصور القاهرة القديمة ، لكنه كان مهملاً فى ذلك الوقت . يقطنه خفير من مصلحة الآثار . وتروى عنه حكايات كثيرة عن جن أشرار يتخذون منه سكنا ، وغيلان يلتهمون الصغار ، وجندى شرطة يظهر أحيانا ليسأل ببراءة عن الطريق أو عنوان ما ، وعندما يولى مبتعداً ، تبدو سيقان الماعز ، ونصفه الأسفل نابت الشعر . الفرع الأيمن من الحارة ـ الذى يلى فرن الحاج ناصيف ـ يضم عدداً من البيوت ، وينتهى بعطفة باجنيد التى لم تكن تؤدى إلى أى شارع أو حارة ، كانت سداً ، من هنا يمكن كشف أى غريب يتعقب أى شخص هنا . وأذكر أننى منذ حوالى عام ، اكتشفت شخصاً يتعقبنى إلى داخل الحارة ، وربما يكون هو ذلك الضابط عينه .

حمل والدى ملاءة سرير ، عقد أطرافها ، حتى لا تتساقط الكتب ،

وحملت أنا واحدة ، وحمل أحد المخبرين الثالثة ، جلس الضابط فى المقدمة إلى جوار سائق كان ينتظر ، وجلست أنا بين المخبرين ، فى الوسط ، واحد إلى يمينى ، وآخر إلى يسارى ، ومن النافذة الخلفية للعربة لمحت أبى واقفاً متهدل الكتفين ، حائراً ، مباغتاً ، حزيناً ، فتلك كارثة لم يعد لها العدة ، وطامة كانت بعيدة تماماً عن حساباته وسائر ما يتوقعه من أحداث . سألت نفسى :

« ترى . . هل سأراه مرة أخرى ؟ »

كنت أحاول الاحتفاظ بكافة التفاصيل ، شارع الجمالية ، مصلحة الدمغة والموازين، ميدان الحسين ، شارع الأزهر ، كان الوقت مبكراً ، والمدينة تستيقظ متمهلة ، السادسة إلاَّ ربعاً . كنت أواجه المجهول ، ولا أدرى إلى أى سجن سيصحبنى هذا الضابط . وكان ما نسمعه عن التعذيب فى تلك الأيام مروعاً ، وكانت عبارة «راح وراء الشمس» تتردد كثيراً همساً ، وكان بعض المعتقلين المحتجزين بدون أحكام قضائية قد مضى على وجودهم وراء القضبان سنوات عديدة . كانت أوضاعهم أسوأ من المساجين السياسيين الذين صدرت ضدهم أحكام محددة . وإنْ كان هؤلاء يتحولون إلى معتقلين بعد قضائهم مدد العقوبة القانونية .

إلى أين ؟

لا أدرى !

ماذا ينتظرنى ؟

أين سيتم التحقيق ؛

أى أنواع من التعذيب ؟

كل الاحتمالات مفتوحة وقائمة ، فَلأَتَأَهَّبْ . حال مشابه لذلك الذى خرجت عليه صباح اليوم من بيتى ، وإن اختلفت الظروف . هكذا مضيت مقيداً إلى المجهول ، واضعاً فى الاحتمال أن اللاعودة قائمة ، وأننى ربما لا أرى أبى وأمى وأشقائى وصحبى مرة أخرى . كنا نسمع تلك الحوادث التى تروى عن مقتل معتقلين سياسيين ، وتبرير ذلك بمحاولتهم الهروب ، كانت تفاصيل التعذيب مروعة ، مخيفة ، وكان عَلَيَّ مواجهة ما يترتب على خروجى هذا . وقد جرى الأمر ، وانقضى الوقت . لم يقدر لى رؤية الشارع مرة أخرى إلا فى نهاية مارس عام سبعة وستين ، بعد خمسة أشهر وأربعة أيام من الاعتقال فى ظروف وعرة ، أمضيت منها أربعين يوماً فى الحبس الانفرادى بمعتقل القلعة الرهيب .

أحاول إمعان النظر عبر الذاكرة فى المسافات الفاصلة ، تلك الأيام الواقعة بين يومى هذا ، ولحظتى خروجى الأولى والثانية . أصغى بدهشة إلى رقم واحد وثلاثين عاماً ، إلى . . ثلاثين عاماً ، أستعيد بعضاً مما مررت به ، أجرى المقارنة . . .

لحظة خروجى إلى المنيا

لحظة خروجى إلى المعتقل

لحظة خروجى صباح اليوم . .

الفوارق جلية ، لكننى أضمها كلها ، أجمعها ، ألملم ما بينها ، تمضى الطائرة فوق المحيط متجهة إلى نيويورك بلا توقف ، مضيفة جميلة ، مصرية الملامح ، تبدى العناية وتتبادل حوارات قصيرة ، سريعة ، طابعها المجاملة مع زوجتى . تَفِدُ على ذاكرتى ملامح شتى لوجوه غاب عنى أصحابها .

أغفو قليلاً ، لكننى لا أستغرق أبدا فى النوم ، يمكن النوم فى القطار ، فى عربة كبيرة ، لكن فى الطائرة يستحيل ذلك بالنسبة لى مهما بلغ طول الرحلة وإرهاق السفر . تلح علىّ بعض الواجهات ، خانقاه بيبرس الجاشسنكير ، المدخل المنمنم ، والقبة الهائلة ، أوعية القمح والذرة فى الصحن المكشوف حتى الآن . أحدهم أوقف قدراً له صورة لإطعام الطيور .

واجهة مسجد قايتباى المنمنمة فى الصحراء ، المقهى المواجه . الشاى الغامق فى اللحظة الغروبية ، وعيناى تحاولان اكتشاف أسرار النسب التى تكون تلك الرشاقة ، الفراغ ما بين المئذنة الأنثوية والقبة الرائعة ..

واجهة بيت جدى لأمى فى جهينة . لَكَمْ كانت تبدو شاهقة أثناء طفولتى ، لَكَمْ كان البيت فسيحاً ، ولَكَمْ بدت الواجهة ضئيلة ، والبيت ضيقاً ، صغيراً ، عندما عدت إليه بعد انقطاع حوالى عشر سنوات ، انقطاع عبرت خلاله من الصبا إلى الشباب .

دائماً ، أينما وليت وجهى ثمة حنين إلى الجنوب ، لو قُدِّرَتْ لى العودة ، سأبدأ رحلة ، أتوقف خلالها عند مدن الجنوب التى عرفتها ، والتى لم أعرفها ، فى هذه اللحظة أتمنى رؤية النيل عند سوهاج ، والغروب عبر حقول الذرة «القيضى» . لابد أن أذهب أيضاً إلى رشيد . أخجل ، كيف لم أزر (رشيد) حتى الآن ؟ كيف لم أتجول فى بيوتها القديمة العثمانية ؟ ، ترددت مراراً على أبى قير . لم يكن يفصلنى عنها سوى كيلومترات قليلة ، لكنها كانت دائماً بين المشاريع المؤجلة ، فَلأَضمّها الآن أيضاً إلى قائمة النوايا . هناك يلتقى النيل بالبحر ، رأيت المصب عند رأس البر ، حيث فرع دمياط ، ولم أر اللقاء عند رشيد إلاّ من الطائرة ذات صباح كنت أسافر فيه إلى باريس ، متى ؟ لا أذكر ، لكنها رحلة خلال السنوات الأخيرة .

أعود إلى وضع السماعة لصق أذن ، أقلب القنوات ، ثمة صدى غامض مصاحب لتلاوة القرآن الكريم ، للموسيقى ، للأغانى ، كأن الإرسال يَفِدُ من عالم مُغَايِر ، حزن ما . أتوقف عند قناة تبث أغانى محمد عبد الوهاب ، حياتى انت ، أغانى فيلم دموع الحب ، كان الوالد يحفظ حوار الفيلم وأغانيه ، فى لحظات صفوه يتلوه علينا ، وكان ينغم صوته طبقاً للشخصيات ، كان عنده حب للموسيقى ، للغناء ، وقد حكى لى ذات مرة أنه عمل ممثلاً فى مسرح يوسف وهبى أثناء تقلبه فى أعمال شتى إثر وصوله إلى القاهرة فى العشرينات ، كان دوره قصيراً جداً ، ورغم ذلك منعه أحد الشيوخ الكبار من البلدة ، ربما ذكر أمامى اسماً من عائلة الضبع ، اعتبر ظهوره على المسرح فضيحة لا تليق بواحد من أبناء عرب جهينة .

أهز رأسى ، صمت والدى إلى الأبد ، ولم أستفسر منه عن تلك الواقعة . لا أعرف المدة التى أمضاها فى المسرح ، ولا الظروف التى عمل خلالها ، والدور الذى قام به ، كثير من الأمور فاتتنى فى حواراتى معه ، كان يردد دائماً « شوف يا بنى أبوك طول عمره شقى . . »

ورغم هذا الشقاء كان محباً للحياة ، للناس ، للمرح ، وكان راوية موهوبا ، إذا حضر مجلساً ، فلابد أن يسيطر عليه بالحكى . لم تكن حياته سهلة قط ، لكنه كان راضياً عنها ، حامداً لربه دائماً ، شاكراً فضله ، مردداً :

« عفوك ورضاك يا كريم يا رب . . » .

تتردد العبارة كأنى أسمعه من قريب ، أصغى إلى أغنية حوارية بين محمد عبد الوهاب ومطربة لا أعرف اسمها . كانت تناديه بمحسن (اسمه فى الفيلم) منذ خروجى فى الصباح . خروجى الثالث هذا ، وأنا أتجنب ما

يكن أن يثير مواجعى . كنت أتعامل مع الأشياء وكأنى انتدبت شخصاً آخر ينوب عنى ، وكنت أحدق طويلاً فى معالم الخريطة التى توضح مسار الرحلة ، لم تكن أسماء المدن إلا رموزًا ، رغم أننا نمر فى أجوائها ، أو بالقرب منها . كنت حريصاً على طرق حوارات عادية جداً مع زوجتى ، التى كنت أعرف تماماً مقدار ألمها لفراقها محمدًا وماجدة ، وكنت أحاول أن أتخيل حركتهما «الآن» باستمرار .

« لابد أن ماجدة فى الأوبرا الآن ، صحبها محمد لِتَلَقِّى درس البيانو» .

« الواحدة والنصف . . ربما كانا على الطريق الآن . . »

« ربما تجلس ماجدة الصغيرة أمام التليفزيون الآن . . »

الليلة الأولى سيكون وقعها ثقيلاً ، لابد أنها حلت الآن ، ولكن الطائرة تسبح فى ضوء نهارى ، إذ تتقدم الشمس باستمرار باتجاه الغرب ، السرعة تتجاوز الألف كيلو متر ، والخريطة تشير إلى اقترابنا من الساحل الكندى ، ثم نطير بمحاذاته ، نزولا إلى نيويورك .

فجأة مع قرب نهاية طيراننا هذا ، أصغى إلى صوت المطربة القديمة ، تخاطب محمد عبد الوهاب .

« لكن يا محسن أنا خايفة . . »

أداؤها أنوثى ، فيه دلع ، وحضور الهوانم فى الأربعينات ، لكن عندما تختتم الأغنية بجملة اسيانة .

«كان حلم جميل . . »

أفاجأ بما يجرى عندى من تَدَاعٍ وخروج عن حياد التزمته ، مواجهة كافة

ما أحاول تجنبه ، ولا يكون بوسعى إلا حث دمعى على التوارى بعيداً عن أى نظر .

الليلة السابقة على سفرى ، اتصل بى صاحبى الدكتور سيد القمنى بدا ودوداً ، حار المشاعر ، قريب الروابط ، ساعيا إلى طمأنتى ، قص علىّ نبأه فى كليفلاند . والجراحة الصعبة التى أجريت له ، وعودته مرة أخرى إلى غرفة العمليات ، بعد أن تمرد القلب على الجراحة الأولى ، وكيف أنهم نزلوا بحرارة القلب إلى ما دون الصفر ، وشَقُّوهُ شقاً .

« ومع ذلك عدت ، وها أنا أعيش وأستمتع ، وأحب الحياة ، وأمارسها بعنفوان . . »

أَسْدَىٰ إلَيَّ جميل النصائح . وهذا ما أقدم عليه آخرون ، أذكر منهم يوسف الشارونى ، والصديق الدكتور فوزى فهمى الذى كان يتصل بنا يومياً فى كليفلاند ، وأمير اسكندر ، وسناء البيسى . الدكتور القمنى ذكر تفاصيل عديدة ، كثير منها يخص السفر ، وكان مما نصحنى به أن أطلب مقعداً متحركاً باعتبارى مريضاً ، وقال أن ذلك أمر معمول به ، وإضافة إلى أنه سيريحنى ، فإنه سيضع مسئولية وصولى إلى مكتب شركة الطيران الداخلية على الآخرين ، إدارة مطار نيويورك ، هذا المطار الشاسع ، المربك ، غير أننى لم أطلب مقعداً متحركاً ، ربما لسببين : الأول أننى لم أعتد بعد الجلوس فوقه ، بينما يدفعنى آخر ، والثانى هو وجود صحب لنا فى المطار سوف يكونون فى استقبالنا ، ولابد أنهم سوف يسهلون علينا سلوك الطريق ، إذ طلب صاحبى وصديقى الحميم وجارنا السفير عصام عبد الرحمن من ابنته هويدا المقيمة فى نيويورك مُرَافِقَة لزوجها الدبلوماسى أن يكونا فى انتظارنا .

الزحام فى صالة الوصول شديد . الساعة لم تبلغ هنا الثانية ظهراً بعد، يبدو أن عدة طائرات وصلت فى وقت واحد ، اضطررنا إلى الانتظام فى الصفوف التى تفصل بينها حبال ممتدة ، تبدو واهية ، لكنها تحدد المسارات بدقة .

تطلعت إلى الساعة ، الثامنة والربع بتوقيت القاهرة .

الواحدة والربع بتوقيت نيويورك . .

الطائرة المتجهة إلى كليفلاند ستقلع فى الرابعة والثلث .

الوقت كاف ، والفسحة ضافية ، عندما وصلنا إلى مكتب ضابط الجوازات بدا هادئاً ، متأنياً ، تفحص الجوازين ، ثم عرض الصفحة التى تحمل التأشيرة على جهاز أضاء على الفور ، ثم قرأ الاستمارتين ، سألنى :

« كم ستقضى فى كليفلاند ؟»

تطلعت إلى وجهه الخمسينى الهادىء ، قلت :

« أتمنى . . أتمنى ألا أمكث أكثر من شهر . . »

نظر إلَيَّ متعاطفاً ، هز رأسه :

« أفهم جيداً ما تقول . . »

ثم كرر:

«أفهم تماماً ما تعنى . . »

قدم إلَيَّ الجوازين قائلاً :

« أتمنى لك حظا طيباً فى كليفلاند . . »

عَلِقَ بى ود هذا الضابط ، وإيماءته المتفهمة ، وذلك الحوار المُعم بالإنسانية عند خط فاصل يقتضى الريبة ، وإبداء الجفاء ، والشك ، كما يحدث فى معظم مطارات العالم .

لم يستغرق وصول الحقائب وقتاً ، خارج النطاق الجمركى . كانت هويدا عصام وزوجها وابنتهما الصغيرة البالغة من العمر سنة واحدة .

وصلة

من القاهرة إلى نيويورك ، الرحلة التى أعددت لها وتأهبت وشرعت وأمضيت الأوقات فى تخيلها ، الرحلة التى استغرقت اثنتا عشرة ساعة أصبحت جزءاً من ذخيرة ذاكرتى الآن ، أستعيد بعضاً من لحظاتها ، وتفاصيلها ، والوقت ، هكذا تنطوى اللحظات ، فارق التوقيت أضعف شعورنا بطول المسافة ، الليل مكتمل الآن فى القاهرة ، ولكن النهار هنا مازال فى ذروة صهده ، الضوء ناصع ، والجو حار ، لم يستغرق انتقالنا من المبنى الذى نزلنا إليه صوب المبنى الذى يقع فيه مكتب شركة كونتيننتال إكسبريس إلا وقتًا قصيرًا ، ذلك أنه مجاور تقريباً . يتكون مطار نيويورك من عدة مَبَانٍ ، تتوزع عليها مكاتب شركات الطيران . وهناك عربة تلف متوقفة عند كل منها . ويكون الأمر مرهقاً عند الانتقال بالأمتعة ، خاصة للقادمين من الخارج إلى الولايات المتحدة ، لابد من المرور على الجمارك بعد استلام الحقائب، ثم الانتقال بها إلى مكتب شركة الطيران التى ستتولى النقل الداخلى .

لم أسمع بشركة كونتيننتال من قبل ، رغم هوايتى تَتَبُّع أخبار الطيران، طُرُز الطائرات ، أسماء الشركات ، الاختراعات الجديدة . فى الجمالية ، كنا نسكن فى الطابق الأخير من المنزل رقم واحد ، عطفة باجنيد ، العطفة تقع

داخل حارة درب الطبلاوى ، عطفة سد لا تؤدى إلى حارة أخرى ، أيام عديدة قضيتها فوق السطح أراقب كل ما يطير ، بدءا من الحدأة والطيور الصغيرة المهاجرة ، وحمام «الغيات» الذى تنطلق أسرابه عصراً ، صاحب كل غية دَرَّبَ سربه على صفير معين ، ورايات ملونة ، يوجه من خلالها أوامره إليها ، إلى الطائرات الورقية ، إلى الطائرات الحقيقية ، وكان معظم ما يمر فى الفضاء فوقنا حربياً ، طائرات عسكرية . كان حلمى أن أتعلم الطيران ، أن أصبح قائداً أنطلق عبر الفضاء، محلقاً على متن هذا التكوين المعدنى ، وعندما حصلت على الشهادة الإعدادية تقدمت بأوراقى إلى مدرسة ميكانيكا الطيران التابعة للقوات المسلحة . كنت أعرف تماماً أننى سأتخرج فنياً وليس طياراً، ومع ذلك تقدمت . ثمة صلة ما ستقربنى من عالم الطيرانى، غير أننى لم أوفق فى الكشف الطبى بسبب قِصَرِ نظرى الشديد . أدركت أن حلمى بالطيران قد وَلَّىٰ ، وأن أقصى ما يجب أن أتوجه إليه هو أن أركب يوماً الطائرة صوب مكان ما . منذ ذلك الوقت صرت أقرأ كثيراً عن عالم الطيران والمطارات والطائرات ، وحتى الآن تخط يدى فى أويقات السهو أشكالاً من الطائرات على الورق ، وإذا تصادف مرور إحداها فى السماء، فلابد أن أتوقف ، وأتطلع إلى أعلى .

شركة كونتيننتال معروفة فى أمريكا ، لها خطوط دولية ، يبدو أن مقرها الرئيسى فى كليفلاند ، كان م كتبها صغيراً ، ويبدو أنه فرع للشركة الرئيسية . سألنى الموظف الزنجى عما إذا كانت الأمتعة كلها تخصنى ، فقلت نعم ، ثم سألنى عما إذا كان أى شخص قد عرض علىّ توصيل حقيبة سلمها لى ؛ فأجبت بالنفى ، عندئذ قام باستلام الحقائب الثلاث ، وأكد الموعد المحدد فى الرابعة إلا الربع .

غير أننا لم نقلع إلا فى الرابعة والنصف ، عند الإعلان عن الرحلة ، لم أجد زحاماً . وقف عند البوابة المؤدية إلى أرض المطار خمسة أشخاص تقريباً، وكانت السيارة التى تنتظرنا من نوع الميكروباس ، ظننت أن ثمة عربات أخرى ربما تنطلق من مكان مختلف ، ولكننى عندما رأيت الطائرة الصغيرة ذات المحركين التوربينيين ، أدركت أنها بمثابة تاكسى طائر ، ولم يكن عددنا إلا سبعة فقط . كانت المقاعد ضيقة ، غير مريحة . والحقيقة أننى أفضل الطيران فى تلك الطائرات الصغيرة ، التى لا تطير على ارتفاعات عالية ، لكن الاستمتاع بالتحليق البطىء هذا يقتضى روقان البال . وما أبعد ذلك عنى فى تلك اللحظات .

دارت المحركات ، بدأت الطائرة فى التحرك صوب المدرج . مسافة طويلة قبل أن تصل إلى ممر الإقلاع ، لمحت « حتشبسوت » اسم الجامبو المصرية التى احتوتنا طوال رحلة القدوم . تأملتها فى سكونها . ستبقى هنا فى هذا المهبط حتى الحادية عشرة ليلا ، موعد إقلاعها إلى الوطن . ترى . . هل سيقدر لى ركوبها مرة أخرى ؟

ألصق جبهتى بالزجاج المستدير ، أتشبث من خلال بصرى بها ، بحضورها باللونين : الأبيض والبنفسجى بالشعار الفرعونى الرائع ، حورس المرسوم على الدفة بشموخه ، بعمقه ، بخلوده ، رأس الصقر المقدس ، حورس الابن ، نسل الآلهة بالكلمات العربية :

« مصر للطيران »

بالعلم وألوانه الثلاثة ، بالنوافذ ، بالأبواب ، بالأجنحة ، بالمسافات التى قطعها هذا الجسم المعدنى ، بالذين احتواهم ، بالفراغات التى قطعها، بالأراضى التى حلق فوقها والبحار والجبال . لم تعد مجرد مركبة ،

إنها صارت رمزاً ومعنى لا يمكنني تحديده تماما ، أو تعيينه ، أو الإمساك به . غداً السبت فى الخامسة بعد الظهر ستلامس عجلاتها مطار القاهرة ، الممر الممتد فوق ثرى الوطن . كم من الوقت يجب أن يمضى حتى أدخلها مرة أخرى ، وأقطع مسافات العودة ، ترى . . هل سأكون واعياً ، أم هامداً ؟

أحاول الالتفات ، لكن مع تقدم الطائرة الأمريكية ، كان لابد من لحظة تغيب عنى فيها ، وتترك عندى الوحشة ، وذلك الحزن الشفيف الذى أجاهد لأقمعه أو أحيد عنه . كثير مما يمر بالإنسان فى اللحظات الحاسمة لا يمكن النطق به إذا أمكن إدراكه والتعبير عنه ، حتى إلى الأقربين . كثير مما تعرفه الخواطر فى اللحظات الحرجة لا يمكن للألفاظ أن تمسك به .

ترتفع الطائرة ، تقوم بمناورات عدة قبل أن تنتظم فى الاتجاه المقصود . أتطلع إلى البيوت الصغيرة المتجاورة ، ثم المتباعدة ، إلى حمامات السباحة الملحقة ، بعضها دائرى ، الآخر مستطيل . إنها المرة الأولى التى أطير فيها فوق أراضى الولايات المتحدة . خضرة كثيفة تبدو من خلالها الطرق خيوطا نحيلة ، مع استمرار الطيران تجاه أوهايو ، الولاية التى تقع شمال شرق ، على حدود كندا . تقل كثافة البيوت ، والعمران ، مساحات هائلة من الخضرة ، من الغابات ، لم يفارق بصرى الأرض ، كأننى أتشبث بها . وعبر ذهنى لم تتوقف شهب الذكرى عن المروق ، أحيانا تتمهل ، بل إن ملامح بعض مَنْ عَرَفْتُ كانت تطالعنى من خلال تلك الأراضى الغريبة عنى ، التى لم أطأها قط ، ولكنها جزء من ذلك العالم الفسيح الذى نعيش فيه ، وسوف ننذثر متوحدين به . كنت أُحَدِّقُ بالبصر الكليل ، محاولاً أن أستوعب تاريخ ما أرى ، أن أرصد من سعوا فوق هذا الجزء من العالم ، بدءا من سكانه الأصليين ـ الهنود ـ إلى البيض الغزاة ، إلى عبيد أفريقيا الأسرى ،

المعذبين . كنت أحاول أن أحشد كل حَوَاسِّى لمعرفة ما أرى ، لأسترجع ما قرأت ، فلا يطالعنى إلا تاريخى ، إلا شذر من أيامى المنقضية ، من لحظاتى الآفلة .

لماذا يفد علىّ المعلمون الأوائل ؟ ، تتداخل ملامحهم بمعالم الأرض التى أرى ، أقدمهم الشيخ مصطفى . . الشيخ مصطفى ، أَمْ رضوان أفندى ؟

لا أدرى أيهما الأقدم ! لكن كل منهما يمت إلى مرحلة التعليم الابتدائى ، مدرسة عبد الرحمن كتخدا بقصر الشوق ، ما تزال البناية قائمة ، لكنها مغلقة منذ عدة سنوات ، الباب الضخم موثق بسلاسل وقفل ، مكون من طابقين . نوافذه عثمانية الطراز ، جئت إليه عام واحد وخمسين بصحبة أبى ، وكان السكرتير (اسمه إبراهيم أفندى) رجلاً يرتدى جلبابا وجاكتة وطربوشاً وكان يتوسط ذقنه وشم أخضر . جرى حوار بينه وبين أبى ، أدركت منه أن الوالد ـ رحمه الله ـ كان يطلب تأجيل دفع المصاريف حتى بداية الشهر . اقترح عليه ابراهيم أفندى تقديم شهادة فقر تعفيه من المصاريف (عرفت فيما بعد أن مقدارها خمسة وسبعين قرشاً »، لكن الوالد أَبَىٰ . قال إنه يتشاءم من هذه الشهادة ، قال إن الولد ـ يقصدنى ـ يبدأ تعليمه ، ولن يرضى بدء المشوار بشهادة فقر ، كل ما يرجوه التأجيل . أذكر أن إبراهيم أفندى مال إلى الأمام قائلاً :

« كلامك ماشى يا عم أحمد . . »

وحتى الآن لا أدرى لماذا خاطب أبى قائلاً يا « عم » ، رغم أنهما متقاربان فى السن . كانت حجرات المدرسة فسيحة ، جدرانها مرتفعة ، وكنا ننتظم صفوفاً فى الفناء الداخلى ، حتى إذا حلت الظهيرة تصاعدت روائح الطبيخ ، كانت توزع على كل منا وجبة كاملة ، ساخنة ، دسمة ،

فيها مرق وخضار ولحم . ولم يستمر ذلك إلا عامين اثنين من مرحلة دراستى الابتدائية ـ أربع سنوات ـ بطل بعدها الطبيخ ، واسْتُبْدِلَ بأرغفة خبز ، وجبن رومى ، وحلاوة طحينية ، ويومين يوزع فيهما البيض المسلوق . اثنتان لكل منا ، ولا أذكر كم مرة وُزِّعَتْ علينا علب سمن معدنية تحمل شعار الصداقة والعلم الأمريكى ، لكن والدتى رفضت فتحها أو استخدامها ، لأنها سمن صناعى ، ولم تكن تطبخ إلا بالسمن البلدى الذى ترسله إلينا ـ بانتظام ـ جدتى من القرية . كانت أمى ـ رحمها الله ـ تعتبر استخدام السمن الصناعى علامة على الفقر ، وظلت تؤمن بذلك حتى نهاية الستينات ، عندما أصبح السمن البلدى الذى يباع بالأسواق مختلطا بالصناعى ، وارتفعت أسعاره ، أما سمن الجدة ، فتوقف منذ العام الرابع والخمسين ، سنة رحيلها .

تطالعنى ملامح الشيخ مصطفى . .

كان مهيباً ، ضخم الجسد ، نظيف العمامة والشال ، والقفطان الذى يبدو تحت الجبة المفتوحة والحزام الشاهى العريض ، وعلى الكتف الشال المنقوش ، حريرى فى الصيف ، من الصوف فى الشتاء ، ومازال الفقهاء ، وقُرّاء القرآن الكريم يضعونه فوق أكتافهم حتى الآن . كانت للشيخ مصطفى هيبة ، ينطق العربية الفصحى بمهابة ، وعنده قدرة على توصيل المعانى الغامضة ، ولم أعرف عنه إلا أنه يسكن درب المسمط القريب من حارتنا ، وكثيرا ما كنت ألمحه أثناء سيرى فى شارع حبس الرحبة ، أراه قادماً من بعيد ، فيبدأ عندى خوف غامض ؛ وأتوارى على الفور .

هكذا أستعيده دائماً .

فى شارع حبس الرحبة قادماً من درب المسمط ، مهيباً ، شامخاً ، بطىء

السير ليس عن وهن ، إنما لِهَيْبَةٍ وَقُورَةٍ . سرعان ما أبتعد عن طريقه .

متى رأيته آخر مرة ؟

ربما . . فى أواخر الخمسينات ، عندما كنت فى نهاية المرحلة الإعدادية ، كنت قادماً من شارع المشهد الحسينى أو ماضياً إليه . المهم . . أننى كنت أعبر حارة الوطاويط الضيقة المحاذية تماما لسور مدرسة محمد على (الحسين فيما بعد) التى درست بها المرحلة الإعدادية .

فوجئت به أمامى .

كان نحيلا ، قامته أقصر ، طيته مهملة ، كذلك ملابسه ، لا ينتشر حوله عبق المسك أو العنبر ، وبدا واضحاً من خَطْوِهِ أنه يرى مواقع خطواته بصعوبة . تقدمت منه غير وَجِلٍ ، بجرأة .

« كيف حالك يا مولانا الشيخ مصطفى ؟ »

أمسكت يده ، قَبَّلْتُهَا ، سحبها بسرعة مستغفراً الله ، بدا مسروراً ، نزل على ملامحه بِشْرٌ . سألنى عن اسمى ، وأين أنا الآن ؟ . بعد أن أجبته ، تمنى لى التوفيق ، ودعا لوالدى بطول العمر ، ولم أستطع أن أتبين شيئا خاصاً فى دعائه هذا ، هل يقصد أبى تحديداً ، أم أنه اعتاد ذلك ؟ . وقفت أرقب ابتعاده المتأنى . لا أعرف إذا كان يذكرنى أم لا ، لكن سعادته بدت جلية ، وارتبطت بملامحه التى لم تقع عليها عيناى قط ، لم أره فيما تلا ذلك من أيام وشهور وسنوات ، وها هو يطالعنى من مساحات الغابات الكثيفة ، والتلال الخضراء ، والبيوت المتباعدة التى تحلق فوقها صوب كليفلاند .

المضيفة شابة أنيقة ، جميلة ، ساطعة البصر ، فياضة بالحيوية ، لم تكف عن الحركة . وبعد أن وزعت علينا مشروباً من المياه الغازية أَوَتْ إلى مقعدها

فى مؤخرة الطائرة . وعندما لمحتنى أعاود الإمساك بعصاى ، هرعت صوبى لتطلب وضعها فوق أرضية الطائرة ؛ فأومأت مبتسماً ، وامتثلتُ . عدت أتطلع من النافذة المستديرة إلى الخلاء ، إلى الغمامات الرمادية المتناثرة ، لا تنبىء بمطر أو عاصفة . فى الليلة الماضية طلبت من محمد ابنى أن يطلع على المناخ عبر الشبكة الدولية للمعلومات ، وأخبرنى بدرجة الحرارة نهاراً وليلاً فى كليفلاند ، وعن عواصف رعدية ممطرة . مناخ متقلب لم أعهده ، ولم أقدر على تخيله ، رغم أسفارى المتعددة ، وتعرفى على ظروف جوية لم أعرفها فى موطنى ، أو ربما أكون مررت خلال أويقات قصيرة ، وبدا لى الأمر هكذا ، ألم تمر بى لحظات كأنى أتأهب للسفر أول مرة ؟ كأنه أول رحيل خارج الديار ، وبعد حين أدركت . لماذا يبدو هكذا ؟ لأنه قد يكون الأخير . والنهاية جالبة للبداية دائما ، وإلا لما كانت أصلا !

تتداخل ملامح أخرى مغايرة بالشيخ مصطفى . .

رضوان أفندى ، والأستاذ سعدالله . .

كلاهما كانا من مدرسى عبد الرحمن كتخدا الابتدائية . لماذا أُقْرِنُ لقب الأفندى بالأول ، والأستاذ بالثانى ؟

لا أُدرِي . .

لكننى أحاول تلمس التفسير المرضى ، فأقول أن الوالد لم يكن يتحدث عن رضوان ، إلا ويكمل قائلاً « أفندى » . أما سعد الله العجوز ، فلم أخاطبه إلا : يا أستاذ . ولا أذكر أن والدى التقى به . كان يقابل رضوان أفندى عند بيومى الحلاق بميدان بيت القاضى ، وجارنا القديم فى البيت رقم واحد بعطفة باجنيد . ومازال دكانه قائماً ، والمرايا العتيقة مثبتة إلى

الجدار ، وابنه الذى كان زميلى بالمدرسة يقف فيه بعض الوقت ، وليس كله . وعندما خرجت من درب قرمز قبل سفرى إلى الغردقة ، عندما مضيت لأودع أول أرض خَطَوْتُ فوقها ومشيت، رأيته وصافحته . هكذا . . لا نتكلم إلا نادراً ، لقاء خاطف سريع ، أحرص خلاله على إبداء الود ، مجرد مصافحة وأمضى ، كيف يرانى ؟ كيف يذكر عهدنا القديم ؟ كيف تبدو صورة والدى عنده ؟ بل . . هل يتذكر أمى التى أقامت فى ضيافة والدته ثلاث أيام عندما فاجأتها حمى بعد إجهاضها ؟ . جرى ذلك فى الأربعينات . لم أحاول الاستقصاء . لم أبذل جهداً للوقوف على ما تبقى منا عنده ، فهل تسمح الفرصة الغامضة فى الآتى ؟

لا يمكننى القطع . لا أقدر على الجزم ، وأنا أتقدم الآن صَوْبَ مجهول ، ربما يحتوينى بكافة وارداتى ومحاصيلى الكامنة إلى الأبد الأبيد .

رضوان أفندى . .

مطربش ، وغير مطربش

ها هو فى الفصل يرتدى الحلة الكاملة والطربوش .

ها هو فى ميدان بيت القاضى . فى المواجهة قبة قلاوون الهائلة ، صلعته كسطحها الأملس . خلع الطربوش الأحمر ، بعد أن قررت الثورة إلغاءه باعتباره من رموز العصر الملكى ، رغم ذلك احتفظ الوالد ـ رحمه الله ـ بطربوش أحمر قانٍ ، كان يعنى به ، يضعه فى علبة مستديرة من الورق المقوى ، خضراء ، وكل سنة يمضى به إلى محل كبير بالغورية ، تصطف به القوالب المصنوعة من النحاس الأصفر المتين ، التى تبرز منها مقابض خشبية . يتم قلب الطربوش وكَيُّهُ ، إعادته جديداً تقريباً . لم يكن والدى ـ

رحمه الله ـ يرتديه إلا أيام الجُمَعِ عند ذهابه إلى الصلاة في مسجد سيدنا ومولانا .

فى ذاكرتى الآن رأس رضوان أفندى ، صلعاء تماما ، رغم أنه يقف فى مواجهة الدِّكَك أو (التُّخَت) كما نسميها . يغلق النوافذ الخشبية المستطيلة . الباب المكون من مصراعين مصمتين ، ومستطيل أعلاهما زجاجى (شُرّاعَة)، يبدو التواطؤ بيننا وبينه ، تنحسر القسوة ، ويولى الخوف من الضرب والإيذاء ، تذوب الخشية ، ولكن يبقى الاحترام راسخاً . يقول :

« اسمعوا يا أولاد . . »

يغمص عينيه . يبدأ صوته العذب ، الشجى فى التدفق . .

«مصر التى فى خاطرى وفى دمى

أحبها من كل روحى ودمى . . »

أغنية شجية لأم كلثوم . كنت أسمعها من خلال مذياع جارتنا الست روحية . أصغى إليها من بعيد ؛ فتُحْدِثُ عندى أمراً ، إلى الشجن أقرب ، وقُدِّرَ لهذه الأغنية أن تكون محوراً لأحزانى المنهمرة فى العام السابع والستين بعد الهزيمة الكبرى التى تلقى بظلالها الثقيلة على وطنى حتى الآن ، وإلى مدى لا يعلمه إلا العلى القدير .

يغمض رضوان أفندى عينيه ويحرك رأسه يمينا وشمالاً ، تغرورق عيناه بالدموع ، لا يتوقف إلا مع رنين الجرس العتيق الذى يعلن انتهاء الحصة ، عندئذ يبدو كأنه قادم من سفر طويل ، يجول بعينيه فى ملامحنا ، يسترد شدته ، يذكرنا بالدرس والواجب ، ويمضى . ما الاسم الثانى لرضوان أفندى ؟

لا أدرى .

بل إننى أحيانا أتساءل ، هل كان اسمه رضوان أفندى حقاً ، أم أننى انتحلت لملامحه هذا الاسم مع مرور الأوقات ، وتحول الملامح ، وبهتان الأسماء ؟ .

ربما . .

غير أن الأستاذ سعدالله كان اسمه سعدالله فعلاً .

كان نحيلاً ، أدرك الآن وقت تدوينى هذا أن رضوان أفندى كان ممتلئاً إلى حَدٍّ ما ، أطول قليلا ، أما الأستاذ سعدالله ، فكان قصيراً ، نحيلاً ، أكبر سنا وأضعف بصراً ، يرتدى نظارة طبية سميكة ، ينحنى إلى الأمام قليلا ، وعنقه يغوص إلى حَدٍّ ما بين كتفيه .

كان من أعظم الحكائين الذين عرفتهم . لديه قدرة على الرواية والحكى وإثارة الخيال . فى تلك السنوات البعيدة كانت المخيلة بكراً ، شفافة ، قابلة لكل صورة ، تضفى عليها من وقيدها ، من توهجها . جنوحة إلى الآفاق النائية ، وكان المجهول المثير فى العالم فسيحًا ، شاسع المدى ، يبدأ من سلم البيت الذى نسكنه إذ يجن الليل ، ومن الناصية ، ومن فوهة الفرن، ومن غموض جدران المسافر خانة ، وميل ملقف الهواء الخشبى بأعلى . كان الوصول إلى ميدان مولانا الحسين مغامرة ، وعبور قبو قرمز نهاراً جسارة ، والتطلع إلى إحدى الخرابات المنتشرة فى المنطقة يقتضى قراءة الفاتحة تحسباً وتحوطًا . . . فكما لُقِّنْتُ . . . كانت البسملة ضرورية لطرد العفاريت المؤذية ، وقراءة فاتحة الكتاب ضرورية لدرء أخطارهم ، وبث الطمـأنينة فى القلب الفضـى الذى لم تلحقه الإصابة بعـد ، ولم تـدرك

شـرايينه وأوردته منغصـات الواقـع ، وهمـوم بعيـدة ، وأخـرى دانيـة .

جاء الأستاذ سعدالله ليؤجج المخيلة المتأهبة بقدرته على الحكى ، وبصوته الهادىء ، العميق . كان يقص علينا القصص الدينية بأسلوب مهيب ، جذاب ، وحتى الآن لا أصغى إلى سورة سيدنا يوسف ، إلا وأرى ما تكون عندي أثناء إصغائى إلى وصف الأستاذ سعد الله ، بئر عميق موحش ، والدلو المصنوع من جلد الماعز معلق إلى دولاب خشبى ، ورائحة الماء قوية ، وإذا مددت البصر ، ألمح انعكاس الضوء على سطحه ، إنه بئر من جهينة ، عاينته ورأيته ، التقى مع شرح الأستاذ سعدالله ، وأوجدت مخيلتى يوسف الطفل فى البرودة والظلمة والوحشة قبل أن يدركه بعض السيارة. لم يكن المعالم بالنسبة لى ما يمكن إدراكه بالحواس ، تلك المرئيات ، ولكن ثمة عوالم أخرى ، تحت الأرض ، فى أعماق الفضاء ، فى الفراغ ، فى المسافات الموازية لنا ، ثمة لغات غير لغات البشر ، للجدران ، للأسقف ، للشجر ، للزهور ، للجسور ، للسواقى ، للقطارات ، للأثاث ، بل . . لأعضاء الجسد . حكى الأستاذ سعدالله أحد بواعث توهج خيالى ، إضافة إلى الليالى التى أمضيتها فى بيت خالى . أقرأ لجدتى من ملحمة الظاهر بيبرس ، وعنترة ، والهلالية ، وكتب التصوف . كانت الوالدة ـ رحمها الله ـ تخرج مع امرأة خالى إلى « الحماد » بصحبة نساء الربع (جهينة مقسمة إلى أربعة أقسام) . البيوت خلو من دورات المياه ، الرجال يقضون حاجتهم فى دورة مياه المسجد ، ولكن النساء ينتظرن حتى المساء ، ما بين المغرب والعشاء . كل منهن تحمل قدرة من الفخار بها ماء دافىء ، وتمضى إلى (الحماد) ، أرض خلاء قريبة . وكان ثمة عرف صارم ، ألا يقترب أحد الرجال من تلك المنطقة . كانت جدتى لأمى تبقى بصحبتى فى البيت ،

وكان أخى إسماعيل أصغر سنا ينام مبكراً ، ومن « سحارة » عتيقة أتناول كتابا مما تركه جدى لأمى . رحل مبكراً ، وكان إماما للمسجد ، ومأذوناً ، ومداحاً للرسول . وحتى وقت قريب كان المعمرون فى ربع حسام الدين يذكرون صوته الجميل .

تلك القراءات ألهبت مخيلتى أيضاً ، السطور ، الصفحات ، المواقف تتجسد أمامى ، أصبح جزءا من الأحداث . أتحيز لهذا ، وأتعاطف مع ذاك ، أحيانا أبكى ، وكثيرا ما كنت أكمل موقفاً ما بكلمات من عندى ، وأختلس النظر إلى جدتى ، خشية أن تكون رصدت التغير ، لكن إطراقتها لا تتغير ، تنظر باتجاه واحد ، نقطة ما فى الأرض ، هل كانت تتابعنى حقا؟

لا أدرى . .

كانت نحيلة ، طويلة ، يتوسط ذقنها وجبهتها وشم أخضر جميل ، تَرَمَّلَتْ مبكراً ، ورفضت الزواج ، بل خرجت مع خالى إلى السوق ، تقف إلى جواره أثناء بيعه الحبوب ، القمح ، الذرة ، السمسم . أذكر صحبتى لها عبر حقل ذرة كثيف ، كنا بمفردنا ، وكانت تتجه إلى مكان ما . وكنت أجتهد لأظل موازياً لها ، ممسكا بطرف « الشقة » السوداء ، وهذا ما يطلق على الملاءة السوداء فى الصعيد التى تلف بها المرأة جسدها ، ويظل وجهها سافراً ، حتى فى حضور الرجال ، ولكنها عند عبور الرحبة أو الشارع العام ، لابد أن تولى بوجهها بعيدا عنهم ، ولكن بشكل لا يحجبها تماما ، هكذا رأى أحمد الغيطانى يوماً (بخيتة) أثناء عبورها أمام « المندرة » ، فسأل محمد أحمد إسماعيل :

ابنة مَنْ هذه ؟ .

أجابه قائلا :

من بيت باشا .

هنا قال الشيخ عبد اللطيف محمد على . .

ما رأيك . . أخطبها لك ؟

هكذا . جئت إلى الدنيا ، تلك أول خطوة فى اتجاه قدومى . ماذا لو أن بخيتة على باشا لم تخرج فى ذلك اليوم ؟

ماذا لو أن أبى لم ينطق بالاستفسار ؟

ترى . . ماذا لفت نظره إليها ؟

أسئلة شتى لن أجد لها إجابة شافية . لكن . . هذا ما جرى فى أحد أيام عام ثمانية وثلاثين . وفى العام التالى مباشرة جاءا معًا إلى القاهرة ، أو إلى مصر ، كما تعرف العاصمة فى الأقاليم البعيدة عنها . وبعد ست سنوات جئت إلى العالم . بالضبط فى اليوم نفسه الذى انتهت فيه الحرب العالمية الثانية ، التاسع من مايو . كنت الثالث ، وكنت الأول . أما الثالث ، فَلأنَّ اثنين سبقانى ، ولم يقدر لهما العيش ، خَلَف وكمال ، توفى كمال بعد وفادتى ، وكنت أول مَنْ يعيش .

لم تكن جلستى إلى جوار جدتى فقط المحفرة لخيالى ، إنما قعدتى إلى جوار الوالدة ـ رحمها الله ـ كانت تجلس وأمامها طشت الغسيل ، وكنت أحكى لها عن الأنفاق الممتدة تحت أرض المدرسة ، وعن جيوش الحيوانات الغريبة التى هاجمتنا ، والمعارك الضارية التى جزت . وكانت تصغى ، تومىء برأسها ، أو تتساءل عن نقطة معينة ، أو تبدى الجزع عندما أفيض فى وصف ما قمت به أثناء اشتراكى فى التصدى للأعداء المهاجمين .

أى أعداء ؟

أبتسم .

لن يرصد أحد تلك الابتسامة ، ليس لأننى ألصق وجهى تقريبا بزجاج النافذة ، ولكن لأنها منبعثة إلى الداخل أكثر من توجهها إلى الخارج ، ثم إننى فى موضع لا يمكن رؤيتى منه ، إلا لماجدة التى أغمضت عينيها ، بسبب إرهاق السفر ، فهى لم تغمض عينيها ليلة أمس ، أمضت الوقت كله بصحبة محمد وماجدة الصغيرة .

عُدْتُ أحملق فى الأرض البادية ، فى الخضرة الكثيفة ، فى الغمامات ، فى الطرق المنتزعة من الغابات ، فى سكان أصليين بادوا واندثروا ، عاشوا وأحبوا ومارسوا الحب والحرب والكره والإقبال والإدبار قبل مجيىء المهاجرين الأوربيين ، فى أغراب وقعت عيونهم على تلك الأرض لأول مرة ، فى المساحات الممتدة ، فى أفق لم أره من قبل ، فى فناء مدرسة كتخدا ، فى سطح التختة التى كنت أجلس إليها ، فى زميل أبيض البشرة ، أشقر الشعر كان يجلس إلى جوارى . ترى . . ما اسمه ؟

عبثا أحاول أن أتذكر :

إنه الوحيد الذى أُوْشِكُ أن أتحقق من ملامحه ، لكن قوانين الذاكرة الغامضة لا تساعدنى ، بل تحجب كل ما عداه ، عجبا . . أرى وقفة رضوان أفندى ، وانحناءة الأستاذ سعد الله ، ومهابة الشيخ مصطفى ، وسطورًا فوق السبورة ، وخدوشًا فوق التختة ، ودائرة مفرغة كانت مخصصة لوضع المحبرة ، أرى البلاط ولونه الأخضر الفادح ، ولا أقدر على استعادة ملامح أحد من أولئك الذين جاورتهم زمنًا ، وصحبتهم ، وأمضيت معهم الوقت الجميل .

اجتياز

ما بين وصول « الفاكس » إلى الدكتور جلال السعيد ، وما بين نزولى أرض مدينة كليفلاند حوالى شهر . كان الخطاب مكتوباً بالإنجليزية ، ويخبر بموعد إجراء الكشف الطبى والعملية ، ويستفسر عن الإقامة ، هل ستكون فى الفندق ، أم فى بيت الضيافة ؟ ، وينصح مشددا بالحجز مقدماً، والإخبار بالمدة قبل القدوم ، ثم يطلب موعد الوصول واسم الشركة الناقلة ، ويخبر بتحمل المستشفى مسئولية الانتقال من المطار إلى مقر الإقامة .

كتبت رداً أرسلته إلى مساعد الملحق الطبى بسفارتنا فى واشنطن ، اسمه أحمد كمال ، بدأت علاقتى به قبل سفرى عبر الهاتف ، واستمرت عبر الهاتف ، ولى معه شأن ، سأفضى به عندما يحين الأوان المناسب ، ذلك أننى مستسلم لحالة الوصول ، دائماً الإقلاع والوصول يستنفران أقصى ما عندى من رهبة وخشية وتَوَقُّع ، ومشاعر شتى ، خاصة إذا كنت أقصد بلداً لم أعرفه من قبل ، فما البال وحالى هو الحال؟

طلبت فى رَدِّى من أحمد كمال أن يخبرهم فى كليفلاند بكافة بيانات وصولى، واسم شركة الطيران ، والحجز فى بيت الضيافة لمدة شهر ، يبدأ من يوم نزولى كليفلاند ، وكان مَنْ سبقونى ، نصحونى ببيت الضيافة ، ليس

لأنه أرخص فقط ، ولكن لاتساع حجراته ، وتزويد بعضها بمطابخ صغيرة، يمكن من خلالها،إعداد الوجبات ، أو الشاى والقهوة . وطلبت حجز إحداها . استفسرت من أصدقاء عديدين سبقونى عن أحوال بيت الضيافة ، خاصة الأَمْنِيَّة ، إذ ستمضى ماجدة أياماً بمفردها، لن تقل عن أسبوع ، ولم يبخلوا علىّ بأدق التفاصيل . هكذا وقفت على صورة دقيقة ، من خلال الدكتور يونان لبيب رزق ، والسيدة زوجته ، والدكتور سيد القمنى ، والدكتور (طبيب) محمد الجوادى ، الذى أمضى فى كليفلاند شهرين للتدريب ، ثم وضع كتاباً بعنوان «شمس الأصيل فى أمريكا» . لذلك تبدو تجربته المكتوبة مغايرة لما مررت به . كان هو طبيباً وكنت مريضاً، كذلك أطلعنى زميلى كمال عبد الرؤوف على خلاصة خبرته ، إذ سبقنى إلى المستشفى ، وأقام بها مدة . طوال الأيام التى سبقت سفرى لم يهدأ رنين الهاتف .

أصدقاء ، وجيران قدامى ، وزملاء دراسة لم يتصلوا بى منذ سنوات، وأدباء ومثقفين . وقبل أن يتقرر سفرى إلى أمريكا ، إلى كليفلاند بالتحديد، كان بعض المعارف والأصدقاء يتصلون بى ، أو يقومون بزيارتى لإبداء النصح . فى ليلة واحدة تلقيت اتصالين ، لاتفصل بينهما إلا دقائق .

الأول صديق يسارى قديم ، نصحنى بالذهاب إلى لندن ، وإلى الدكتور ذهنى فراج بالتحديد ، وطلب منى ألا أذهب إلى مجدى يعقوب ، لأنه مشغول الآن بعمليات زرع القلوب ، والعمليات المعقدة ، ويقوم مساعدوه بإجراء عمليات الصمامات والشرايين ، ثم راح يثنى على ذهنى فراج ، وقال انه هو شخصيا أجرى عنده تغيير ثلاثة شرايين ، وحالته مستقرة جدًا،

وجيدة . رن جرس الهاتف بعد قليل لأصغى إلى صديق آخر . بدأ حديثه قائلاً :

« مجدى يعقوب وبس . . »

وعندما ذكرت بحذر اسم ذهنى فراج ، قال بحسم :

« لا . . احذر . . »

وسألته :

« هل تعرفه علمياً ؟ »

قال :

« وهل الأمر فى حاجة إلى تدقيق ، شوف اهتمام الإعلام الأجنبى بمجدى يعقوب . . إنه عبقرى . . »

فى يوم آخر نصحنى صديق بجراح بريطانى ، بدأ اسمه يلمع فى السنوات الأخيرة ويمارس عملياته فى جلاسجو . كنت أصغى متأثراً ، مهما كانت المبالغات أو تناقض المعلومات ، فالأمر يعكس اهتماماً نبيلاً ، يهز الأعماق منى . كثيرة مظاهر التضامن والعناية ، ومن خلال الهاتف كنت أشعر بالقلق الحقيقى للأصدقاء ، ليوسف القعيد ، لعلاء الديب ، وإبراهيم منصور ، وإبراهيم أصلان، ومحمد البساطى ومحمد الرفاعى ، ومجيد طوبيا الذى أيقظنى فى السابعة صباحاً ليسألنى بلهفة عن الأمر ، ولماذا أخفيته طوال هذه المدة ، وكانت علاقتنا منقطعة منذ ثلاث سنوات لأسباب جد تافهة . تأثرت بلهفته ، إلى درجة أننى بكيت . وما أندر المرات التى دمعت فيها منذ أن بدأت رحلة علاجى ، أما رفعت السعيد ، فراح يزودنى بأسماء أصدقائه الأطباء فى كليفلاند ، كذلك يوسف الشارونى الذى

أملى عَلَىَّ أسماء معارف له ، وقريب يعمل بقسم الأمراض العصبية بالمستشفى . وقد دَوَّنْتُ الأسماء كلها فى المفكرة الرمادية الصغيرة التى لا تفارق جيبى الأمامى ، تماماً مثل الفلاحين المصريين الذين يخرجون من قراهم إلى البنادر والمدن البعيدة . عند سفرى إلى بعض البلاد العربية يتصادف جلوسى إلى جوار أحدهم . ومع اتصال الود ، أكتشفت أنه يدس فى جييب صديريته اسم وعنوان أحد الأقارب . . إنه الأمان بالنسبة له ، وغالباً ما ينجح فى الوصول إلى صاحب الاسم الذى سبقه إلى هذا البلد، وكثيراً ما يقدم إليه المساعدة ، ليس الضيافة فقط والمال ، بل قد يتقاسم معه أيام عمله ، حتى لا يشعر القادم أنه عاطل .

كتبت الأسماء وأرقام الهواتف بعناية ، وكان بعض الأسماء يعنى بالنسبة لى الكثير ، خاصة الجراح ، الدكتور كوسيجروف ، والطبيب المعالج الدكتور مهدى رزافى ، وكلاهما سمعت اسمه لأول مرة عندما نطقه الدكتور جلال السعيد فى ذلك العصر الذى تلا إجراء القسطرة ، عقب اطلاعه على التقرير الذى أعده مساعده الدكتور جمال أبو عمر . . قال :

« إذن . . هو الدكتور كوسجروف ، والدكتور رزافى . . »

لم أكن سمعت بِاسْمَيْهِمَا من قبل ، لكن يمكن القول أن علاقتى بهما بدأت منذ تلك اللحظة . مجرد سماعى الاسمين فجر حضورهما عندى . الاسم يستدعى صاحبه ، بل وملامحه ، رحت أسأل عنهما . ورأيت صورة الدكتور رزافى قبل سفرى ، لكننى خلطت بينه وبين الدكتور فوزى اسطفانوس . كانا فى زيارة إلى مصر ، وأجرت معهما مجلة «نص الدنيا» حواراً ، ونشرت صورتين لهما ، لكن كَتَبَ المحرر اسم كل منهما تحت صورة الآخر ، ولأن مهدى رزافى إيرانى الأصل ، مصرى السَّمْت والملامح ،

تعاملت معه فترة على أنه فوزى اسطفانوس ، وسَبَّبَ لى ذلك اضطراباً عندما قابلت الدكتور فوزى لأول مرة .

للاسم عند المصريين شأن عظيم ، ويكفى أن المعتقد الفرعونى ـ الممتد فى حياتنا حتى الآن ـ يعتبر أن الإنسان يعتبر حياً ، طالما أن اسمه يتردد . كان كفاح الإنسان فى حضارتنا القديمة يتلخص فى محاولة الإبقاء على اسمه حياً ، إما فى نقش ، أو رسم ، أو من خلال عمل فنى . أو إنسانى . كان يناشد الأحياء من بعده أن يذكروا فقط اسمه ، أن يتفوهوا به ، أن ينطقوه لا غير ، مجرد قراءته أو الإصغاء إلى حروفه يعنى أنه مازال على قيد الحياة .

يحاول الصوفية أن يطّلعوا على اسم الله الأعظم . من يعرفه أو يقف عليه؛ يمسك مفاتيح الكون . أستعيد هذه الحكاية من مسائل ذى النون المصرى ، عندما قصده أحد المريدين ،وطلب منه أن يعلمه اسم الله الأعظم، لم يجبه بالنفى أو الموافقة ، إنما طلب منه الانتظار ، وفى أحد الأيام أعطاه طَبَقًا مغطى بطبق آخر ، وطلب منه أن يوصله إلى صاحب له يعيش فى البر الآخر من النيل . حمل المريد الطبقين ،وفى الطريق راح يتطلع إليهما، والحيرة تتصاعد عنده ، ماذا يوجد فى الطبق المغطى . قبل عبوره النيل ، قوى عليه الفضول ، أزاح الطبق ليكشف ما تحته ؛ فوجىء ، لم يكن إلا فأرًا ميتًا ! .

عندئذ لم يكمل مشواره ، عاد إلى شيخه معاتباً . .

« هل تدفعنى إلى قطع هذه المسافة ، وعبور النيل من أجل فأر ميت . . ؟»

هنا قال ذو النون :

« لم تستطع صبراً على ما يخفيه الطبق ، أو تريد أن تعرف اسم الله الأعظم؟ »
عندئذ وَلَّىٰ المريد مطرقاً ، حسيرًا .

لا يتصل الأمر بالأشخاص فقط ، إنما بالحيوان ، بالطيور ، بالمعالم ، بالمكان أيضاً . لاسم المدينة ، أو الناحية ، أو القرية ، أو الجسر ، أو المقهى ، أو الناصية ، أو البيت أثره عندى . عندما تسلمت الخطاب المرسل بالهاتف ، وقرأت لأول مرة اسم كليفلاند موجها إلىَّ ، فى ورقة تخصني ، تَوَلَّدَ عندى انطباع بالمكان ، حوله ، يتعلق بجوهره ، طبعا المستشفى سيطر على ما ارتسم فى مخيلتى ، وعندما حلقت الطائرة فوق المدينة ، فى اتجاه ممر الهبوط ، رُحْتُ أجيل البصر ، متسائلاً : أى المبانى يَمُتُّ إلى هذه المؤسسة الطبية الضخمة ؟ ، لكننى لم أر من المدينة الكبيرة إلا البحيرة الشاسعة التى تفصل الولايات المتحدة عن كندا ، ومبانى صناعية ، ربما تَمُتُّ إلى ترسانة أو مصنع ضخم ، وأشجارًا كثيفة ، وبيوتًا متباعدة .

كليفلاند

نزلناها عصراً ، الوقت المرتبط بها عندى ، ذلك أننى اعتدت الربط بين كل مكان أقصده أو أعيش فيه زمناً بفترة معينة من النهار ودرجة الضوء ، إما صحو ، صباحى ، مقبل ، أو غروبى مدبر ، للناحية هنا فترة ما بين العصر وآخر ضوء ، ما يسبق الغسق ، ثم تلك الفترة التى يغيب فيها قرص الشمس ، لكن الضوء يظل مكتملاً ، يَهِنُ شيئاً فشيئاً ، يختفى مصدره ، ولا يندثر هو تماما . فى جبهة القتال ، كانوا يطلقون على هذه اللحظات تعبير « آخر ضوء » . وخلالها يتم الاستنفار ، وتسود حالة سكون ، يلزم كل حى موقعه .

من العصر حتى آخر ضوء ، هذا ما خص كليفلاند عندى ، كان ذلك فى الأيام الأولى ، ربما لإحاطتى علما بساعة وصولى الليلية مقدماً ، ربما لحال الشجن والقبض الملازم ، غير أن أوقاتاً أخرى من النهار ارتبطت بها ، صباحات مشرقة ، ساطعة ، استثناءات نادرة من مناخ المنطقة ، قُدِّرَ لى أن أشهدها فى تلك الأيام من يوليو ، العام السادس والتسعين من القرن العشرين . .

ها نحن بلغنا كليفلاند ؛ أهم مدن ولاية أوهايو الأمريكية بعد دترويت ، حيث مصانع السيارات . عندما لامسنا أرض المطار ، تَطَلَّعْتُ إلى الأرض ، هذا الجزء من الكوكب . ربما تكون خطواتى الأخيرة هنا .

المطار فسيح ، فى حجم مطار القاهرة الجديد تقريباً . بناؤه مستطيل . فى مواقع الانتظار طائرات عديدة ، معظمها ينتمى إلى شركة كونتيننتال ، بينها ينتشر رجال يرتدون قمصاناً زرقاء ، وقبعات رعاة البقر ، وبنطلونات قصيرة معلقة إلى أكتافهم بحمالات . كان مشهدهم أمريكيا بشكل ما . لماذا أمريكى بالتحديد ؟ ، لا أدرى .

انتقلنا إلى المبنى بواسطة عربة ، وكان علينا أن نمشى مسافة قبل وصولنا إلى باب الخروج . كنت موزعاً ما بين تأمل المعالم التى تقع عيناى عليها لأول مرة ، والاستفسارات الخفية ، الملحة : هل سَيُقَدَّرُ لى القدوم مرة أخرى إلى هذا المطار كمسافر إلى نيويورك ، إلى القاهرة ؟ ، من أى باب سأدخل ؟ ومن أى مهبط سأقلع ؟ وأى صور ستعلق بذاكرتى المتأججة ، النشطة ، الموزعة ما بين استنفار مخزونها الحميم ، ومحاولة استيعاب الجديد الآتى ، وبين الحذر الملازم لى عند بلوغى بلداً لم أزره من قبل ؟ . ويتضاعف الأمر هنا بالنسبة لما سمعته عن اللصوص . والعنف ، والهجمات المفاجئة على

الآخرين . كان مرأى جنود الشرطة فى المطار يثير الاطمئنان ، بما يحملونه من أسلحة وأدوات ، وقدرة بدنية جلية ، لكن كيف سيتصرفون عند الخطر ؟ هذا مالا نعرفه .

تتقارب خطواتنا . أمسك بذراع ماجدة . نتضام . . فنحن هنا غريبان فى أرض غربة ، وأضعف لحظات المسافر ما صاحب الانتقال ، خاصة عند الخروج من أبواب محطات الوصول ، محطات قطار ، موانئ ، مطارات .

فى آخر خطاب وصلنى من القسم الدولى بالمستشفى ، جاء فيه أنه سيكون فى انتظارى سائق العربة ، سيرفع لافتة تحمل اسمى مكتوباً هكذا . .

GAMAL AL GHITANY

بالضبط . كما حددوا .

اتجهت صوب حامل اللافتة الصغيرة . بمجرد أن لمحت اسمى ، ثمة حساسية خاصة تجعلنى أراه على الفور ، إذا كان سطوراً فى جريدة ، أو كتاب . مرة أخرى أتوقف عند الصلة بين المرء واسمه ، تلك الحروف الدالة ، والرموز المفضية إليه .

شاب يفيض حيوية ، دائم البشر ، طويل القامة ، مرح الحضور ، تَقَدَّمَنَا إلى حيث تسليم الحقائب ، حمل إحداها عنا ، وجاء بعربة صغيرة ، كان يتصرف وكأنها تَخُصُّهُ . وعندما خرجنا من المبنى إلى الطريق ، كانت العربة تنتظر على مقربة ، طلب منا أن ننتظر ، اتجه إليها ، قادها صوبنا ، عربة سوداء ، ميكروباس ، لكنه وثير بمقاعده الفاخرة ، وزجاجه الغامق الذى يتيح الرؤية لمن يجلس بداخله . ومن الجهاز الموسيقى المتطور ،

كانت تنبعث موسيقى من أمريكا اللاتينية . لم تكن صاخبة ، ولم تكن هادئة أيضاً . كان الشاب ـ الذى لا أذكر اسمه للأسف ـ يتحرك بنشاط وإقبال على الخدمة ، وتفانٍ للحياة . جلست إلى جواره ، فى البداية اتصل الحوار بيننا نحن الثلاثة . لقد انتهى من دراسة التجارة فى الجامعة . ينتظر وظيفة أفضل ، وحتى يتم ذلك . . يعمل سائقاً بالمستشفى ، يعيش بالقرب من وسط المدينة ، له صديقة تعيش بمفردها ، لكنهما لم يفكرا فى الزواج .

وَهَنَت اندفاعة التعارف الأولى . كنت راغباً فى احتواء المكان بالنظر . هذه أرض ومعالم أراها لأول مرة ، وربما لآخر مرة أيضاً ، فقد لا أعبره مرة أخرى لحيدتى عنه وسلوكى آخر ، أو لتمام أمرى هنا . تلك أرض مغايرة لكل ما بلغتها من قبل . لا يدرى الإنسان ماذا سيقع بعد لحظة؟ ، مصيره معلق بين تردد الأنفاس . وما بين شهيق وزفير ، قد يتبدل الوضع كله ، غير أن الجهل بالأمر نعمة ، الاطلاع على الحقائق مقلق ، ممض ، وما ينتظرنى من مخاطر أدركه ، وإنْ كنت أُلِمُّ به فى جملته ، وليس فى تفصيله ، غير أن ما خفف عنى . . ذلك التسليم التام بقضاء الحال ، حتى إننى كتبت خطاباً قصيراً لماجدة ، ضمنته أرقام هواتف معارفى فى الولايات المتحدة الذين يمكن أن يقدموا إليها أى مساعدة فى حالة ظهور أى مشاكل عقب غيابى ، وكذلك الخطوات التى تتم لنقل الجثمان ، وعودتى معها عبر المحيط ، لأُوَارَىٰ ثرى موطنى . كنت قد أستفسرت خفية ، لم أطلعها قط . ولم أخبرها بأمر الخطاب الذى كتبته لمحمد ابننا ، وضمنته تقريباً وصيتى ، أما خطابى هذا المتعلق بالخطوات قريبة المدى ، فقررت أن أضعه فى مكان بارز عند توجهى لإجراء العملية .

« فيم تفكر . . ؟ » .

تطلعت إليه مباغتاً . إلى هذا الحد استغرقنى التفكير ، مع التحديق إلى كثافة الأشجار ، والبيوت ، والأسفلت العتيق كما يبدو من مظهره ؟ . أومأت بذقنى إلى جهة ما ، قال :

« تفكر فى الوطن . . ؟ »

« نعم . . »

ثم قلت له :

« أفكر فى شارع معين . . »

ناصية شارع قصر الشوق ، تفرعه عن شارع حبس الرحبة ، مسجد سيدى مرزوق ، مدخل حارة درب الطبلاوى ، عبد الحميد صاحب دكان أدوات البياض والجير ، كان زميلى فى المدرسة الإعدادية . خرج من دراسته عقب وفاة والده ، ارتدى الجلباب والطاقية ، ونزل إلى السوق ومازال . صافحته عندما جُلْتُ مودعاً فى القاهرة قبل سفرى إلى الغردقة .

« ما مِنْ مكان يشبه الوطن . . »

قالها كأنه يلقى شعراً . كرر . .

« ما مِنْ مكان يشبه الوطن . . »

كأنه يعرف حالى ، هذا الشاب الذى يصغرنى بربع قرن على الأقل . لماذا أثق أنه يدرك ؟ أنه يفهم ؟ ، ليس بسبب خبرته بنقل المرضى، ثمة ما يستعصى على الإدراك يؤكد يقينى أنه يفهم عنى . أيقنت أنه سَيَمْثُلُ فى ذاكرتى طويلاً ، خاصة إيقاع صوته الذى تحدث به عن الوطن ، أضفى

على اغترابنا أُنْسًا ومودة ، يحتاج إليهما الغريب . طلبت منه التوقف عندما لمحت مطعما للوجبات السريعة ، الدجاج المقلى والبطاطس ، ها نحن نأكلها فى موطنها الأصلى .

نزلت بمفردى ، التصميم الداخلى مشابه لهذا النوع من المطاعم التى بدأت فى الانتشار خلال السبعينات ، وأصبحت رمزاً من رموز التحول إلى الاقتصاد الحر ، وأسلوب الحياة الأمريكى تحديداً ، وهذا لا يقتصر على مصر فقط ، لكن فى بلدان شتى من العالم . وبالرغم من مثولى فى الأصل ، إلا أننى رحت أقارن بين ما أراه وما عرفته فى مصر . كان العاملون من الزنوج ، والزبائن ، كذلك العمال الذين لمحتهم فى محطة البنزين المجاورة . نسبة المواطنين السود عالية فى أوهايو . هكذا أخبرنى أحد الأصدقاء الذين أقاموا بها . ورغم شعورى تجاههم بالقربى ، فنحن ننتمى إلى قارة واحدة ، جذورنا مؤصلة هناك ، إلا أننى كنت أتوجس خيفة عند رؤيتهم ، ذلك أن الكثير من العنف يأتى منهم ، نتيجة ظروفهم المادية القاسية ، وإذا بادر أحدهم بالقسوة نجوى ، فمن لى أن أشرح تعاطفى وموقفى وإيضاح انتمائى إليهم ؟ إننى ذو ملامح عربية ، ولا فرق عند الأجنبى بين عربى ثرى ، ومصرى قح لا يمت إلى النفط بِصِلَةٍ .

خرجت أحمل ثلاث وجبات ، وثلاثة أكواب من المياه الغازية ، قال السائق بلهجته الودود . .

« كنت ظَمِئًا فعلاً . . »

كنا جائعين ، لم نتناول غذاءً فى نيويورك ، وإرهاق السفر يبدو الآن ، الساعة تدنو من السادسة والنصف ، الشمس تغيب هنا فى التاسعة

والنصف أو العاشرة ، هكذا الوضع صيفاً ، غير أن فارق التوقيت خفى لا يبين ، وإنْ كان عمله سارياً ، مؤثراً .

الساعة الآن الواحدة بعد منتصف ليلة السبت فى القاهرة .

ماجدة الصغيرة ومحمد يتأهبان للنوم الآن ، ربما يجلسان فى الصالة أمام التليفزيون ، أو أويا مبكرين إلى ضجعة تعصمهما من صعوبة النأى فى الليلة الأولى .

تستدير العربة متجهة إلى طريق صاعد ، صَوْبَ جسر معلق يؤدى إلى طريق رأسى ، تطالعنا ناطحات السحاب الضخمة ، المبانى العالية ، أحدثها نحيلة شاهقة ، قمتها هرمية معدنية ، قال السائق : إنه بنك ، ثمة بناية أخرى مجاورة ، موازية فى الارتفاع تقريباً ، استدعت إلى ذهنى على الفور بناية أخرى شبيهة ، ولكن فى عاصمة بعيدة ، عاصمة بلد كان مناوئاً للولايات المتحدة لمدة تجاوزت السبعين عاماً . أعنى طبعاً موسكو . ثمة تماثل عجيب بين بناية فندق أوكراينيا ، إحدى العمارات السبع الضخمة التى تنتمى إلى العصر الستالين ، وتتوزع فى أنحاء موسكو ، لتمنحها أفقاً متميزاً ، مهما ارتفعت المبانى الحديثة ، والطوابق الخراسانية . تذكرت اللوحات العتيقة لمنارة الإسكندرية الشاهقة التى دمرها الزلزال تماما فى القرون الوسطى ، ربما كانت أصل التصميم الموسكوفى ، أو الأمريكى ، لكن ما يجمع هذه الناطحة ببنايات موسكو ، الرغبة الكامنة فى استعراض القوة . لكل بناية وظيفة ، هذا حقيقى ، لكن شكل العمارة يعكس فلسفة وظروف العصر ، بل . . عادات وتقاليد المجتمع ، وأحياناً ينعكس مضمونه على ظاهره ، ألا تتشابه بنايات السجون فى عواصم الدنيا ؟ ، بل إن مبانى أجهزة الأمن تتشابه أيضاً . هذا ما رأيته فى مبنى الكى جى بى بوسط

موسكو ، تأملته من بعد ، طوابقه الثلاثة ، نوافذه المصمتة ، المستطيلة ، أبوابه الضخمة الموحدة ، حتى إننى لم أرها تفتح قط ، حتى تساءلت حائراً عن مكان دخول وخروج العاملين ، أو الذين يتم استدعاؤهم للتحقيق ، عين الانطباع الذى أحدثه عندى المبنى الأزرق فى عمان ، مقر المخابرات الأردنية ، ومقر وزارة الداخلية الفرنسية القادم من العصور الوسطى .

ناطحات مدينة كليفلاند أثارت عندى ردود فعل متباينة ، منها إدراكى مرة أخرى أننى فى الولايات المتحدة ، والإحساس بالحداثة ، الذى أثاره مبنى البنك هرمى القمة . عمارة رأيتها عبر الصور الثابتة والمتحركة . وها هى على مرمى حجر منى .

تستدير السيارة إلى طريق عريض ، ممتد ، كل شىء هنا يصر على الإيحاء بالضخامة ، حتى أحجام البشر ، معظمها فارّ ، ممتلئ . على الجانبين بنايات أقل ارتفاعاً ، وكنائس ، ومتاجر لايمكن تحديد ملامح ما تعرضه ، يعتمد المعرض هنا على السوق البناية ، المغطاة ، لا تتوالى المتاجر عبر الطرق؛ إنما تتجمع فى عمارة هائلة يطلقون عليها «المولز» . وهذا النمط بدأ ينتشر فى البلاد العربية ، وظهر أخيراً فى القاهرة ، وإنْ كان أقل مساحة بالطبع . اللون الأحمر غالب على الواجهات ، أحمر طوبى عتيق ، شكل المبانى استدعى إلى ذاكرتى مبانى الحى الأفرنجى فى بورسعيد ، التى تجولت بها فى الستينات ، تتوالى قطرات مطر غزيرة ، ليلة أمضيتها فى فندق صغير، جدرانه وشرفاته خشبية ، قريب من الميناء ، ومبنى هيئة القناة ، المبنى الرمز بقبته الشهيرة ونوافذه الخضراء ، وانبهارى عند رؤيتى له أول مرة .

متى كان ذلك ؟

عام ثلاثة وستين ، أو أربعة وستين على الأكثر . ذروة عملى فى مؤسسة

التعاون الإنتاجى ، وطوافى بالقرى والمدن المصرية ، شرفات حى الجميل الشعبى ، تقارب البيوت ، ورائحة السمك المشوى . .

كم انقضى ؟

أكثر من ثلاثين عاماً .

أعوام عديدة انقضت ، محطات عديدة وَلَّتْ . هل سيتاح الوقت لاستعادة ما يمكننى تَذَكُّرُهُ واستعادته ؟

تتمهل العربة ، تحيد عن الطريق الفسيح ، إلى اليمين عدة مبانٍ ضخمة ومبنى قديم ، دينى الطابع ، وإنْ كان يخلو من البرج ، حيث الأجراس ، يستدير حول مبنى من الطوب المبنى المائل إلى احمرار ، تتخلل الجدران نوافذ مستطيلة ، زجاجها غامق ، المدخل يطل على ساحة انتظار فسيحة مسورة بأسلاك . العربات تصطف بنظام ، لكل منها إطار أبيض يحدد مكان الوقوف ، بيوت على الناحية الأخرى من الطريق .

توقفت العربة أمام المدخل تماماً ، يقفز السائق النشط ،

« بيت الضيافة . . »

إذن . . سنقيم هنا ، يضع الحقائب عند المدخل ، أحاول مشاركته ، لكنه يُصِرُّ ، بسرعة ينهى مهمته ، بسرعة يعود إلى مقعد القيادة ، ينصرف ، عند المدخل مقعدان مستطيلان متواجهان ، أشبه بالدكك ، يجلس عدد من الشبان العرب فى مواجهة بعضهما . أدركنى سرور . . فهؤلاء يَمُتُّونَ إلىَّ ، وأَمُتُّ إليهم . لاحظت أنهم تطلعوا إلىَّ ، ولم يتحرك أحدهم ، بل لم يتخذ أى منهم بادرة تحية تجاهى ، قلت لابد أنهم اعتادوا رؤية القادمين ، بالنسبة لمن يلازم مدخل فندق ، فإن رؤية الداخلين أو الخارجين تصير أمراً عادياً ،

وإنْ كنت أركز البصر والحواس فى محاولة لرصد واحتواء ملامح البشر عند المداخل ، مداخل المستشفيات ، مداخل الفنادق ، مداخل المبانى العامة . دائماً يظهر البشر وهم فى حالة من التأهب والاستنفار ، خاصة القادمين لأول مرة ، لابد أن وقتاً مضى بالنسبة إليهم ، جعلهم يألفون المكان ، ولكن الأمر بالنسبة لى مغاير ، إنهم عرب ، لسانهم لسانى ، وفى الأعماق البعيدة ربما تمتد صلات غير مرئية . كان بعضهم يرتدى الجلباب الأبيض ، وغطاء الرأس التقليدى ، بعض الشباب يتحدث . كان الأقرب إلى مكان وقوفى رجل تجاوز الستين ، يرتدى جلباباً أبيض ناصعاً .

ـ السلام عليكم

ـ وعليكم السلام ورحمة الله

بدا ودوداً .

ـ حمداً لله على السلامة. . من مصر ؟

ـ نعم . . وأنت ؟

ـ من الإمارات . .

صافحته بحرارة . لأهل الإمارات منزلة خاصة فى قلوب المصريين ، وإذا ما جاء ذكرهم ، نقول : إنهم ناس طيبون . وكلمة « طيب» فى العامية المصرية ذات دلالات عديدة . قال الرجل أنه من الشارقة ، عندئذ سألته عما إذا كان يعرف الفنانة التشكيلية والشاعرة ميسون صقر، قال انه من العائلة ، يمت إليها بصلة قرابة ، ثم قال : موفق إن شاء الله . . موفق .

بَدَّدَ اللقاء بعضًا من كربى . انتبهت إلى خروج شاب ملامحه عربية ، يرتدى قميصاً وبنطلوناً ، كان يدفع أمامه عربة صغيرة مخصصة لنقل

الحقائب ، صافحنى بحرارة ، قال أن اسمه يوسف ، وأنه من ليبيا ، يعيش فى الولايات المتحدة منذ سبعة عشر عاماً . إنه يعمل فى بيت الضيافة .

تبعناه إلى صالة الاستقبال . خلال ثوان كنا نعرف عنه معلومات شتى، امتدت بيننا جسور حميمة وصلة . بعد أن أسند العربة المثقلة بالحقائب إلى الجدار ، تقدمنا إلى مكتب الاستقبال . فى ثوان معدودات، كنت أكتب الاستمارات الخاصة بإقامتنا . كان الموظف شاباً أمريكياً قصيراً، ابتسامته عريضة ، مرحة ، مألوفة ، ربما يَمُتُّ إلى أمريكا اللاتينية ، كلما استفسرت عن شىء ، يجيب بلازمة يكررها دائماً .

« ما مِنْ مشكلة . . ما مِنْ مشكلة . . »

طلبنا خزانة لنضع جوازات السفر ، وبطاقات الطائرة ، ومبلغاً يتجاوز الألفى دولار ببضع دولارات ، تَبَقَّىٰ معنا بعد دفع تكاليف إقامتنا لمدة شهر، وقدرها ألف وتسعمائة دولار . إيجار الغرفة هنا يدفع بالأسبوع ، وكلما زادت المدة يصبح أقل . اعتذرت الموظفة الشابة الزنجية عن وجود خزانة فارغة ، كتبت اسم ماجدة ، ذلك أننى طلبت الخزانة باسمها تحوطاً، ولأننى سأقضى أيامًا فى المستشفى ، لا يعلم إلا الله متى ستنتهى ؟ . كانت الموظفة سامقة القوام، فياضة بالحيوية ، وأعجبنى تصفيف شعرها فى ضفائر صغيرة ، نحيلة ، كثيرة جداً ، سمة أفريقية حميمة لم تتخل عنها ، وكان سوادها ذا لمعة براقة . للجمال الإنسانى أسراره . كتبت اسم ماجدة على ورقة صغيرة ، ألصقتها بالمكتب فى مواجهتها ، حتى تكون لنا أولوية الحجز فى الخزائن الصغيرة .

فُتِحَ باب المصعد ، وخرج منه رجل بدين ، يرتدى نظارة طبية ،

بصحبته سيدة لا أتذكر وقت تدوينى هذا ملامحها ، إنما أعى مكان وقوفها إلى جواره ، عندما التقى بصاحبٍ ما وبصحبته أنثى ، أغض الطَّرْف ، حتى لو كانت ابنته التى يماثل عمرها عمر ابنتى ، وإذا وَجَّهْتُ إليها الخطاب ، فإنه يكون قصيراً ، مركزاً . خجل قديم مستقر عندى تجاه المرأة ، لا يتوارى تماماً ، إلا إذا تكاملت الخصوصية ، وأحيط الانفراد بسياج متين .

الرجل مصرى . يمكننى تمييز الملامح المصرية فى أى بلد غريب أحل به .

للمصرى حضور خاص ، أما التكوين النفسى فذو عناصر فريدة ، طريقة التعبير ، مستويات الكلام ، اللماحية ، الذكاء . يزداد إدراك تلك الفروق فى الغربةِ ، وعند الوعى بالمقارنة . قال الرجل ـ مقدماً نفسه ـ أنه أستاذ بكلية الطب البيطرى ، تساءل عن موعد وصولى ، فقلت : لِلتَّوِّ ، قال أنهما سوف يسافران غداً إلى مصر ، عندئذ قلت : حمداً لله على السلامة»، قال ضاحكاً : لا . . لم أُجْرِ العملية بعد .

عندما يلتقى اثنان هنا ، خاصة من عالمنا العربى ، فإن الحديث يتجه فوراً إلى القلب ، إلى نوع العملية ، واسم الجراح ، وعندما يصل المريض إلى مقر الإقامة يلتقى بآخرين سبقوه ، فيُفْضُون إليه بالخبرة والطمأنة ، وبعد يوم أو يومين يصل آخر ، فيقوم من سبقه بنفس الدور الذى لقيه من الآخرين ، هكذا لا تتوقف الدائرة ، ولا يكف الترحال . ثمة نبرة مشتركة بين القديم والجديد ، هى الثقة فى المستشفى وإمكانياتها ، فمن أجرى العملية بنجاح يتحدث عن التجربة وتفاصيلها . ومن ينتظر يصغى متلمساً عناصر السكينة .

كان الطبيب البيطرى يبدو مرحاً ، أجاب عن استفسارى ببساطة ، قال

أنه سيعود بعد ستة أشهر ، لأن الطبيب هنا قرر ذلك ، عضلة القلب ضعيفة ، ولابد من اتباع نظام علاجى لتقويتها إلى حد ما ، ثم قال أنهم لا يستطيعون الفتح ، إلا إذا كانت العضلة فى حالة معقولة . أدركت أن المقصود بالفتح هو شق القفص الصدرى . كنت أعرف خطوات العملية بشكل عام بهم ، لكننى بدأت أنتبه إلى الكلمات المتداولة ، التى يتم من خلالها التعبير عن العملية ومراحلها .

« من سيجرى لك العملية ؟ »

« الدكتور كوسيجروف . . »

نطقت اسمه كمن ينطق اسم صاحب له ، مع أنى حتى هذه اللحظة لم أره ، ولم ألتق به ، وقد يجرى لى الجراحة وأعود إلى مصر ـ إذا نجحت ـ ولا أراه . لكن ثمة صلة بدأت ـ كما ذكرت ـ منذ أن سمعت اسمه لأول مرة ذلك العصر ، وتوطدت عبر التفاصيل الدقيقة التى سمعتها عنه ممن عرفوه ، مثل الدكتور أيمن كمال أبو المجد ، الذى حدثنى عن هدوئه ، وعن حضوره المطمئن . كلما مضى وقت اتصلت الأسباب به أكثر ، إنه رئيس قسم جراحة القلب ، وله إنجازات علمية هامة ، آخرها تلك الحلقات المعدنية التى يتم إدخالها إلى شرايين القلب ، وفَرْدُهَا لتقويتها .

« كوسيجروف أبرع جراح صمامات ، خاصة الميترالى

وأمهر من يجمع بين الصمامات وشىء آخر . . يعنى

عندما تكون هناك جراحة فى الصمام ، وشىء آخر . . »

أومأت مؤمنا على كلامه ، مطمئنا إلى ما أسمعه . ما يرسخ مكانة كوسيجروف الذى سيتولى أمرى بعد ثلاثة أيام ، قلت :

« هذا ما أخبرنى به الدكتور جلال السعيد . . وأنت . .

من طبيبك . . ؟ »

قال :

« الجراح دكتور لوب ، والكارد يولوجى دكتور شلدون . . »

لمريض القلب طبيبان ،الجراح ، وتنتهى مهمته بإجراء العملية ، و«الكارديولوجى» ، وتبدأ مهمة قبل العملية ، بل هو الذى يقررها وتنتهى بعدها . بالنسبة لى كان فى مصر الدكتور جلال السعيد ، وهو الذى رشح الجراح ومعه الدكتور مهدى وزافى، إيرانى الأصل . ورغم أهمية الدور الذى سيقوم به رزافى ، وجلال السعيد من بعده ـ إذا قدر نجاح العملية ـ فإن اهتمامى كله تركز حول كوسيجروف الجراح . أليس هو من سيمسك قلبى بأنامله ، ويَطَّلِع عليه ، ويخرجه من مكمنه ، ويعمل فيه عدته وآلاته ؟ . تبادلت البطاقات مع الطبيب البيطرى ، صافحته بحرارة ، كان ودوداً ، لطيفاً ، تمنيت له حظًّا سعيدا . أشار إلى جزء من صالة الاستقبال ، قال :

« فى الثامنة مساء كل يوم نلتقى هنا ، كل المصريين

هنا ونتحدث . . » .

تطلعت إلى الساعة . كانت السابعة والربع ، الواحدة والربع بعد منتصف الليل فى القاهرة ، قلت للطبيب البيطرى :

« إذن . . إلى اللقاء » .

غير أننا لم نلتق مرة أخرى قط .



« الكنــة . . »

للألفاظ المجردة مدلولاتها . وبعضها يبث حقباً كامنة فى الروح . هذه الكلمة المصرية التى ترد خلال حوارات قومى ، وغالباً ما تردف بها « اللمة » تعنى عندى أموراً شتى ، منها الأمان ، والرضا ، ودنو الأهل من بعضهم ، وتواصلهم باللفظ ، بالنظر ، بتلمس شتى عناصر القربى . تعنى عندى السكينة ، ودفء الأسرة واكتمالها . لا أدرى أصلها اللغوى ، ربما كانت ذات صلة بالكينونة ، وتجسد فعل « كن » ، على أساس أن الكينونة لا تتم إلا بصحبة ذوى القربى . وربما كانت على وشيجة قربى بالكنانة ، أى الجِرَاب الذى توضع به السهام .

أيا كان الأمر . . فترديدها عندى مرتبط باكتمال الأسرة ، ومرورها بلحظات حميمة . كان ذلك فى الماضى الغارب الجميل ، خاصة أمسيات الشتاء ، بعد تناول الغداء ، وبَدْء حَكْى الوالد ، ذكرياته ، أسفاره ، أناس عرفهم . كان يضحك فجأة ، ولا يقدم تفسيرا . أمور لا يعرفها إلا هو ، انطوت معه إلى الأبد ، كما سأصحب تفاصيل لن يطلع عليها مخلوق . أمى تصب الشاى ، أو تتحرك فى حيز الغرفة الضيق .

عرفت « الكنة » مرة أخرى ، اكتمالنا نحن الأربعة ماجدة ، محمد ابنى ،

ماجدة ابنتى . تناولنا الغداء أو العشاء معاً ، فى المساء يخيم هدوء وتفد أصوات الخارج كأنها من عالم آخر . أعمل فى مكتبتى ، استذكار دروس الأبناء ، حوارات ليلية ، غالباً ما يجرى التطرق إلى موضوعات عامة ، لكنها شديدة الصلة بنا .

يتحقق الاكتمال مع رسوخ « الكنة » ، واستقرار « اللمة » بعد دخولنا إلى الغرفة رقم ثلاثة وأربعمائة . تطلعت إلى السرير ، إلى الأريكة ، إلى معدات المطبخ الموزعة فى مكان ضيق يلى الباب مباشرة . وقفنا على مشارف « كنة » ، لكنها جديدة علىّ ، مغايرة ، ناقصة ومؤلمة ، حتى تعجبت من اعتبارها نوعاً من الكنة ، لكنها بالفعل كذلك بعد هذا السفر الطويل ، بعد ذلك الترحال . مدة السفر يلازمها قلق . والإنسان فى الطريق ضعيف مهما كان قوياً ، خاصة إذا كان الطريق بعيداً عن موطنه . فى القاهرة ، فى سائر المدن التى تمت إلى الكنانة ، أتجول فى أى ساعة ليلا ونهاراً ، وعندى الشعور بقوة خفية ، مصدرها أننى جزء من الكينونة ، من المكان ، من الزمان ، غير أننى خلال أسفارى إلى الخارج أكون حذراً ، متوقعاً الأذى ، متأهبا للصد والرد . وأصعب الأوقات ما يتم خلالها الرحيل ، عند الانتقال من مكان إلى مكان ، من محط إلى آخر ، عندما تتلخص حياة المرء فى جواز سفر ، وحقيبة أمتعة ، وحضور عابر .

لا شك أن هدوءاً حل بى عند بلوغنا الغرفة ، وضعنا الحقائب ، تجولى بالنظر فى المكان مفتتحًا العلاقة به ، يتردد عندى الإحساس بالكنة ، لكنها ناقصة ، نعم ، تصحبنى رفيقة عمرى ، ولكن - لأول مرة - يهدد الانشطار أسرتنا الصغيرة .

نحن أربعة ، واعتدنا دائما أن نتحدث كأربعة ، حتى عند سفر اثنين منا

معاً ، يدرك كل منهما أنه ابتعاد مؤقت وسيزول ، سينتهى بالعودة ، التى غالباً ما كانت مبهجة ، ولكن هذه الرحلة بالذات مؤلمة ، فالأب الذى خرج صباح الأمس قد لا يعود ، وربما يمر فى ظروف صعبة لا يعلم إلا الله مداها . الكيان مهدد ، وحياة كل منا تتعرض ـ بشكل ما ودرجة ما ـ إلى الاهتزاز .

رغم إدراكى هذا . . أقدمت على فتح الحقائب ، وبَدْء خطوات اعتدتها عند وصولى إلى أى فندق ، كبداية الحميمية بالمكان ، أرص الكتب التى اصطحبتها معى فوق منضدة مخصصة للكتابة فى الركن . أمضيت وقتاً فى مكتبتى لأختار ما سيصحبنى فى رحلتى هذه . ثمة كتب لا تفارقنى عند سفرى :

القرآن الكريم ، ديوان الحماسة لأبى تمام ، غزليات حافظ الشيرازى ـ ترجمة الدكتور إبراهيم الشواربى ، المثنوى لمولانا جلال الدين الرومى ، ألف ليلة وليلة . . وكتاب حديث من آخِر الإصدارات .

فى رحلتى تلك زدت ما يصحبنى ، حقيبة كبيرة أخصصها لنقل الكتب ، هكذا رحت أَرُصُّ الكتب التى تخرج من موقعها عندى فى المكتبة لأول مرة ، الفتوحات المكية بمجلداته الأربعة ، لمولانا محيى الدين بن عربى ، وكتاب آخر لم أكن قرأته من قبل ـ له أيضا ـ هو « إنشاء الدوائر » ـ والمجلدات الستة لبدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس الحنفى المصرى ـ تحقيق الدكتور محمد مصطفى ، وغزليات حافظ الشيرازى ، ومختارات من الشعر الفارسى للدكتور محمد غنيمى هلال ، والبستان لسعدى الشيرازى ، وموبى ديك ـ ترجمة إحسان عباس ، وذكريات منزل الموتى لدستيوفسكى ـ ترجمة الدكتور سامى الدروبى ، وأرض البشر لأنطوان

سانت اكسوبيرى ـ ترجمة مصطفى فودة ، وجسر على نهر درينا لايفو اندريتش ، وصحراء التتار لدينو بوتزانى ـ ترجمة موسى بدوى ، وقاتل بلا أجر ليوجين أو نسكو ـ ترجمة الدكتور أنور لوقا ، وكنت بدأت إعادة قراءتها فى الطائرة ، والبحث عن الزمن الضائع لمارسيل بروست ـ ترجمة إلياس بديوى ، وألف ليلة ـ طبعة بولاق ، ومختارات من قصص تشيكوف ـ ترجمة د . محمد القصاص ، ويوميات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وحكايات حارتنا ، وأصداء السيرة الذاتية لنجيب محفوظ ، ومجلدين صادرين خلال السنوات الأخيرة ، يحتويان على نصوص دينية ودنيوية من مصر الفرعونية ، جمعتها وترجمتها عن المصرية القديمة الفرنسية كلير لالويت ، وترجمها إلى العربية ماهر جويجاتى، وإنجيل لوقا ـ تحقيق الأنبا غريغوريوس ..

من كتبى : الزينى بركات ، وكتاب التجليات .

ومن الكتب الصادرة مؤخراً : كتاب عن ظاهرة الدولة المستوردة ، مترجم عن الفرنسية .

أعرف أن الظروف قد لا تتيح لى قراءة هذه الكتب كلها ، لكنها أصبحت جزءا منى ، لا يمكننى الإقدام على رحلة كهذه دونها . وجودها قربى يمنحنى إحساسا بالأمان والاستقرار . اصطحبت أيضا كراستين ، الأولى تضم ملاحظات خاصة بعمل أدبى بدأته ولم أتمه ، هو «حكايات البنيان » ، والثانية تتضمن يوميات وملاحظات خاصة بمرضى .

تأملت الكتب التى صحبنى بعضها عبر أزمنة متوالية ، وأماكن شتى ، تلك النسخة من قصص وروايات قصيرة لتشيكوف ، صدرت فى نهاية

الخمسينات ضمن سلسلة مطبوعات الشرق ، التى كانت تطبع فى مصر بدعم من الاتحاد السوفيتى ، كانت رخيصه السعر ، جيدة المضمون ، هذا المجلد الذى تتجاوز صفحاته الخمسمائة مكتوب عليه السعر : خمسة قروش. كنت أحمله فى هذا الصباح البعيد . أقف أمام منزل زميل لى بمدرسة العباسية الثانوية (الصناعية) اسمه إبراهيم قاسم ، كان نوبياً ، يقطن الطابق الأخير من بيت عتيق فى شارع عبد الخالق ثروت .

صباح جمعة . القاهرة منبع للضوء ، للهدوء ، مياه النافورة تتدفق كالحلم أمام الأوبرا ، وعلى مقربة من تمثال إبراهيم باشا ، مبنى الأوبرا الجليل مازال ماثلا عندى . ثمة سلم خارجى عند الجانب المواجه لبيت صاحبى ، النقوش ، النوافذ ، المدخل الفسيح ، حفلات الأوركسترا السيمفونى الصباحية ، البطاقة بثلاثة قروش ، القاعة التى تنقل المرء إلى عالم شفيف ، كان الآتى بلا حد ، والزمن كله مقبل ، أما المدبر منه ، فمحدود .

من ناحية ميدان العتبة يجىء نجيب محفوظ ، قامته الشاهقة ، ورأسه المرفوع دائماً ، والشامة الشهيرة التى نسبها إلى أمينة فى الثلاثية . كان يرتدى حلة خفيفة ، صيفية ، أو من تلك الحُلل التى تناسب ما بين الفصول ، رغم أننى لا يمكن لى تحديد الشهر الآن ، إلا اننى أتذكر لون السماء ، وملمس الهواء ، صباح خريفى ، قاهرى ، يتمدد هذا الطريق فى ذاكرتى ، فى روحى . هل سأمشى مرة أخرى فوق الرصيف الذى وقفت فوقه ، ثم خطوت تجاه الأديب الكبير ؟ ، لا أدرى كيف تعرفت عليه ، كيف أدركت أنه نجيب محفوظ . عندما تقدمت إليه لأصافحه ، كنت أحمل هذا المجلد بالتحديد ، قصص تشيكوف .

دعانى إلى ندوته فى كازينو الأوبرا . فى يوم الجمعة التالى ذهبت ، ولم

أنقطع حتى الآن ، الثلاثاء الماضى ، عانقنى متأثرًا عند انصرافى . عندما حانت العاشرة ، كنت أخشى هذه اللحظة ، لكننى كنت جَلِدًا ، هادئاً ، تنسمت عبقه ، كما كنت أحب رائحة أبى . لكل إنسان نسيمه الخاص ، لا يتكرر من شخصى إلى آخر . وكنت أسأل نفسى : ترى أين سأكون فى مثل هذه اللحظة الثلاثاء القادم ؟ ، سبع ساعات إلى الوراء ، ستكون الثالثة . إذن . . إما فى غرفة العمليات ، أو خارجها .

أتساءل الآن أيضا .

فى مثل هذه اللحظة الأسبوع القادم . أين ؟

لا يمكن القطع بإجابة ما ، لا أملك إلا التمنى ، إلا الرجاء لعل وعسى فى الغرفة ـ حيث ألقينا أحمالنا ، وبدأ استقرارنا النسبى بعد الرحلة الطويلا ـ يتحدد المكان ، ويتأطر الزمان أيضا ، تنتهى لا محدودية الطريق ، وتتضام الفراغات ، ويوغل الإنسان داخل ذاته أكثر ، تتلملم شوارد اللحظات من شتى مراحل العمر .

مازال الضوء فى الخارج ، رغم اقترابنا من الثامنة . لم نبدل ملابسنا بعد . الخروج من الفندق للتجوال حوله محفوف بالمخاطر ، إذن . . فلنمض إلى الطابق الأول ، حيث قاعة الاستقبال .

القاعة ليست فسيحة ، من خلال ممر يتفرع منها ، يمكن الوصول إلى مطعم ملحق بالبناية ، أمريكى الطابع ، يقدم وجبات سريعة ، وشطائر الديك الرومى ، واللحم المدهونة بالمايونيز ، شطائر ضخمة تملأ المعدة ، «تلكم » ، المطعم يمكن الدخول إليه من الطريق أيضا . ثمة مطعم آخر اسمه « بالميرا » ، جزء من المبنى ، لكن للوصول إليه ، لابد من الخروج إلى الطريق .

فى صدر القاعة ، أرائك متجاورة . هنا اعتاد المصريون المقيمون الجلوس. قعدة يتوارثها مَنْ يأتى ممن يذهب . تعرفنا إلى مدير بنك أرستقراطى المظهر والحضور ، نحيل ، فى السبعين من عمره ، تصحبه زوجته ، كلاهما متواضع ، رقيق ، أستاذ من جامعة أسيوط ، من كلية العلوم ، وبرفقته أيضا زوجته ، ثم أستاذ من أسيوط أيضا ، أصله أسوانى ، كذلك زوجته . كانت تفيض حيوية ، وجدعنة ، قابلتنا بترحاب ، وراحت تطمئن ماجدة ، وتفضى إليها بخلاصة خبرتها خلال الأيام الماضية. كان الرجال الثلاثة قد أجروا عملية الشرايين منذ مدة تتراوح بين أسبوع وعشرة أيام . مدير البنك المتقاعد أوصانى أن أسمع الكلام ، أشار إلى ساقه ، قال أنهم نصحوه بالمشى ؛ تقاعس ؛ فحدثت له مشاكل ؛ أصيب بجلطة . سألنى :

ـ من سيجرى لك العملية . . ؟

رحت أتحدث عن كوسيجروف،عن مهارته فى جراحة الصمامات والشرايين معاً . أصغى الرجل المجرب ، ثم قال بلهجة ذات معنى :

ـ قل يا رب . .

قلت من أعماقى :

ـ يا رب . .

رحت أصغى إلى التفاصيل التى تتطرق إلى تفاصيل العملية ، وما جرى قبل وبعد ، وكانت الزوجات تشاركن برواية ما جرى من وجهة نظرهن ، ويتطرق الحديث إلى موضوعات عامة ، إلى مشاكلنا فى مصر ، ثم يعود من جديد إلى الجراحات ، وتاريخ كل منهم مع المرض . حدثنى الأستاذ

الأسوانى عن رجل قانون مصرى يعمل فى الكويت ، منصبه رفيع ، قال أنهم عندما جاءوا استقبلهم بحنو ، وأفضى إليهم بخبرته ، قال أنه اعتاد الجلوس فى الصدارة هنا ، وأن يجمعهم حوله ، وكان يفيض بعلمه عليهم ، ويهدئ من مخاوفهم .

كان فى حديث الأستاذ الأسوانى حميمية ، كأنه ابن يتحدث عن أب غائب ، ويبدو أن الإنسان فى شتى مراحل عمره يحتاج إلى أب ، ربما يجده فى صديق يكبره ، أو شيخ يهتدى به ، أو زعيم سياسى ، أو كاتب يفضله ، أو فنان يحبه .

على الوجوه لمحت إحساسًا خفيا بالفرح ، بتجاوز الخطر . لقد أصبحت العملية الجراحية بالنسبة إليهم نوعاً من الذكريات . ومن خلال فتحات القمصان كنت ألمح آثار الجراحة . وجميعهم أجرى لهم الدكتور لوي العمليات ، ويعد من أعظم جراحى الشرايين فى العالم ، أو ما يطلق عليه عمليات القلب المفتوح ، ولكنه يستخدم الأسلوب القديم فى خياطة الجرح الذى يصل طوله إلى حوالى ثلاثة وعشرين سنتيمتراً ، تبدأ من عظام الترقوة ، ولذلك تبدو آثار الغرز مختلفة عن الطريقة التى يستخدمها الدكتور كوسيجروف ، والتى لا تترك إلا خطا أحمر اللون ، رفيعاً فى مواضع ، سميكاً فى مواضع أخرى ، ومع الزمن يصبح خطاً باهتًا . بالطبع لكل أسلوبه ، والتفاصيل هنا فنية ، لا أفهم فيها شيئا . كان الأستاذ الأسوانى قد فك السلك بالفعل منذ يومين ، وكان زميله الأسيوطى الآخر يستعد لِفَكِّهِ آخر الأسبوع . شَرَحَتِ الزوجة الأسوانية ـ أستاذة فى جامعة أسيوط أيضا ـ شرحت لماجدة وسائل المواصلات والأماكن التى يمكن أن نتشوق منها الطعام ، ولكن إلى أن يتم ذلك . . ستصعد إلى الحجرة لتحضر بعض

المأكولات التى يمكن أن تسد حاجتنا إلى الغد فقط ، حاولنا الاعتذار ، لكنها قالت بشهامة آسِرَة :

« كيف ستتناولون إفطاركم . . ثم إن

الذين سبقونا عملوا معنا كده . . »

أتت إلينا بلبن وزبادى وجبن وبيض وعصير ، طعام يكفينا ثلاثة أيام ، وليس يوماً واحداً فقط ، كان جلوسنا إليهم ، وحوارنا معهم قد بث داخلنا طمأنينة ، ومعرفة ، ومقارنة .

حانت اللحظة التى نأوى فيها إلى الفراش ، يتراكم إرهاق السفر ، وتبدو ساعات الطيران منتمية إلى أوقات غامضة . لم يتبق من الرحلة الطويلة إلا مشاهد قليلة . ولحظات أُوْقِنُ أنها سَتَمْثُلُ دائماً . الساعة الآن الحادية عشرة بتوقيت الولايات المتحدة (أوهايو) ، أى السادسة فى القاهرة ، منذ أربعة وعشرين ساعة خرجنا . كنا على الطريق إلى المطار فى مثل هذه الساعة . محمد وماجدة نائمان الآن ، وربما مازالا مستيقظين . توالت على ذهنى صور شتى من مراحل مختلفة . وحاولت التشبث بشرفة تتخللها أعمدة قصيرة ، يقف فيها رجل يرتدى جلبابا بلديا ، وطربوشاً ، كان اسمه أحمد عمرو ، والد لفتاة جميلة اسمها ثريا ، خضراء العينين ، حددت بملامحها كل من تحمل هذا الاسم فيما بعد . كانت الأسرة تسكن الطابق الأول من عطفة باجنيد ، بيتى القاهرى الأول . كانت ثريا تكبرنى قليلا ، ربما بعامين . ما يحيرنى الشرفة : إنها فى منزل ما بطهطا ، قصدته ذات ليلة بصحبة الوالد .

متى ؟

لماذا ؟

مقهى عند الطريق المؤدى ، شجرة تين ، الوالدة تجلس فى صدارة بيت ، ربما بيت خالى . ترتدى السواد ، على ملامحها ذلك الحزن الأبدى ، الذى لم يكن يفارق نظراتها حتى فى توهجات الفرح .

تقعد فوق حشية . .

تماما كما وفدت عَلَىَّ أول ليلة خلت الدنيا منها ، كنت بصحبة إخوتى فى مدينة نصر . نمت فى حجرة إسماعيل ، الذى كان فى مهمة علمية بالولايات المتحدة وقتئذ ، تتطلع صوب نقطة لا يمكن تحديدها ، لكنها تتصل بى بشكل ما ، يمتد فراغ متميع . .

فجأة . أنتفض . .

ضجة فى الممر الخارجى ، أشخاص يتصايحون ، وبعضهم يجرى محاولا اللحاق بآخرين ، أبواب تغلق بعنف ، غريب أمر هذه الضجة فى مكان يأوى مرضى . تكرر ذلك ، وفكرت فى الاتصال بالشرطة ، غير أننى لم أقدم للأسف الشباب من عالمنا العربى المصاحبين للمرضى ، أو بعض القادمين بحجة إجراء فحوص ، يكتمل فقدانهم للوعى قرب منتصف الليل ، ويبدأون فى إثارة الصخب . كنت أظن أن الخطر مصدره الزنوج الفقراء داخل الفنادق أو اللصوص البيض ، لكننى أكتشف مصدراً إضافيا يمثله أولئك الشباب ، الذين يطلقون العنان لغرائزهم المكبوتة ، المقموعة فى بلادهم ، وكثيرا ما تنتهى الأحداث بترحيل بعضهم . حكى لى أحد العاملين بالفندق عن مفارقة غريبة ، إذ استأجر بعضهم غرفة فى الطابق الرابع وأعدوها كمسجد يؤدون فيها الصلوات الخمس بعد تحديد جهة القبلة

. كانوا يواظبون على أداء الفروض والصلاة جماعة ، معظم أولئك ساهموا فى تأجير غرفة أخرى فى الطابق السابع ، حيث يستضيفون فيها العاهرات اللواتى يتعرفن عليهن! .

هل أبدأ أول ليلة بمشكلة ، ومع مَنْ ؟ مع أبناء جلدتى ، إنهم يَمُتُّون إلىَّ ، أو أَمُتُّ إليهم بذرجة ما ، على الأقل من ناحية الشكل واللسان .

تَخْفُتُ الضجة ، وأروح فى نوم قَلِقٍ رغم الإرهاق . عند إحدى مرات استيقاظى ، أدركت أننى لن أنام مرة أخرى . تَطَلَّعْتُ إلى الساعة ، الخامسة صباحاً . .

أمضيت وقتا أحملق فى السقف ، فى ملامح الغرفة التى أراها بوضوح فى القمة ، فى الاستسلام للحظات بعيدة منبعثة من خبايا الوقت . قمت على مهل إلى النافذة ، لأرى عبر فرجة الستارة أول نهار يطلع علىّ هنا . كنت أخشى إيقاظ ماجدة ، لكننى فوجئت بها تقول :

« صباح الخير . . »

المشارف

إذن . . انقضت الليلة الأولى فى كليفلاند ، اليوم سبت ، ويمكننى عَدّ الوقت المتبقى بالساعات منذ الآن . ثمة هدوء يغمرنى ، لا أعرف مصدره ، غير أنه ثقيل إلى حد ما . لست قلقاً ولا خائفاً ، إنما أتطلع ـ بشبه حيرة ـ إلى ما سيكون . ويستغرقنى ما كان ، ويوجعنى ضياع الأوقات وتبديدها . كان يمكن أن أقرأ أكثر ، وأن أكتب أكثر ، وأن أعشق أفضل ، لكن لا وقت حتى للندم . ما كنت أحيد عنه ، وأقترب من منطقته حذرًا ، مصير محمد وماجدة . مع اقتراب الإنسان من الخطر، من مشارف الخطوط الفاصلة ، تضيق دائرة رؤيته ، وتتحدد بصيرته ، ولأن أمرى على المحك ، هو الموضوع ، ولأننى متقبل ما سيكون ، فقد صار مفروغا منه عندى ، ولكن احتمال مغادرتى لمحمد وماجدة أمر يقضنى ، ويعكم صدرى ويقبض روحى ، ذلك أنهما مازالا بعد بلا حول ، وما من مدخر يقيهما مخاطر الأيام ، ودراسة محمد فى كلية الهندسة ، ماتزال بعد فى البداية ، سيبدأ عامه الثالث فى سبتمبر القادم . وحتى إذا تيسر الأمر وأنهى دراسته بيسر ، كيف سيعثر على وظيفة مناسبة ؟ عمل يتفق مع دراسته . . . أصعب ما يواجه الشباب الآن البطالة ، حتى خريجى الهندسة والطب وباقى كليات القمة ، أصبحت فرص العمل متاحة لأبناء المحظوظين ، الذين يشكلون دائرة النفوذ والثروة . وتلك الدائرة تضيق . .

وللاقتراب منها أو وُلُوجِهَا شروط لا يمكن ، بل مستحيل توفرها عندى، فمنذ السبعينات وأنا على نفار مع الواقع ، رغم أننى أعمل فى مؤسسة إعلامية ضخمة ، وأتولى مسئولية رئيسية ، غير أننى مدين أولا وأخيرا إلى موهبتى . ولذلك تفصيل يطول . ومما أحمد العلى القدير عليه ، أننى أتأهب لمغادرة هذا العالم ، وليس عندى ما يشين . لقد تعاملت مع الكتابة كفعل مقدس . وأقسم غير حانث أننى لم أكتب كلمة واحدة فى حياتى تخالف ضميرى ، أو لا تتفق مع ما أعتقده أو آرائى . ولحسن الحظ أننى أعمل فى مهنة علنية ، ملموسة ، أى أن ما كتبته منشور ، متاح ، محفوظ فى الخزائن العامة ، وعند بعض الخاصة . وما قلته فى الحوارات المسموعة والمرئية بعضه مسجل . الثروة الوحيدة التى أتركها تتمثل فى مكتبتى ، الموزعة الآن بين المعادى وحلوان ، والتى تضفى على أسفارى وحشة ، لافْتِقَادِى أُلْفَتِى وائتناسى بالكتب . قبل جلوسى إلى المكتب أنفض الغبارَ عن الأرفف ، أعدل وضع بعض الكتب ، أقلب صفحات هذا أو تلك . صلتى بكتبى عضوية ، بل إننى كثيرا ما أضع على الفراش مجلدا أطالعه وأعجب بمضمونه . ومنذ سنوات أخصص معظم إنفاقى الخاص لتزويد مكتبتى بالنفائس ، ليس مهماً أن أقرأ الكتاب على الفور ، المهم أن أقتنيه ، حتى إذا حانت لحظة الحاجة إليه ، أجده إلى جوارى ، فى متناول يدى .

هذه المكتبة الضخمة التى تتجاوز محتوياتها العشرة آلاف كتاب ، أقلقنى أمرها ، لا أريدها أن تتبدد ، ولا أتصورها منتهية فى بيت انفتاحى جاهل ، لمجرد الزينة . لذلك . . أوصيتِ صاحبًا حميماً لى أن يبذل جهدًا لكى تُقْدِمَ وزارة الثقافة على ضمها إلى مكتبة عامة ، أفضل أن تكون مكتبة القاهرة التى

شاركت فى تأسيسها ، بشرط موافقة ماجدة ، وابنى ، وابنتى . . تركت رغبتى تلك مكتوبة فى الخطاب الموجه إلى محمد ابنى الذى أودعته درج مكتبى ، وطلبت منه ألا يفتحه إلا بعد بلوغه النبأ . مد يده ممسكا كتفى . قال مبتسماً بصعوبة :

« يا جيمى . . سترجع بالسلامة ، ونجلس هنا
نتذكر تلك الأيام . . »

أتطلع إلى رفوف مكتبتى ، إلى كتبى المتراصة فى ركن خاص ، أعرف أن النسيان مصير كل حى ، وأثق ـ أكثر من أى وقت مضى ـ أن الخلود وَهْمٌ كبير ، وأن الأدباء سرعان ما يطويهم النسيان ، مهما بلغوا من شهرة ، وذاع صيتهم ، والاستثناءات قليلة جداً . لن يُقْدِمَ ناشر على إعادة طبع كتبى إلا بصعوبة ، ولن تذكرنى إلا الدراسات المتخصصة ، وبعد حين نطوى تماماً .

قبل سفرى ، وقبل دخولى مركز القاهرة للقسطرة ، بَثَّتْ وكالة رويتر خبراً عن سفرى ، ونشر فى الصحف العربية ، أتيح لى أن أقرأه فى بعضها . كان الخبر المقتضب يشير إلى أزمتى الصحية ، ونصيحة الأطباء بإجراء جراحة فى الخارج . ويتضمن الخبر تعريفاً بشخصى ، يقول : إن الغيطانى من أبرز الروائيين العرب ، وعُرف بجهوده لتأصيل الفن الروائى العربى ، استناداً إلى النماذج التراثية القديمة .

كان الخبر مكتوبًا بصيغة الماضى ، يتضمن من الرثاء مقداراً أكثر من تفاصيل حالى . قرأته بِعَيْنَىْ مَنْ سيبقى بعد ، من سيسعى فى الحياة الدنيا بعد خُلُوِّها منى .

« وعُرف بجهوده . . . الخ »

هذا ما سيكتب ، ثم بعض المقالات ، وآخر حوار ربما لم أُدْلِ به . وينتهى كل شىء . هل كان عندى رغبة فى الحضور تماثل تلك التى تمتع بها توفيق الحكيم ، أو يوسف إدريس ؟

كلا . . ومع ذلك بدأ النسيان يطويها بمجرد رحيلها ، يبقى طه حسين إلى حين ، أو العقاد ، بقدر القضايا التى أثاراها ، أو بدأها غيرهما ، ثم ينتهى كل شىء .

لا شىء يبقى ، إنما الخلود وَهْمٌ ، هذا ما أعيه قبل بداية المرض ، لكننى أعى أيضا أن الحياة جميلة ، وليست عبثية ، وفرصتها محدودة ، فلماذا لا نعمل على تجميلها ؟

وقفت عند حافة النافذة ، زجاجها ملون . يمكن لمن بالداخل أن يرى الخارج ، ولكن لا يمكن لمن بالخارج أن يَطَّلِعَ على ما بالداخل . لا مبانى فى المواجهة . ساحة انتظار فسيحة مسورة ، يبدو أنها تتبع المستشفى ، ثمة طريق سريع فى نهايتها ، تطل عليه بنايات حمراء اللون ، فقيرة ، لا نرى شرفات . . إنما نوافذ المطابخ وسُلّمًا حديديًّا يؤدى إلى الحجرات الخلفية ، ومواسير الصرف الصحى . كانت البنايات فى الطريق الفرعى المنحدر إلى الرئيسى تدير لنا ظهورها . ويبدو أن الواجهات تطل على أفنية داخلية . لا شىء فى الطريق إلا العربات المتدفقة فى الاتجاهين ، ما من مشاة ، تلك سمة فى المدن الأمريكية ، طرقات عريضة ، لا أحد يمشى إلا نادراً . .

لم يكن المشهد مبهجاً ، رغم انتشار الأشجار والحشائش الخضراء حول المبنى . كانت الحجرة منحسرة إلى الداخل ، منطوية ، مستطيلة ، تبعث بمقاعدها الوثيرة وفراشها على الاسترخاء ، ولكنها راحة المستشفيات ، ودور

المسنين ، وأماكن العجز ، راحة الطوارئ ، واسترخاء ما بعد الألم . من عادتى عند السفر أن أفكر ـ بفضول متصاعد ـ فى المكان الذى سيأوينى ، خاصة إذا كنت أقصد بلداً لم أبلغه من قبل .

ما شكل البناية ؟

ما هيئة الغرفة التى ستأوينى ؟ .

على أى المناظر تقع عيناى عبر النافذة أو الشرفة المتوقعة ؟

أحتفظ بصور عديدة ، أحرص على التقاطها عند تطلعى لأول مرة . . إنها صور اللحظات الأولى . . غير أننى لم أشعر برغبة فى إشراع آلة التصوير، ربما لقبح المشهد ، ربما لانشغال ذاتى عن ذاتى ، ربما لأننى فى سفر ربما يكون فى اتجاه واحد ، غير أننى لم أنطق بانطباعى هذا ، حتى لا أضيف همّاً إلى هموم ماجدة ، وأثق أيضا أنها سكتت عن كثير . أحيانا يكون الصمت مُتَمِّماً للنطق ، مكملا له ، للوجه الآخر منه .

عندما دخلت إلى عنبر الاعتقال سنة ستة وستين ، نزل علىّ غم ، رغم وجود صحبى . وتآلفنا ، كنت شديد الأسى للإهانات التى لحقت بى من الجند الغلاظ ، ولإحاطة معصمى بسوار حديدى مغلق ، تماما مثل عتاة المجرمين ، حتى أننى كنت أتطلع إلى يدى ، غير مصدق أنها تَمُتُّ إلىّ . أيضا كنت حزينا ، مهموماً لفراق أمى وأبى وإخوتى . منذ بدء عملى عام ثلاثة وستين ، ومساهمتى جزء أساسى من الدخل الشهرى للعائلة . كان الوالد ـ رحمه الله ـ قد بلغ درجة من الإرهاق المادى لا تطاق ، خاصة مع تصاعد تكاليف الحياة فى ذلك الوقت. أذكر اقتراب مناضل شيوعى قديم من أشرف اليساريين الذين عرفتهم . كان عاملا حقيقياً . أمضى فى

المعتقلات مدة تتجاوز أربعة عشر سنة ، وعندما احْتَجَّ على قرار حل الحزب الشيوعى المصرى عام خمسة وستين بعد تحليلات شتى ، وحوارات مطولة انتهت بدخول أفراده تنظيم الاتحاد الاشتراكى الحاكم بصفتهم الشخصية ، أبلغ عنه بعض الرفاق الذين كانوا متعاونين أكثر من اللازم مع الدولة ؛ فاعْتُقِلَ مع آخرين ممن اعترضوا على حل الحزب . عندما جئنا إلى معتقل مزرعة طرة ، كان عم منصور زكى عامل المطبعة ، المناضل القديم ، قد أمضى سنة كاملة فى الاعتقال ، وكان مبتسماً ، يفيض بالحيوية ، يهرع لخدمة الآخرين ، لم يكن البِشْرُ يغيب عن وجهه . يبدو كأنه وُلد هنا ، وأنها حياته التى يسعى فيها إلى نهاية تحل يوماً . ربت على كتفى قائلاً :

« طبعاً لن أهون عليك . . لكن إذا كنت تفكر فى الأهل ، فتذكر أنهم فى وضع أفضل منك ، ويمكنهم تدبير أمورهم . . الحياة واسعة ، لكن السجن ضيق . . »

مرة أخرى قال لى :

« لا تكره المكان ، وإلا ضاعفت من عذابك وألمك . حاول أن تنشئ علاقة بهذه النوافذ ، بتلك المساحة من السماء ، بهذا الكوب المصنوع من الصفيح » . .

عندما جاءوا ليلاً واستدعونى مع صبرى حافظ إلى مكتب قائد المعتقل ، كان فى انتظارنا ضابط برتبة نقيب ، وجنود أربعة يشهرون المدافع الرشاشة متخذين الوضع الذى نراه فى الصور المنشورة بالصحف ، أو فى الأفلام السينمائية . كانت تنتظرنا عربة نقل كبيرة من طراز نصر ، رمادية اللون ، صعدنا إليها مكبلين بالقيود ، وكنت أستعيد سطور الخطاب الموجه إلى قائد

المعتقل ، ويأمره بتسليمنا إلى هذا النقيب الذى نسيت اسمه الآن ، ولكن العبارة التى علقت بذهنى .

« تحت الحراسة المشددة . . »

كانت تتقدمنا عربة تحمل أرقاماً مدنية ، ملاكى ، عتيقة الطراز ، يركبها ضابط ومخبرين من المباحث العامة . أستعيد تلك اللحظات بدهشة . هل كنا على مثل هذه الدرجة من الخطورة حقاً ؟

كان الوقت ليلاً ، ما بين التاسعة والعاشرة ، عبرنا طريق صلاح سالم ، كان حديثاً فى ذلك الوقت ، وكنت أتطلع إلى الشارع ، إلى العابرين ، إلى الباعة الجائلين ، والكلوبات التى تضوى فوق عربات اليد ، إلى الجالسين بالمقاهى . كل شخص من هؤلاء يمكنه أن يمشى فى خط مستقيم بلا جدار أو حارس يرده ، كل منهم سيذهب إلى بيته ، يمضى ليله بين أهله ، أما نحن ، فلا ندرى ماذا سينتظرنا ؟ . كانت أنباء ما يجرى فى معتقل القلعة تتردد بين المعتقلين فى مزرعة طرة ، لتثير الرعب والانقباض ، وكان يتم استدعاؤنا تدريجياً ، وبشكل يوحى أن مَنْ سبقونا « تكلموا» . عندما خرجت من باب مزرعة طرة قاصداً معتقل القلعة قسراً لبدء التحقيق ، الذى كان يستهدف أساساً معرفة تفاصيل حول انضمامنا إلى منظمة وحدة الشيوعيين اليسارية المتطرفة ـ من وجهة نظر الآخرين ـ التى رفضت أيضاً قرار الحل ، سمعنا عن تغطية الرأس بطاقية سوداء ، والضرب بالعصى والكرابيج ، وإدخال العصى فى الأدبار ، والنفخ ، واستخدام الكهرباء فى لسع الأجزاء الحساسة من الجسد ، وغمر الأرض بالمياه حتى يستحيل النوم . سمعنا ما يجرى من الإخوان المسلمين الذين كان المعتقل يكتظ بهم ، أثناء «الترحيلة» من طرة إلى القلعة . كنت أتطلع إلى الطريق ، وأحاول أن أحتفظ

بكافة التفاصيل . كنت قد وضعت نفسى عند الخطوة الأولى من ذلك الحال النفسى الذى عرفته بعد ثلاثين عاماً للمرة الثانية فى حياتى . لم يدلنى إليه أحد ، ولم أقرأ عنه ، ولم أتدرب عليه ، إنما بزغ منى ، من داخلى ، باختصار . . محوره ذلك السؤال :

« ماذا يمكن أن يجرى لى عند الحد الأقصى ؟

أن أموت ، أن تنتهى حياتى . .

فليحدث ذلك . . ولكننى لن أسمح لهم بكَسْرِى كإنسان . . »

عندما تقبلت أقصى الممكن ، هان علىّ كل شىء ؛ وتحملت ، واجتزت المحنة . ولعل من أسعد لحظات حياتى ، تلك التى عدت فيها إلى الزنزانة الانفرادية رقم سبعة وثلاثين . كنت متورماً ، أنزف من أنفى دماً ، بعد أن صفعنى الرائد منير (لواء متقاعد الآن) بيده الغليظة لمدة عشر دقائق متصلة ، ولكمنى ثلاث مرات . جرى ذلك وأنا معصوب العينين ، وقد دونت الوقائع فى «كتاب التجليات» ، فليراجعه من يرغب . بعد استدعائى إلى زنزانة التحقيق فى ذلك اليوم الأكتوبرى الخريفى البعيد رقصت فرحاً ، ذلك أنه طلب منى كتابة خلاصة لما قلت ، وكان ذلك يعنى نهاية بشكل ما ، وهذا ما كان بالفعل . كنت فى الواحدة والعشرين وقتئذ ، أعزل ، وحيدًا ، منقطعاً عن الدنيا ، أواجه نظاماً بأكمله ، لكننى انتصرت عليه ، لم يستطع جَلَّادُوهُ قهرى . ومنذ ذلك اليوم . . لم أتقبل شيئاً لا يتفق معى ، ولم أقل خلاف ما عندى ، وأحمد الله أننى أستعد لمغادرة العالم وأنا متسق مع ذاتى ، لم أرهقها بالمخالفة ، طبعاً الظروف تختلف ، لكن ما يجعلنى مستكيناً فى كليفلاند ، ذلك التقبل الداخلى لأقصى الاحتمالات وأقساها ، أن تفشل العملية ، أن يحدث خطأ ما ، وهذا وارد يؤدى إلى العدم .

عندما دخلت فناء معتقل القلعة الحجرى ، قادنى المخبر مباشرة إلى الزنزانة رقم أربعة وثلاثين فى البداية ، كانت أرضيتها حجرية ، كانت فراغاً كئيباً ، خلوًا من أى شىء ، عدا رف خشبى صغير فى الركن ، واستعدت كلمات عم منصور ، أن أبدأ علاقة بالمكان ، وقد جرى ذلك . . بدأت علاقتى بالأصوات ، كان المعتقل فى قلب القلعة ، على مقربة من المتحف الحربى ، وفى بداية النهار كنت أصغى إلى أصوات التلاميذ الذين يجيئون فى رحلات جماعية لزيارة القلعة أو المتحف ، نداءات الباعة فى الطريق ، صياح بعض العابرين . لكل وقت من النهار أصواته ، وإيقاعه ، ثم بدأت صلتى بالضوء ، ثم بالوقت . فى الحبس الانفرادى يوغل الإنسان داخل ذاته ، وتتاح الفرصة النادرة للمراجعة ، وما أعظم الفائدة إذا جرى ذلك أول العمر . استعدت صفحات كتب اطلعت عليها فى وقت لم تكن الكتب فيه بمتناولى ، واتخذت قراراً ألا أشارك فى أى عمل سياسى مباشر ، كالمشاركة فى تنظيم أو حزب . السياسة عندى إعلان موقف ، والدفاع عنه . والأهم . . التعبير عنه بالأدب ، أنْ أكتب رواية جيدة . . هذا أعظم موقف سياسى . كان للتأملات ولاستبطان الذات وقتئذ طابع مغاير ، كان البصر متجهاً إلى الامام ، إلى السنوات المقبلة ، بعد ثلاثين عاماً ، أجلس مطلاً عبر هذه النافذة المستطيلة . للبناية من الخارج شكل يذكرني بالسجون ، ربما لخلو الواجهة من الشرفات ، وتماثل هذه النوافذ الضيقة . كما أقمت علاقة بالزنزانتين رقمى أربعة وثلاثين ، وسبعة وثلاثين . علىّ أن أقيم علاقة بما أرى ، بما سأطالعه خلال الساعات القادمة . الظروف جد مغايرة . الآن لم يتبق على الموعد المحدد إلا ساعات محدودة ، اليوم وغداً عطلة ، نلتمس قدراً من الراحة ، ثم أبدأ الرحلة صباح الاثنين .

أعدت ماجدة إفطاراً متنوعاً . منضدة فى مواجهة الأريكة المستَطيلة . جلسنا فى مواجهة بعضنا ، تحدثنا عن فارق التوقيت ، والاحتمالات المختلفة لما يقوم به محمد أو ماجدة الصغيرة الآن . كانت ماجدة تبدو هادئة . جميلة ، أستعيد ملامحها أيام خطوبتنا ، أبديت الإعجاب متغزلاً ، فقالت باسمة :

« دا وقته ؟ . . »

اتصلت الأستاذة الجامعية الأسوانية ، قالت أنها سوف تذهب إلى مخزن قريب لشراء بعض المواد الغذائية ، ويسرها أن نصحبها ، سنلتقى إذن فى الحادية عشرة ، أى بعد حوالى ساعة .

أخرجت المفكرة الخضراء . ثمة أرقام هواتف وعناوين فى عواصم شتى من العالم . الرقم الوحيد الذى أحفظه خارج مصر ، رقم الهاتف الباريسى الخاص بفريدة الشوباشى ، صديقة العمر بحق ، التى كان انزعاجها من أجلى يفوق انزعاجى على نفسى . ولفريدة منزلة صداقة وأخوة حميمة ، ربما أفصل الحديث والخبر عنها يوما . لعل العمر يسمح .

بدأت الاتصال بأصدقاء أعرفهم ، تربطنى بهم صلات تتفاوت درجاتها ، يقيمون فى ولايات لا أعرف موقعها بالضبط بالنسبة لكليفلاند ، لكننى بشكل عام أُلِمُّ بالمسافات الشاسعة . الولايات المتحدة قارة ، ولاية أوهايو تبلغ مساحتها ضعف مصر ، غير أن سكانها ثمانية ملايين فقط . غير أن اتصالى بهم يبث عندى طمأنينة ، يوهمنى أننى أعرف من يمكنه تقديم المساعدة عند الظرف الحرج ، أىّ مساعدة ، وكيف ؟ ، لا أدرى . ولكننى أقدمت ، اتصلت بإدوارد سعيد المفكر المعروف . كان مسافراً إلى

فلسطين ، إلى الضفة الغربية ، تَمَنَّتْ لى زوجته الشفاء . أبدت فدوى مالطى دوجلاس انزعاجها ، وفيما تلا ذلك من أيام ، لم تكف عن الاتصال بنا ، وتلقينا منها باقة ورد جميلة . كانت زميلتى الجدعة ، الشجاعة ، مها عبد الفتاح فى انتظارى ، ورغم أننا لم نلتق إلا عبر الهاتف ، إلا أن اتصالها اليومى الطويل بنا ، خاصة بماجدة ، بث عندنا أُنْسًا ، وأحيا مودة . أما أحمد كمال ، مساعد المستشار الطبى فى السفارة المصرية ، فسأتوقف عنده مطولاً ، إذ يعتبر بالنسبة لى حالة فريدة على المستوى الإدارى والإنسانى . كان السفير المصرى أحمد ماهر الذى تعرفت عليه فى موسكو رقيقاً ، حانياً . ورغم مشاغله ، إذ كان يستعد لزيارة الرئيس مبارك إلى الولايات المتحدة ، ورغم ذلك اتصل بى مرات . حاولت الاتصال بفاروق عبد الوهاب ، أستاذ الأدب العربى فى جامعة شيكاجو ، ومترجم روايتى «الزينى بركات»، غير أننى فشلت ، أما صديقتى الفنانة الأمريكية «برتا» ، المصورة الحاذقة ، والمتخصصة فى عالم نجيب محفوظ ، فبمجرد أن أصغت إلى صوتى قالت :

« اقفل الخط ، وسأتصل بك . . »

وفى لحظات . . كان الهاتف يرن . ولم تتوقف برتا عن الاتصال بى طوال المدة . هل أتصل بالدكتور صبرى عوض الله ؟

لم ألتق به من قبل ، لكن الدكتور رفعت السعيد نصحنى بلقائه ، وفهمت أنه على صلة وثيقة به ، كنت متردداً . . ثمة مرضى مصريون يترددون على كليفلاند ، وما أنا إلا مجرد حالة عابرة بالنسبة لهم ، أخشى أن أمثل بالنسبة إليهم عبئاً ، فعندما يتصل إنسان وافد بصاحب له فى ديار الغربة ، يعنى ذلك مشروعاً للقاء ، لكن . . ماذا لو أن ظروف الآخر لم تسمح ؟

أخيراً . . حسمت ترددى ، وجاءنى صوته الهادئ ، الموحى بتقدم العمر ، وأجمل ما فيه . . «الطيبة» . وتعبير « طيب» مصرى خالص ، خاص ، يتضمن معانى عديدة أكثر مما تتضمنه كلمة «جيد» أو «حسن» . إنه متعدد المستويات ، وذو دلالات ، يبرز أهمها من السياق الذى تستخدم فيه الكلمة . قال الرجل :

« نحن ننتظرك منذ أسبوعين ، قرأنا خبراً فى الأهالى عن سفرك ، ولكننا لم نرك . . »

قلت : إن الخبر كان مرتبطاً بإجراء عملية توسيع البالون ، التى لم تتم . كيف نلتقى إذن ؟

قال أنه يقترح صباح الغد الأحد . بعد الصلاة فى الكنيسة القبطية المصرية سيأتى إلينا . قال أنه يسكن فى مكان بعيد ، مثل بنها بالنسبة للقاهرة ، عندئذ خطر لى خاطر . .

اقترحتُ أن نصحبه إلى الكنيسة ، كنت راغباً فى زيارتها ، إضافة إلى أنها تعد الفرصة المتاحة لرؤية تجمع مصرى كبير ، قد لا يتاح لى أبداً الالتقاء بأفراده . الكنيسة هى المكان الوحيد الذى يجتمع فيه هذا العدد من المصريين بانتظام . إننى مسلم ديناً ، وقبطى وطناً ، هذا ما أردده دائماً ، مستوحياً جملة مكرم عبيد الخالدة : « أنا قبطى دينا ، ومسلم وطناً . . » . إننى من أشد دعاة الوحدة الوطنية ، عماد الوجود المصرى ، كما أننى مطلع على التراث القبطى . والعديد من عناصره منحدر إلينا من العصر الفرعونى ، وممتد فى العصر الإسلامى . وأوجه التشابه بين الأقباط والمسلمين عديدة . تربطنى بالبابا شنودة علاقة وثيقة ، قابلته أكثر من مرة ، ولكننى

لم أتردد كثيراً على كنائس مصر وأديرتها ، خاصة فى الصعيد . هذا إهمال يجب أن أتداركه ، تماماً كما يجب تدارك تأخرى وتقاعسى فى زيارة معبد أبو سمبل ، وكذلك واحة سيوة، ومدينة رشيد . . معقول ، أتطلع إلى الأيام الآتية ، كم من نواقص أمنى النفس بتمامها ، لا ألح فى بلوغ الآمال المؤجلة. تعبرنى الخواطر بهدوء ، تلوح حسرات ، لكنها سرعان ما تفارقنى، تنأى عنى ، ذلك أن ثمة خطوة كبرى ، ربما لا تتلوها أخرى ، ويجب ألا أخرج من الحال الذى اقتنعت به وأقنعنى ، أننى ماضى إلى خط فاصل ، قد يقع فيه البتر ، وأني متقبل ، مُسَلِّم بما ستؤول إليه الأحوال ، قانع ، راض .

زرت دير وادى النطرون ، لكنى لم أزر دير الأنبا بولا فى البحر الأحمر، أول أديرة العالم ، رغم مرورى قربه كلما اتجهت إلى الغردقة .

تَرِدُ على ذاكرتى ـ لحظة هذا التدوين ـ صورة قديمة تنتمى إلى زمن أسفارى المنتظمة فى بر مصر ، إذن تَمُتُّ إلى حقبة الستينات . أرى شرفة خشبية ، وحديقة داخلية ، نخيلاً عتيقًا ، وأشجار تين ، وظلال عصر ، أسواراً عالية ، وثمة عزلة مستقرة ، المبنى يَمُتُّ إلى الأقباط ، ربما كان ديراً فى مدينة أبو تيج ، أو مقر البطريركية . كنت بصحبة صديق أو زميل غاب عنى اسمه تماماً ، بل لم يتبق شىء من ملامحه . أمضيت الليل فى هذا المكان ، لِمَ؟ وكيف ؟

غاب ذلك كله عنى ، ما أكثر التفاصيل التى وَلَّتْ مبتعدة ، مع يقينى وقت وقوعها أنها باقية أبداً . وما أكثر الصور العابرة التى علقت بالذاكرة، تباغتنى حيث لا أتوقع .

أين ؟

متى ؟

لا إجابة ، صور شتى سوف تمضى معى إلى الأبد .

نخرج مع السيدة الأسوانية ، والأسيوطية ، كانت السمراء طويلة ، غير هيابة ، تدل وترشد وتقترح ، أما الأخرى فمنطوية ، هادئة ، وعند جلوسها فى مواجهة زوجها أشقر الشعر ، كانت تتطلع إليه بهدوء ورساخة . فى لحظة أخرى قال لى همسًا :

« أنا من غيرها كنت اتبهدلت . . »

كلمات دالة . . متن وهامش معاً ، لا تثير أى استفسار ، دالة على عمر بأكمله ، مَضَيْنا إلى مخزن للمواد الغذائية ، يمتلكه فلسطينى من رام الله ، يتحدث العربية ، لكنه يبدو أنه نسى جزءا كبيرا من مفرداتها . أما ولده ، فيتكلم الإنجليزية باستمرار . رغم الأشجار ، وغلبة اللون الأخضر ، إلا أن المكان مثير للقلق ، المبانى غير جميلة ، وتبدو من الخارج كأنها ورش فى مصنع قديم . لأول مرة أتحرك فى الولايات المتحدة ، ركبنا الحافلة العامة ، رقم « ٦ » ، عدد الركاب قليل جداً .

نصحتنا السيدة الأسوانية بأن نحضر دولاراً ورُبْعًا معدنيًّا قيمة التذكرة . نزلنا بعد محطتين فقط ، المخزن ضخم ، وبرغم ذلك . . يعد من المحال الصغيرة . لاحظت وفرة المواد الغذائية ، وتنوعها ، ورخص الأسعار . اشترينا مواد غذائية تكفى أسبوعاً على أقل تقدير ، ودفعنا مقابلها حوالى مئة دولار . بمقارنة سريعة يمكن القول أن قيمة هذه المواد فى مصر ثلاثة أضعاف ! .

عند العودة ، ظهر رجل زنجى عجوز ، كانت السيدة الأسوانية تخاطبه

« بابا » ، يمتلك عربة ملاكى قديمة الطراز ، كبيرة ، فسيحة ، نصحتنا ألا ندفع أكثر من ثلاثة دولارات حتى الفندق ، قالت أنه فى اليوم الأول حصل على عشرة دولارات ، لكن صاحب المخزن نصحها ألا تدفع أكثر من ثلاثة ، على أى حال . . السائق رجل طيب وأمين ، واعتاد المصريون كلهم على التعامل معه .

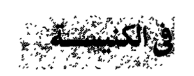
ثمة شىء ما فى مذاق الطعام يجعله مختلفاً ، لم يَخْفَ علىَّ الجهد الذى بذلته ماجدة لإعداد الغداء ، كان الجمبرى معداً للقلى أو الشوى مباشرة ، لكن رغم مهارتها ورائحة التقلية التى أعرفها ، ظلت مسافة بينى وبين الطعام ، بل . . والماء أيضاً . تذكرت مطعماً سويسياً اعتدنا أن نتناول فيه الغداء عند قدومنا بالسيارة من الغردقة ، للجمبرى فيه شأن آخر ، وأيضاً أنواع السمك الأخرى . للسوايسة طريقة خاصة فى إعداد السمك بالصلصة ، وشَيِّهِ ، أما الدمايطة والبورسعيدية وأهل الإسكندرية ، فكل منهم مدرسة قائمة بذاتها ، وبالرغم أننى عرفت السمك مطهواً بطرق شتى . . مرة بالعنب ، وأخرى بالصلصة البيضاء ، ولكن لا مثيل لطرق الطهى المصرية ، خاصة فى الساحل . نَشَأْتُ على حب البلطى ، وقطع القراميط المقلية فى الزيت ، وهما صنفان نعرفهما جيداً فى الصعيد ، وكانت أمى ـ رحمها الله ـ تجيد إعدادها . مازلت أذكرّ القراميط النيلية التى (تبلعط) حية ، وتقفز فى الهواء بمجرد كشف «القُفَف» الصغيرة المصنوعة من خوص النخيل ، التى يحملها باعة السمك عند مرورهم بالبيوت . السمك المقلى على الطريقة المصرية أفضل وجبة عندى ، السمك المنقوع فى الثوم والكمون قبل قليه على النار . إنها الوجبة الوحيدة التى أستغرق وقتاً فى أكلها . ورغم العناية التى بذلتها ماجدة ، إلا أن المذاق مغاير . اليوم بدأ

حنينى إلى الطعام المفضل عندى فى مصر ، . . ولم يكن الأمر مرتبطاً بالبط ، أو الحمام المحشى ، أو طواجن السمك ، إنما كان أشد الحنين إلى الفطير ، والخبز الساخن بالعسل الأسود والطحينة ، وأقراص الطعمية الساخنة ، والباذنجان المقلى بالثوم ، والملوخية الخضراء .

أستعيد بحنين شجى صباحات الجمعة . كان الوالد يخرج إلى الحسين لصلاة الفجر ، ويعود بطبق من فول بائع كان اسمه «أبو حجر»، فول شهى مدمس بعناية ، وكان ناعماً له ملمس الزبد ، وعلى سطح الطبق قطع من الثوم والبقدونس ، أيضاً دورق ملىء باللبن الحليب ، أحياناً كانت الوالدة تعد الأقراص بالسمن ، أو الزلابية . كانت أياماً هادئة ، حميمة ، دافئة ، وَلَّتْ إلى الأبد . . بعد الظهر لم يكن لدينا وجهة معينة نقصدها ، كان علينا الانتظار حتى موعد لقاء المصريين فى صالة الاستقبال بالفندق . جلسنا فى مواجهة النافذة الضيقة ، نتطلع إلى موقف العربات . كنت أصغى إلى تسجيل يتضمن أغانى إيرانية لمطربة اسمها مهستى ، أما الشريط نفسه ، فعنوانه «مسافر» ، عنوان الأغنية الأولى . بدأت أسمعها فى القاهرة ، وهكذا ارتبطت الحقبة بذلك اللحن الشجى الجميل ، الذى لم أكن أعرف كلماته . كانت المطربة جميلة الصوت ، تثير أحزاناً طال كمونها ، ومشاعر لا يمكن توصيفها .

عندما نُفِيْتُ إلى المنيا بقرار إدارى غشيم ، كان مجرد سماعى لأغنية «يا ترى يا نسمة حتقولى إيه » كفيلاً بانطوائى ، وتلملم ما انبسط منى ، وصارت هذه الأغنية الرقيقة لمحمد عبد الوهاب دليلاً وعلامة على أيام المنيا وسالوط والوحدة أيام العطلات عندما يمضى كُلٌّ إلى بيته ، إلى عائلته ، وأبقى منفرداً ، مستوحشاً . .

هكذا طال تطلعى عبر النافذة ، إلى البيوت التى تولينا ظهورها ، ولا تمنحنا واجهاتها ، إلى الأيام القادمة ، إلى المجهول ، وفجأة تصاعد كمد داخلى ، آلم صدرى ، وقلّص ملامحى ، ودفع بى إلى الحافة . .



صباح الأحـد . .

تأخر العم صبرى عوض الله ساعة عن موعده ، كان المفروض أن يصل فى العاشرة ، جاء فى الحادية عشرة . عندما رأيت العربة قادمة وهو داخلها ؛ أيقنت أنه هو . وعندما صافحته، نَادَيْتُهُ بعم صبرى ، بألفة ، كأنى أعرفه منذ سنوات . تَجَاوَزَ السبعين ، لكنه يفيض بالحيوية ، مُنْحَنٍ قليلاً إلى الأمام ، له ملامح أقباط الصعيد ، مصرية خالصة ، منحدرة من قديم ، يمكن القول باطمئنان أيضاً أنه «طيب» .

قال أن الدكتور رفعت السعيد يهدينا السلام . تحدث إليه صباح اليوم (أى مساء القاهرة) ، طمأنه على وصولنا ، اعتذر عن التأخير ، قال أنه كان مضطراً إلى قضاء مهمة .

تبعد الكنيسة عن المستشفى حوالى نصف ساعة ، الطريق عريض ، سريع ، رأيت البحيرة من بعد ، على الضفة الأخرى كندا ، مرة أخرى تطالعنا ملامح المدينة الأمريكية التقليدية ، ناطحات السحاب ، غير أننا كنا نبتعد عنها ، لم نعبر وسط المدينة .

خضرة كثيفة ، غزيرة ، ممتدة ، لون أخضر مغسول ، بيوت من طابق أو

طابقين ، يتنافس كل منها فى الجمال ، معظمها يحاكى القدم ، جدران متنوعة الألوان ، خشبية ، كثير منها يرفع العلم الأمريكى ، ويبدو أن ذلك من تأكيد المواطنة ، بالنسبة لى لا يُرفع العلم فى بلادى إلا فوق مبان رسمية ، وزارات ، مصالح ، أقسام شرطة . كل بيت ملحق به جراج .

فيلاّ وعربة . . هدف كل مهاجر هنا . معظم المهاجرين المصريين الذين التقيت بهم هنا أوضاعهم المادية جيدة ، منهم قلة مضى عليهم أكثر من ثلاثين سنة . ومعظم هؤلاء ظروفهم ممتازة ، ويحتل بعضهم مكانة متميزة ، ليس فى مدينة كليفلاند فقط ، إنما فى الولايات المتحدة : من هؤلاء : الدكتور فوزى اسطفانوس ، رئيس أقسام التخدير فى مؤسسة كليفلاند ، ويعد من العلماء البارزين فى موضوع التخدير، خاصة التخدير الخاص بجراحات القلب المفتوح، أما الدكتور صبرى عوض الله ، فيرجع قدومه إلى عام ستة وستين . جاء مهاجراً بصحبة زوجته السيدة سميرة . مكتب الهجرة الأمريكى حدد له ولاية أوهايو ، مدينة كليفلاند ، اكتشفا فيما بعد أنهما كانا باستطاعتهما تغيير الولاية ، لكنهما كانا ملتزمين بما تقرر لهما . كان أول مصرى يستقر فى الولاية ، عمل طبيباً للتخدير فى مستشفيات أخرى ، يقول أنه عمل بشكل مكثف ، كان ما يملكه عند مجيئه ثلاثمائة دولار ، الآن يعد من أثرياء الولايات المتحدة ، يسكن بيتاً جميلاً يطل على بحيرتين صغيرتين متصلتين ، أبناؤه تزوجوا ، وأنجبوا ، وتفرقوا فى الولايات المتحدة ، وهو متابع دقيق لما يحدث فى مصر ، مشترك فى الصحف المصرية الرئيسية ، تربطه علاقة عميقة بالدكتور رفعت السعيد أمين عام حزب التجمع ، الذى كان حريصاً على تقديمى إليه ، وبالفعل كان الرجل جانياً ، راعياً لنا ، يومياً يتصل بنا ، وكان يذكر ماجدة أحياناً ببعض الأمور الحيوية ، مثل

اقتراحه بمصاحبتها لشراء بعض أنواع الطعام ولوازمه من أماكن أفضل . يوميًا كان يجيء وبصحبته كعكة ، أو حلوى أعدتها زوجته . كنت أتصور أن منزله يقع فى مكان قريب من المستشفى . إن تقديرى للمسافات اختل فى الولايات المتحدة ، فالمسافات هنا شاسعة . وبرغم إدراكى لذلك ، وبرغم أن الدكتور صبرى قال أكثر من مرة أنه يسكن فى « بنها» ، غير أننى لم أتصور أن المسافة نائية بهذا القدر عندما دعانى لزيارته . لم يكن يقيم فى « بنها» بالنسبة لنا ، ولكنه كان يسكن فى دمنهور ، أكثر من مائة وعشرين كيلو مترًا ، كان يقطعها يوميًا ذهابًا وإيابًا ليزورنا ، وليصغى إلينا ، وليخرج مع ماجدة للتسوق بصبر جميل ، إنى والله لمدين له .

هكذا قصدنا الكنيسة القبطية بصحبته صباح هذا الأحد . عدد الأسر المصرية الآن فى كليفلاند حوالى ثلاثمائة أسرة ، أقباط ومسلمون . أخيرًا . . وصلنا إلى منطقة التلال السبعة ، حيث الكنيسة . . المبنى متميز ، مفرد ، قائم وسط الخلاء الأخضر ، جدرانه رمادية ، قطعة من ثقافة مصر القديم وروحها فى القارة الأمريكية . من الخارج تبدو الخطوط قوية ، منبسطة ، مستقيمة ، خاصة فى المستوى الأول العصرى الطابع ، الذى تتخلله نوافذ مغطاة بستائر بيضاء ، ثم يصعد إلى أعلى مبنى الكنيسة ذاتها ، الأقواس ، الدوائر التى تُذَكِّر بمفتاح الحياة الفرعونى ، ثم القبة المستدير ، قبة مصرية التكوين ، تقوم على مثمن الأضلاع ، تَتَخَلَّلُهُ نوافذ ، نهاية الجدار من متتاليات نصف دائرية ، تذكرنى بالعرائس الحجرية التى تنتهى بها جدران المساجد الشاهقة .

ثمة وحدة تؤطر الفن المصرى ، فى الرسم ، فى العمارة ، فى طرق التعبير المختلفة ، لذلك كنت أتطلع إلى القبة القائمة أمامى والبرج ، أكاد ألمح

المسجد فيهما ، العمارة الإسلامية ، العمارة القبطية ، مجرد امتداد للعمارة الفرعونية . لَكَمْ أمضيت الساعات الطوال فى ساحات المساجد، وإيواناتها، أصغى إلى كل صوت يتردد ، وأراقب إيقاعات الظلال ، وتغيرات الضوء .

ياه . .

ساحة السلطان حسن . وذلك العصفور الذى بنى عشه عند أقصى الإيوان الغربى ، تتردد صوصوته عندى ، أى آفاق تتوالى لحظة سماعه .

كون الألوان فى قايتباى الرقيق ، الجميل .

تتبعى أوقاتى فى مسجد إمامنا وحبيبنا وسيدنا الحسين ، دمعى عند النظر إلى الآية الكريمة .

﴿ قل لا أسألكم عليه من أجر إلا المودة فى القربى . . ﴾

عندما زرت المقام الكبير ، الكريم، آخر مكان مضيت إليه قبل عودتى إلى البيت ظهر الخميس الماضى ـ هكذا أصبح الخميس ماضياً ، ورحلة الطائرة ، وعبور المحيط ، ومطار نيويورك ، وتوديع الأبناء والأشقاء ـ طفت بالمرقد الذى يحوى الرأس المقدس ، وقرأت الفاتحة ، وبَثَثْتُ همى وشجوى، وتَلَوْتُ الآيات الكريمة . أَسْنَدْتُ ظهرى إلى الجدار الشرقى ، طمأننى الضوء المنبعث ، والبيان المرسل مِنِّى إلى صاحب المقام .

عندما واجهت الآية الكريمة المكتوبة بخط ثلث جميل بالقرب من محراب القبلة ؛ نَفَرَ دمعى .

لماذا ؟

لا أدرى . .

الآية نفسها مكتوبة بالحجر الرخامى المعلق على الباب القبلى . . أينما وَلَّيْتُ الوجه أراها ، وكثيراً ما تشرق حروفها أثناء الغفوة أو الرقدة .

تلك المساجد الصغيرة ، الهادئة ، الحزينة ، المتوارية ، الشاخصة ، المتطلعة ، المتجهة إلى المركز . .

هل سَيُقَدَّرُ لى عبور عتباتها ، مواجهة محاريبها مرة أخرى ؟

يضج حنينى إلى المآذن الشاخصة ، إلى الأفق القاهرى الجميل ، إلى المسلة القائمة أمام الكرنك ، وبهو الأعمدة المهيب ، أعمدة الكون والتاريخ ، أصل كافة الخواطر والعمارة .

يتقدمنا عم صبرى إلى داخل الكنيسة ، ممر طويل ، على جانبيه حجرات مغلقة ، يؤدى إلى القاعة الرئيسية .

ممتلئة تماماً . .

فوق المذبح جوقة الشماسة يؤدون الجزء الأخير من تراتيل كنسية ، ألحاناً جميلة ، شجية ، استدعت إلَيَّ مقامات الموسيقى العربية ، ألحاناً مألوفة . أثناء عملى فى محافظة المنيا ، قضيت ليلة فى قرية تقع شرق النهر ، فى بطن الجبل ، حضرت قداس الأحد . كانت الكنيسة صغيرة ، فقيرة ، جدرانها من الطوب الأحمر ، لم تكتمل بعد ، أذكر قائد الجوقة ، كان طويلاً ، متين البنية ، فوجئت بعد انتهاء الصلاة والأناشيد به ، وقد خلع الملابس الكهنوتية ، ليظهر قميصًا وبنطلوناً . كان يعمل فى مكتب التموين .

ما اسم القرية ؟

بالتأكيد ليست زاوية سلطان ، لا أذكر أننى دخلت كنيسة قبطية فى زاوية سلطان ، إذن . . أى قرية تلك ؟ ، ولماذا ذهبت هناك ؟ . كنت أعبر إلى البر الشرقى للتفتيش على وحدة السجاد فى القرية ، التى بناها سلطان باشا والد هدى شعراوى .

لا يمكننى التذكر ، إذا كنت لا أستطيع استدعاء اسم القرية ، فهل سأقدر على تذكر اسم الرجل ؟ .

مناطق كاملة من حياتى تمحى ، تبهت ، يرهقنى الترحال إليها ، أبذل الجهد ؛ ولا أقف على شىء . إنه العدم الماضى ، المؤدى إلى عدم عام قادم. يُعَرِّفُنَا عم صبرى إلى الحاضرين ، يصافحوننا بود . بعد انتهاء التراتيل، صعد أبونا ميخائيل راعى الكنيسة إلى المنصة ، وتحدث بعامية مصرية رقيقة عن تجربة مروا بها ، تتلخص فى قراءة الكتاب المقدس جماعة ، وخلال ساعات متتالية . قرب نهاية عظته تحدث عن بعض الأنشطة ، ثم وجه تحية إلينا . كان عم صبرى قد أخبره بوجودنا . وقفتُ بَاسِطًا يدى فوق قلبى كعادتى عند رد التحية ، وليرانى الحاضرون . بعد أن جلستُ أشار عم صبرى إلى رجل ممتلئ قليلاً ، يجلس فى الصف الأول . .

« هذا هو الدكتور فوزى اسطفانوس . . »

لم يكن الجالس مَنْ رأيته فى الصورة التى نشرت بمجلة « نصف الدنيا» . وفى هذه اللحظة أدركتُ أن الأسماء كُتِبَتْ تحت الصورة خطأ . فَاسْمُ مهدى رزاقى كان تحت صورة فوزى اسطفانوس ، والعكس .

بعد انتهاء القداس قدمنا العم صبرى إليه ، وأصغيت إلى ترحيب حار ، قال نفس العبارة التى سمعتها من صبرى عوض الله :

« كنا فى انتظارك . . »

خرجنا لنجلس فى الصالة الفسيحة ، صافحنا الأب ميخائيل ، دعا لى بالشفاء ، وقال شخص بجواره ـ طيب الملامح ـ أنه سيوقد شمعة من أجلى عند أيقونة العذراء المعلقة إلى الجدار المجاور للمذبح . تأثرتُ . . حتى أوشكت على أن أدمع ، غير أننى لم أفعل . . فَمَنْ يَمُتْ قبل الموت ، عليه أن يتحمل . وكنت قد وصلت إلى درجة من الحال غريبة ، كأن كافة ما يجرى يخص شخصا غيرى ، حميماً ، وثيق الصلة بى ، ملامحه ملامحى ، تراثه تراثى ، لكنه مغاير ، بعيد . .

قال الدكتور فوزى أن الدكتور جلال السعيد اتصل به أكثر من مرة ليوصيه بى ، كذلك الدكتور رفعت السعيد ، أمين حزب التجمع . بدا الرجل رقيقًا ، صريحاً ، عنده ميل إلى المداعبة ، ثمة تأثير صعيدى فى لهجته ، كانت زوجته هادئة ، تتحدث باختصار . علمت أنها أجرت عملية قلب مفتوح قبل شهور قليلة .

جاء فوزى اسطفانوس إلى الولايات المتحدة عام سبعة وستين ، هذه السنة الفاصلة فى تاريخنا وحياتنا على المستويين : العام والخاص ، التحق بمؤسسة كليفلاند الطبية ، تخصصه التخدير ، وتَقَدَّمَ بخطى راسخة ، واثقة ، لم يصبح واحداً من أهم علماء التخديرِ فى العالم ، وأستاذاً بارزاً من أساتذته له مؤلفات وكتب عدة ، لكنه جعل لهذا التخصص كياناً وقواماً . إنه الآن رئيس أقسام التخدير فى كليفلاند ، يتبعه مائة وخمسين طبيباً فى هذا التخصص . والتخدير ينقسم إلى قسمين : ذلك الخاص بالجراحات العامة ، وتخدير جراحات القلب المفتوح. الدكتور فوزى من أكبر المتخصصين فى هذا العلم بالتحديد ، تولى رئاسة مجلس إدارة المؤسسة

كلها ، وأَسَّسَ الجمعية العالمية لأطباء تخدير جراحات القلب ، تولى رئاستها من عام واحد وثمانين ، وحتى عام ثلاثة وثمانين .

فوزى اسطفانوس ممتلىء قليلاً ، صعيدى ، قبطى ، مصرى . ثلاث كلمات ، أو ثلاثة أوصاف تتداعى إلى ذهنى كلما رأيته ، أو سمعت اسمه ، أو طالعته مكتوباً ، رغم المدة الطويلة التى أمضاها فى الولايات المتحدة ، والمكانة العلمية والمادية التى يعيشها الآن ، إلا أن الوطن مازال حياً عنده ، حرصه على الصلات الوطيدة على مختلف المستويات قائم ، يعكس مكتبه موقفاً ثقافياً وإنسانياً ، الممر المؤدى إليه أنيق ، هادئ ، تطل علينا لوحات أصلية لمنمنمة فارسية ، وأخرى تركية ، وزخارف هندية ، وخريطة عربية قديمة للعالم .

فى مكتبه لوحة كبيرة لمسجد السلطان الغورى ، تُمُتُّ إلى القرن التاسع عشر ، وأيقونة قبطية لفنان شعبى من أخميم ، تمثل القديس مار جرجس ، وصفحة من التوراة ، مخطوطة قديمة معها خطاب شكر ومودة من الحاخام الأكبر لدولة إسرائيل ، الذى تبادل معه الحديث قبل إجراء الجراحة ، وقال له :

« عندما علمت أنك مصرى . . ازداد اطمئنانى . . »

شخصيات عديدة من مشاهير العالم قام بتخديرها ، منهم الملك خالد عبد العزيز ، والرئيس أيوب خان رئيس باكستان ، والدكتور عاطف صدقى الذى ارتبط به بصلة عميقة ، والدكتور زكريا عزمى رئيس الديوان الجمهورى ، وعمر عبد الآخر محافظ القاهرة ، وعدد كبير من المصريين الذين جاءوا إلى كليفلاند .

أحاطنا مناخ حميم ، الصغار يلعبون ، الكبار يتبادلون الحديث

والمعلومات ، والصحف المصرية التى يحصل عليها البعض بوسائل شتى ، ونشرات تحوى أخبار الوطن . كل فرد يتنافس فى خدمة الآخرين . زوجة الدكتور فوزى تعد القهوة للحاضرين ، أخرى تغسل الفناجين والأكواب ، رجل لا أعرفه يوزع الفطائر المصرية المعجونة بالزيت ، حضور حميم ، وضوء الفراغ الداخلى يحيل المكان كله ، ينسبه إلى أرض الوطن ، كأن خارج هذه النوافذ والأبواب هامات النخيل ، وأشجار الجميز ، والتين والزيتون ، والجوافة ، والطرق المتربة الصاعدة إلى مراكز القرى التى تفوح من فوق بيوتها روائح الخبز والطعام المطهو فى قدور فخارية فوق الكوانين ، كذا رائحة التبن ، وروث البهائم فى الطرقات ، وعبور سيدة ترتدى السواد ، تتوارى بعيداً ، عند الناصية ، وفى أعماق ذاكرتى . .

تربط الكنيسة المصريين ببعضهم من ناحية ، وبالوطن من ناحية أخرى، غير أننى لاحظت حوارات الصغار ، كلها بالإنجليزية ، وهذه مشكلة تواجه الأُسَر المصرية ، خاصة الجيل الثانى المولود فى المهجر ، وأخبرنى الأب ميخائيل أنه يلقى عظته بالعامية المصرية ، وبالإنجليزية .

دعانا العم صبرى إلى الغداء ، مطعم فسيح ، مرح ، مطل على البحيرة ، يوم عطلة ، أعلام زينة ترفرف فوق قوارب سياحية ، النادلات الحسناوات يتحركن برشاقة ، يرتدين تنورات قصيرة جداً تكشف سيقانهن وسراويلهن . فجأة قال الدكتور فوزى :

« نتكلم فى الطب قليلاً . . »

قال أنه قرأ تقرير الدكتور جلال السعيد المرسل من القاهرة ، قال : إن العملية كبيرة ، وبوضوح أكثر ، تُعَدُّ من عمليات القلب الخطيرة ، وهذا لابد أن يكون مفهوماً قبل إجرائها .

قلت بهدوء :

« إننى مستعد لكل الاحتمالات . . »

تحدث مجيباً على بعض أسئلتى ، وذكر بعض التفاصيل عن المخدر المستخدم فى عمليات القلب المفتوح ، كان يستخدم فى تخدير الأفيال عند صيدها ، تبلغ قوته ثلاثة آلاف أضعاف «المورفين» المستخدم فى تسكين الآلام .

« طبعاً نظفناه لنستخدمه مع الإنسان . . »

بقدر ما يبدو فوزى اسطفانوس جاداً عندالحديث عن أوجاع القلوب ، وطرق مداواتها ، بقدر مايبدو مرحاً عند الحديث فى أمور الحياة الدنيا ، ميالاً إلى المداعبة ، بقدر ما يبدو عاطفياً جداً ، تغرورق عيناه أحياناً عندما يتحدث عن أمر من أمور الوطن ، أو بعض المشاكل التى يعانيها الأقباط . فى لهجته عند بلوغ هذا الحد ، ألم وعتاب ورغبة فى التجاوز ، هذا الإنسان المشغول بتطوير علمه ، بتوطيد مكانته بين التخصصات الأخرى ، بالوضع العام للمؤسسة ، يتحدث عنها كأنه صاحبها ، مَعْنِىٌّ بشئونها الكبرى والصغرى . سألته :

« من يمتلك المستشفى ؟ »

قال :

« شعب مدينة كليفلاند . . »

لا يوجد مالك فرد . . شأن معظم المؤسسات فى الولايات المتحدة ، تقوم الملكية على أساس المساهمة ، وينتخب مجلس الإدارة بشكل دورى . كنت أسأل عن تفاصيل عديدة تتعلق بالمؤسسة . هكذا أُعَمِّق العلاقة بينى

وبين التكوين كله منذ أن تقرر إجراء الجراحةهنا ،. ألن يتقرر مصيرى فى موضع ما ، أجهله الآن ، وبأيدى مَنْ لم أَلْتَقِ بهم حتى هذه اللحظة ، بالضبط بعد غد . . ؟ .

الساعة الآن الثانية والنصف ، المطعم حولنا يفيض بالحياة ، بالمرح. تُرىٰ فى مثل هذا الوقت بعد غد ، أين سيكون وضعى ؟ .



مُوجَز

الاثنين . .

أول الأسبوع ، أول خطوة إلى المستشفى . فى المستشفى ، كان الأستاذ الجامعى الأسوانى قد وصف الطريق إلى القسم الدولى أكثر من مرة ، وليلة أمس قال أنه سيستيقظ مبكراً ليذهب معنا . ثمة خطوات لابد من القيام بها .

عبرنا الطريق العريض ، يبدأ من وسط المدينة ، اسمه ايوكليد. منذ وصولنا والشمس ساطعة ، غيوم خفيفة فى السماء، لكننا لم نشهد تقلبات حادة حتى الآن .

صباح رهيف ، يثير التفاؤل ، ويَعِدُ بأيام جميلة ، قد لا أبلغها . ترتبط البدايات دائماً بالصباحات ، بدايات النهار ، قد يبدأ السعى ليلاً ، بعض مراحل حياتى كنت أخرج إلى عملى بعد الظهر ، خاصة المرحلة الأولى فى عملى بمؤسسة أخبار اليوم ، عندما بدأت كمحرر فى قسم المعلومات، لكن الخروج إلى العمل يبدأ صباحاً ، كذلك الأحداث الكبرى أو المؤثرة . .

هذا صباح أعبره متمهلاً ، وعندى سكون داخلى مترقب ، غداً صباح آخر أخرج فيه لإجراء العملية .

ماذا بعد غد ؟

لا تدرى نفسى بأى أرض تموت . .

يوم طويل ، بل إنه أطول الأيام ، هكذا وصفه أحمد كمال مساعد المستشار الطبى المصرى، تعرفت عليه من خلال الهاتف ، مضى عليه فى المكتب الطبى عشر سنوات ، عنده خبرة عميقة ، دقيقة بالأمريكيين والإدارة الأمريكية ، خبير كذلك بأحوال المصريين ومزاجهم . نفوذه فى كليفلاند قوى ، يحظى بثقة كبيرة على جميع المستويات هنا ، ليس مهماً وصول الأوراق الخاصة بمريض جاء يُعَالَجُ على حساب الدولة ، طالما أن أحمد كمال اتصل عبر الهاتف ، وطلب تسهيل الأمور . يتردد صوته عبر أروقة المستشفى متحدثاً إلى هذا القسم أو ذاك . كان خبيراً بالأشخاص والمسئولين عن الأقسام المختلفة . استمرت علاقته بالمرضى بعد عودتهم إلى القاهرة . نبره مطمئن ، مرح ، فياض بالحيوية والمودة . .

تتوزع مبانى المستشفى فى منطقة فسيحة شبه مستطيلة ، ثمة مبانٍ تَمُتُّ إلى الخمسينات ، مبان أخرى قريبة ، مقار عديدة للإدارة ، جراجات ضخمة تتسع لسيارات العاملين من أطباء وممرضين وموظفين . فى المؤسسة نسبة عمالة مرتفعة ، تُعَدُّ من أعلى النسب فى الولايات المتحدة . عبرنا الطريق مشياً ، بمجرد الانتقال إلى الرصيف الآخر نصبح فى القلب من المؤسسة ، الزهور مبثوثة فى الطرقات ، لون الحشائش الأخضر الزاهى ، خضرة أنيقة ، مدروس توزيعها ، يغلب على المبانى اللون البنى بدرجاته المختلفة . تجمع المبانى بين الحداثة والعتاقة . ثمة حرص على إظهار القِدَم فى المبانى ، فى المنتجات الأمريكية ، حتى العربات الحديثة ، خاصة الأنواع المشهورة ، مثل الكاديلاك .

يربط المبانى طريق علوى مغطى بالزجاج العاكس ، يعرف بالطريق السماوى ، مدخلنا من البوابة الرئيسية لفندق «الأومنى» ، مبنى أنيق ، يحوى فندقاً خمس نجوم ، به مطاعم فاخرة ، وقاعات وثيرة ذات طابع كلاسيكى ، حتى المصعد يوحى بالزمن القديم ، زخارف الجدران المؤدية أو المحيطة به ، المقيمون بالفندق لا يعبرون الطرق مثل نزلاء فندق الضيافة الذى جئنا إليه . يمكن الانتقال مباشرة إلى أى مبنى سيراً على الأقدام ، دون الخروج ، أو استخدام العربة المكوكية البيضاء الصغيرة التى تدور بانتظام لتتوقف أمام كل مبنى . خدمة بدون مقابل ، تبدأ فى الخامسة صباحاً ، وتستمر حتى الثانية عشرة ليلاً ، وإذا احتاج أحد المرضى إلى الانتقال ليلاً ، يمكنه الاستعانة بالشرطة الخاصة بالمستشفى .

إلى يسار الداخل ، متجر لبيع الهدايا ، كل ما تراه العين يَمُتُّ إلى الفنادق الكبرى الأنيقة ، حيث عالم رجال الأعمال ، والسياحة ، والمؤتمرات ، والمعارض ، ولقاءات المحبين ، غير أن هذا المدخل الجميل ، المنمنم . لم يَخْفِ عن بصيرتى ما تضمه المبانى الأخرى ، أجهزة الفحص ، المحاليل ، الأدوية ، غرف العمليات ، الآلام والآمال المكنونة ، المخفية . كنت تواقاً إلى خوض الممرات والحجرات والوقوف على ما يجرى من فحوص وكشوف ، وصولاً إلى اللحظة الحاسمة ، غداً . . لا أعرف حتى الآن موقعها ، متى سيبدأ الأمر ، ومتى سينتهى .

خرجنا من المصعد فى الطابق الرابع ، الجدران مكسوة بنقوش جميلة تَمُتُّ بشكل ما إلى الأرابيسك العربى ، ندخل إلى ممر ، تقع على جانبيه مجموعة من الحجرات المتواجهة ، أجهزة الحواسب الآلية ، رنين الهواتف لايكف ، مكتب للحجز فى الطائرات ، وإنهاء إجراءات المسافرين . . ترى . . هل

سيتاح لى استخدامه ؟ . المكتب التالى لرئيسة القسم العربى ، مصرية ، سمراء ، من صعيد مصر أيضاً ، اسمها تريزا عجاييى ، حازمة ، وإنْ بدت أحياناً عصبية إلى حد ما ، ربما للضغوط الواقعة عليها . والحق أنها أبدت تجاهنا رقة ، وحرصت على صحبتنا عند مقابلة الدكتور مهدى رزاقى .

الاثنين . . أول الأسبوع ، لذلك تزدحم قاعة الانتظار ، معظم القادمين من دول الخليج ، غير أننى تعرفت إلى وزير الصحة اليمنى السابق ، كان دمثاً قريباً جداً ، شأن كافة اليمنيين الذين أعرفهم أو التقيت بهم ؛ عنده تواضع ورِقّة ، وخفة دم . تذكرت لقاءنا بالمشير عبد الله السلال فى صنعاء، بيته الذى يشبه دوار عمدة فى الريف المصرى ، مرحه الذى لم يفارقه ، حتى وهو يحكى عن أصعب مراحل حياته . تذكرت الشاعر الراحل فى عز شبابه (عبد اللطيف الربيع) ، صحبنى فى رحلة إلى عشق آباد عام تسعة وثمانين . كان طائراً بشرياً جميلاً من الوداعة والمرح ، وطاقة لا تتوقف من السخرية . كانت طريقة حديثة السريعة ونطقه للحروف تثير عند المستمع حالة توقع لسماع ما يبهج . تقاربنا بسرعة ، وعلمنى الكلمة الروسية الوحيدة التى يتقنها .

« باجوستا»

أي شكراً ، وكان ينطقها بمناسبة وبدون مناسبة ، فى المطعم ، فى المصعد ، للجميلات اللواتى يغازلهن . بعد عودتى إلى مصر أجريت عملية جراحية (فتق) ، فوجئت به يدخل الحجرة قرب منتصف الليل بعد انصراف ماجدة والأبناء والأصدقاء ، قال أنه بمجرد أن علم جاء على الفور، وأنه مسافر صباح الغد .

إلى أين يا عبد اللطيف ؟

إلى اليمن . .

كان عائداً من مؤتمر أدبى . لم تَمْضِ مدة طويلة ، إلا وبلغنى رحيله المباغت . يأتينى مرحاً ، ضاحكاً ، فى الطابق الرابع ، القسم الدولى المتخصص فى استقبال المرضى القادمين من بلدان شتى . كنت أنتظر قدوم سيدة مصرية اسمها نانسى داود ، تعمل هنا ، قالت تريزا أنها سترافقنا أثناء إجراء عمليات الفحص . جاءنى الدكتور عبد العزيز المقالح ، ضممت شفتى : أين هو الآن ؟ . ترى . . هل سنلتقى مرة أخرى ؟

غريب أمر الوجوه التى تطل على الإنسان عند اقترابه من الخط الفاصل ، ذلك الحد البين ، الخفى ، القائم بين الوجود والعدم . ربما لأننى أحببت اليمن عند زيارتى الوحيدة لها عام ثمانية وثمانين . عاش معى عبد العزيز المقالح رغم أننا لن نلتقى إلا إذا مضيت إليه ، ذلك أنه لا يسافر مطلقاً . قدمت إلينا تريزا عجايبى استمارتين . رحت مع ماجدة ندون المعلومات المطلوبة عنى ، معلومات كتبتها مرات شتى يصعب حصرها ، فى جهات مختلفة ، عند السفر ، عند الوصول ، عند استخراج وثيقة ما ، دائماً الاسم الثلاثى ، وتاريخ الميلاد ، وعنوان الإقامة ، ومعلومات عن الأسرة ، وأسماء الذين يمكن الاستعلام منهم أو العودة إليهم . أحياناً أفكر فى عدد الجهات السرية والعلنية التى دونت اسمى ، وما يتصل بى من معلومات ، إدارات حكومية ، أجهزة أمنية عربية أجنبية ، نوادٍ ، هيئات اجتماعية ، ومالا أدريه ، ومالا أُحَاطُ به علماً .

مضينا إلى غرفة أخرى . يمكن القول أنه ما من مكان يخلو من أجهزة الحاسب الآلى . من خلال أحدها تحولتُ إلى رقم ، الرقم خرج مطبوعاً

بحروف بارزة على بطاقة صغيرة ، لونها درجة من الأصفر الأقرب إلى البنى ، اسم المؤسسة وشعارها بالأخضر . الرقم بارز .

2 421 543 1

El GHITANY

MR GAMAL

لم تصدر هذه البطاقة إلا بعد إشارة عبر الهاتف من أحمد كمال مساعد المستشار الطبى فى واشنطن ، موافقته تعنى أن الدولة المصرية ـ ممثلة فى السفارة ـ تتكفل بتغطية النفقات ، أما البطاقة ، فتعنى أن ملفا فتح يخصنى ، لو جئت بعد سنوات عديدة وقدمت البطاقة ، فإن الرقم يستدعى كافة التفاصيل الخاصة بى ، يأتى بالملف كاملاً ، عند دخولى أى قسم فى المستشفى يكفى إبراز البطاقة ، عند تسلم الأدوية من الصيدلية التى تقع خارج المبنى ، البطاقة جواز المرور .

لحقتنا نانسى داوود ، مصرية ، خفيفة الروح والحضور ، باسمة ، جميلة ، رغم مضى سنوات طويلة عليها فى الولايات المتحدة ، إلا أن ارتباطها بمصر قوى وعميق . كانت تستعد لقضاء إجازتها بصحبة أسرتها الصغيرة ، وزوجها طبيب التحذير ، وقد قابلته فيها بعد . تبدو نانسى متحمسة لعملها ، تحبه ، ومن خلاله تتعرف إلى شخصيات عديدة ، تقول أن هذا مثير بالنسبة لها .

صحبتنا عبر الطريق المؤدى إلى المبنى « H » . إنه المبنى الذى يضم الأقسام الخاصة بعلاج وجراحة القلب . عدنا إلى الطريق السماوى المغطى مرة أخرى ، وقطعناه حتى نهايته . عبرنا ممرات متوالية ، على جانبيها غرف مغلقة .

« أهذه غرف العمليات . . ؟ »

أومأت نانسي . . أبواب مغلقة كتلك التى رأيتها فى الغواصات أثناء عملى كمراسل حربى ، لكنها هنا أكثر أناقة ، بيضاء تميل إلى زرقة ، وتفاصيلها أدق ، ترى . . ماذا تخفى وراءها ؟ فى أى مكان سأتمدد غداً فوق طاولة العمليات ؟ ، التساؤلات الآن حول المكان محددة ، إذ إننى متواجد فيه بالفعل . إنها الدرجة الأخيرة من السلم المؤدى ، ثمة فضول يدفعنى إلى النظر ، محاولاً أن ألمح أى شىء قد يبدو إذا فُتح أحد هذه الأبواب فجأة .

فى الممرات ، كنت أرى الأطباء والممرضين ، ومرضى يجلسون على مقاعد متحركة يدفعها رجال أشداء ، وكان بعضها مزوداً بأعمدة معدنية معلق عليها أجهزة صغيرة أو زجاجات محاليل ، مرأى هؤلاء كان يدفع بى إلى قلب المستشفى ، إلى لب الكيان . هنا تنتفى الحجرات المغطاة بورق الحائط المزخرف ، والقاعات الفاخرة لفندق الأومنى ، وكل العناصر التى تشكل استقبالا يموه ما يخفى ، ولا تدركه أبصار المرضى القادمين .

فى المصعد لاحظت أن الأرقام تنتهى عند الرقم العاشر ، ولا يوجد رقم ثلاثة . سألت نانسى ، فقالت : إن الطابقين الثانى والثالث يعتبران واحداً ، لأن غرف العمليات بهما . وغرف العمليات مرتفعة الأسقف .

وصلنا إلى الطابق الأرضى . من هنا تبدأ ، صالة أنيقة ، مستطيلة ، أرائك وثيرة ، يجلس عليها من ينتظرون بداية الفحص ، أو يصاحبون مرضاهم . على الجدار المواجه صورة كبيرة لرجل يطل علينا من خلال نحت بارز اسمه آرثر مودل ARTHUR . B . MODEL ، تنطوى ملامحه على ابتسامة ساخرة ، لابد أن له صلة وثيقة بالمستشفى .

الأرائك وثيرة ، ألوانها تتوزع بين البنى والأزرق ، نباتات الظل كثيفة ، يتدفق الضوء الهادئ من خلال السقف الزجاجى ، الجدران معلق عليها لوحات فنية حديثة . يوحى المكان بأماكن الاستقبال فى الفنادق الكبرى ، أو الشركات الثرية ، والبنوك ذات النفوذ والاتساع ، غير أن ظهور المرضى الجالسين فوق المقاعد المتحركة ، أو الممرضات فى زيهن الأبيض ، وأحيانا يمر طبيب ـ أو طبيبة ـ مرتديا زِيًّا فى لون السماء ، وربما يغطى رأسه بكيس من البلاستيك ، هذا زى غرف العمليات .

يطل مدخل القسمين السادس عشر والسابع عشر على صالة الانتظار . منها تبدأ الرحلة . بين الحين والحين تقف سيدة أنيقة ترتدى الملابس البيضاء ، ويعلو صوتها منادياً اسم أحد المنتظرين . وتتمهل إذ تقرأ حروف اسم عربى ، أو أفريقى ، أو آسيوى ، فالمنتظرون هنا يَمُتُّون إلى جنسيات عديدة . قرأت فى أحد الكتيبات الخاصة بالتعريف أن المتعاملين مع المستشفى يَمُتُّون إلى أكثر من مائة جنسية .

كان المدخل إلى القسمين فسيحاً . على جانبيه مكتبان ، واجهتيهما من زجاج ، كأنه مكان حجز لأحد المسارح ، أو دار للسينما . كان أحدهما مكتوباً عليه -G16- ، والآخر -G17- .

عند المدخل ظهر شاب زنجى أسود نحيل ، يجلس على كرسى متحرك ، يدفعه زنجى قوى البنية ، يرتدى قميصا بنفسجى اللون ، وبنطلونا أبيض . إنه الزى الخاص بأولئك المسئولين عن نقل المرضى ، ومعظمهم أقوياء البنية ، جرى اختيارهم بعناية . ولنقل المرضى من مكان إلى آخر هنا شأن عظيم ، خاصة من غرفة العمليات إلى طابق الرعاية المركزية .

كان الشاب الزنجى ـ المنحدر من أصلاب رجال عاشوا فوق القارة

عينها، التى سعى فى الركن الشمالى منها أجدادى - يبدو واهنًا ، وعلى وجهه هدوء عميق ، مصمت ، واستسلام ، من عمود معلق عليه إناء يحوى محلولاً أبيض ، يتدلى منه خرطوم نحيل ينغرس آخره فى ذراعه ، رأيت مثل ذلك هذا الصباح ، لكن ما أقلقنى وأضجنى أن هذا الخرطوم الرفيع كان يمر تحت أنفه ، وينحدر حول رقبته . لماذا تحت الأنف مباشرة ؟

لا أدرى .

ترى . . من هو ؟

لا أعرف ؟

أى عملية جراحية أجراها ؟ . كل من يتحرك هنا له صلة بالقلب . المبنى كله مخصص لطب القلوب وجراحتها . مجرد لقاء عابر ، ولم ينظر ناحيتى ، غير أن حنواً صَدَرَ من عندى إليه ، كأنه يتصل بى أوثق قُربى . آلمنى استسلامه واستكانته تلك . . ربما لأننى كنت أصعد نحو مثيل لها ، بل ربما أكون بلغتِ المدى الموجود ، ربما لإدراكى أننى ربما أقطع هذا الممر محمولا على كرسى مشابه ، يدفعنى زنجى لا أعرفه ، غير أننى وثقت من حنوى تجاهه وعليه فى أى ظرف تتم خلاله المشاهدة ، ذلك أننى لم أر وداعة ممتزجة بهذا الهدوء المتين ، الراسخ ، غير المَعْنِىّ بالمتى والأين ؟ وهذا ما بَدَأْتُ سَعْيِى تجاهه . كنت أدرك ملامحى من داخلى ، قادرًا على تحسس خارج حضورى المادى ، المحسوس ، كنت أعى بداية استقرار تلك الوداعة النهائية ، وإطلالها عبر قسماتى منذ صعودى سلم الطائرة الحاملة لحورس الأبدى ، الساعية بى إلى أفقه غير المدرك .

« مستر جيتان . . نى . . » .

يتردد اسمى على شفتى الممرضة الأمريكية التى كانت تمسك بورقة مطبوعة . كانت مرافقتنا نانسى قد سلمت الملف الذى يحمل رقمى واسمى، والمُعَدّ لاحتواء كافة تقارير الفحوص التى ستتم اليوم . كانت نانسى تتحدث إلى ماجدة ، وقع تآلف سريع بينهما ، انتبهت ، قامت ، صحبتنى إلى الداخل ، غرفة رسام القلب الكهربائى ، الأسلاك التى تتصل بالصدر ، والأطراف ، لابد من خلع القميص والملابس الداخلية ، وارتداء قميص طويل مفتوح من الخلف ، بمجرد الانتهاء من رسم القلب يتم إلقاؤه فى سلة تحوى قمصانا متشابهة . القميص لا يتكرر ارتداؤه أبدا ، وفى كل غرفة فحص يتكرر الخلع واللبس ، من غرفة الرسام الكهربائى . إلى قسم أخذ عينات الدم ، أجهزة حديثة ، ومؤشرات وأرقام ، أجهزة دائرية ، أخرى مستطيلة ، أنابيب مختلفة الأحجام، لكل منها سدادة من البلاستيك، ياه . . ماذا سيفعلون بهذه الكمية من الدم ، دمى ؟ حوالى اثنتى عشرة أنبوبة . عند انتقالى إلى قسم الأشعة ، أدركتُ تَمَكُّنَ وترسيخ هذا الحال . مع كل خطوة أتقدمها ، تكتمل هذه السكينة التى لم أعهدها من قبل ، تختلف عن الهدوء الذى كان يسيل بهدوء عندى لحظة وصولى إلى جبهة القتال ، أو أثناء مشيى المحدود ، المحاصر فى الزنزانة رقم سبعة ـ أو أربعة ـ وثلاثين بمعتقل القلعة . لا . . هذا هدوء جديد علىّ ، غير موقوت بحد ، وغير مؤطر بشرط ، منفى عنه التأهب لموقف ما . من المبنى (H) انتقلنا عبر الطريق السماوى إلى المبنى (A) . إنه أكبر المبانى ، هرمى مدرج ، لا بروز عبر جدرانه الملساء بنية اللون . كانت قاعة الاستقبال هنا أفسح ، والمكاتب موزعة على المكان . بدا المدخل كأنه مطار فسيح يشغى بالحركة والحيوية . الغالب هنا اللون الأصفر الهادئ . كان وقت الغذاء قد بدأ ،

ومواعيده هنا تُحْتَرَمُ إلى أقصى حد ، حتى إن الطاقم المتواجد داخل غرفة العمليات ، يخرج أفراده ، واحداً ، واحداً ، إلى أحد المطعمين الرئيسيين فى المستشفى ، لكل منهم وقت مقداره نصف ساعة .

اتجهنا ثلاثتنا إلى المطعم الذى يقع فى الطابق الثانى ، الطريق السماوى يؤدى إليه ، شكل الوجبات المعروضة يثير الشهية ، لكن ثمة شيء يستعصى على التوصيف ، صعب تحديده .. يُوْجِدُ مسافة بين الرغبة والطعام . ثمة عنصر غامض يبدو جليا فى رائحة الأكل ، أيا كان نوعه أو طريقة طهوه . هل يتصل الأمر بما أمر به ، بِوَهَن الغريزة مع تحدد هذا السكون داخلى ، وخروجى التدريجى عن المنظومة ، عن الترتيب اليومى ؟

ربما ..

تشابهت المذاقات عندى ، تداخلت النكهات ، تهاوت الخطوط الفاصلة بين الخضر والفاكهة ، المَضْغ من أجل البلع ، وليس للتذوق . ألوان الأصناف المرصوصة بعناية فى الطبق تثير انتباهى أكثر من نوعيتها ، وطريقة إعدادها ، غير أن ما أثار قلقلتى تلك الرائحة العامة المثيرة للحزن ، وربما للاكتئاب والرغبة فى المضى بعيدا . هنا بدأ حنينى إلى ما اعتدته ، ما ارتبط بى عمراً ، إلى كل مالا يمكن إدراكه ، حتى لو لقيته أمامى هنا الآن .

من المطعم صعدنا إلى أحد الطوابق العلوية ، حيث الأقسام الخارجية . المطلوب فحص أسنانى . عندما تقرر إجراء الجراحة ، أقدمتُ على خلع ضرس كان ملتهبا قبل أيام . وكان لابد من اتخاذ خطوات معتادة فى مثل هذه الأحوال ، مثل المضادات الحيوية الكثيفة ، التى تؤمن عملية الخلع ، حتى لا يتسرب أى تلوث إلى الصمام المصاب . قام الصديق الدكتور علاء

الأسوانى بالمهمة ، وبهرنى إتقانه لعمله ، وبراعته ، حتى إننى تأملت جذر الضرس الطويل المنحنى ، وتعجبت . . هل كان هذا مستقراً داخل لثتى ؟

فى أى حيز ؟

استعدت ذلك العصر القريب ، البعيد ، عندما ذهبت إليه فى عيادته بجاردن سيتى . كانت الكهرباء مقطوعة عن المبنى ، لقيته فى انتظارى أمامه ، بالضبط فى السادسة ، حمل معداته فى حقيبة ، ومضى إلى عيادة الدكتور فهمى صاحبى أيضا فى منطقة باب اللوق ، فى العمارة المواجهة للمقهى الذى اعتدت الجلوس فيه ، وتدخين النرجيلة منذ ثلاثين عاماً ، مر بنا صديق وأخى محمد البساطى ، أحد أرق وأعذب أدباء جيلنا .

شارع الفلكى ، وسط المدينة ، هدوء العصر ، واقفرار النواحى ، أيام الإجازات ، وخفة الحركة ، وهبوب الرياح التى تثير دوامات التراب والورق ، والتى طالما تساءلت عن مصدرها الأصلى ؟

أين ؟

غرف متجاورة ، مليئة بالضوء المنبعث من الداخل والخارج . بعد أن وقفت أمام جهاز للأشعة ، دار حول فكِّى ، مضيت إلى الغرفة المجاورة ، حيث طبيب الأسنان . لم يكن متواجدًا ، غير أن الغرفة بدت مرحة بما تحمله من لوحات صغيرة لشواطئ ، والنخيل المطل على الكاريبى ، وأنواع من السمك الملون ، وأعلام صغيرة ، وأغلفة أسطوانات ، وعرائس متقنة . .

عندما جاء ، بدا مطابقا لكل ما تحويه الحجرة ، مَرِحاً ، يُصَفِّر لحنا ، تمددت فوق المقعد المجهز . مال به إلى الخلف ، وفتحت فمى ، ثم راح

يتمعن فى صورة الأشعة ، كانت صورة بانورامية لأسنانى ، بدت الأماكن الفارغة ، وعددها ثلاثة (خلعت ضرسين متجاورين) . عظام فكى جلية، أسنانى ، هذا ما سيتبقى منى لعدة مئات من السنين ، حتى يتحلل العظم ، أو تطرأ عليه متغيرات . فى كل الأحوال ، تلك الصورة التى ستبقى أمداً أطول قليلا بعد اكتمال الصمت ، وتمام الاستواء .

كنت أخشى النتيجة ، أن يجد طبيب الأسنان ما يستدعى إيقاف الجراحة ، هل معقول هذا ؟

نعم . . وإلا . . لماذا جئت إلى هنا ؟

كنت أخشى أن يعطلنى أى سبب عن بلوغ المحط الأخير ، صحيح أن احتمالات المفاجآت قائمة ، متوقعة ، ولكن ليس إلى الحد الذى يبدد تهيؤى، لو أننى لم أخلع ضرسى ، لاختلف الأمر الآن . . لوجدت حالى فى موقع مغاير للمسار المقدر .

مضينا إلى الطابق الأول ، حيث قسم الإعداد للجراحة . تسلمتُ ما يمكن أن أعتبره نرجيلة طبية ، مصنوعة من البلاستيك ، داخلها كرة صغيرة تتحرك مع سحب الهواء إلى الرئتين . والمطلوب أن يتدرب المريض على إبقائها معلقة . وكلما طال الوقت ، قوى العنصر المساعد . ثمة درجات لقوة السحب ، مؤشر دال وأرقام متصاعدة . يحدث بعد إجراء الجراحة التى يتم خلالها التنفس بجهاز صناعى أن تتوقف الرئتان عن العمل، تضمران ، ومع تردد الأنفاس مرة أخرى ، تساعد التدريبات المنتظمة بواسطة النرجلية على عودة الرئتين إلى حجمهما الطبيعى تدريجياً .

يتعلق هذا كله بمرحلة تالية .

تسلمت أيضا قارورة من بلاستيك ، تحتوى على شامبو طبى ، الاستحمام مرتين مطلوب ، نصف ليلة إجراء العملية ، ونصف للصباح الباكر قبل الخروج إلى المستشفى ، لابد من تدليك متأن ، جيد ، حتى ينفذ المطهر عبر المسام ، وَلَجْتُ قسم التصوير بالموجات الصوتية . أجريت هذه الخطوة مرتين فى القاهرة ، الأولى مع بداية الآلام . وكان الطبيب الشاب الجالس أمام الجهاز دقيقاً ، بذل مجهودًا مازلت أذكره . وفى تلك الليلة سمعت أول توصيف لحالة الصمام الميترالى

« ضيق شديد وارتجاع ، لكنه يحتمل التوسيع بالبالون . . »

سألت :

« هل يحتاج الأمر إلى جراحة ؟ »

قال :

« لا أظن . . »

كان الشاب يعمل فى عيادة طبيب كبير مشهور ، غير أننى لم أرتح إليه ، خاصة عندما سألنى عن مقدار طولى ، ومد يده تحت المكتب ، أخرج مستطيلاً من البلاستيك الشفاف داخله خرطوم رفيع ينتهى ببالون مستطيل. مضيت إلى طبيبين آخرين ، إلى أن استقر أمرى مع الدكتور جلال السعيد ، الذى أجرى لى القسطرة ، واتخذ القرار بإجراء الجراحة ، بعد أن اكتشف ضيق الشرايين . . لكن قبل القسطرة طلب منى أن أتوجه إلى قسم الرعاية المركزة بالقصر العينى ، الطابق الرابع ، حيث العلاج الخاص ، أى مقابل مبالغ مالية تقارب المستوى المتعامل به عند الأطباء فى عياداتهم الخاصة . كان المفروض أن أجرى منظارًا على القلب من خلال

البلعوم ، لاستكشاف أى جلطات داخل القلب ، قبل إجراء عملية التوسيع بالبالون المقترحة وقتئذ . مضينا فى الصباح الباكر إلى القصر العينى، المستشفى العريق ، القديم ، الذى لو توفرت له إدارة عصرية جيدة ، لَفَاقَ أشهر مستشفيات العالم . ولكن . . ما العمل ، والإمكانيات قليلة ، والحيلة منعدمة ، والاستهانة بالإنسان متفشية ؟ لو أن الأمر جلى ، منضبط ؛ لما تكبدنا مشقة الغربة ، ومرارة كَتْم الأنفاس فى ديار لم نطأها من قبل . .

فى ذلك الصباح جلست أنتظر . كانت صالة الاستقبال نظيفة ، الغالب عليها اللون الأخضر ، ولكننى لاحظت أن بعض العاملين يدخنون فى مكانٍ ، المفروض أن التدخين ممنوع فيه . سلمت خطاب الدكتور جلال إلى الممرضة الجالسة خلف المكتب . وبعد حوالى ساعة من الانتظار ، دخل شاب يرتدى نظارة طبية . عَرَضَتْ عليه الممرضة خطاب الدكتور جلال عليه ، لكنه أشاح بوجهه ، ملوحًا بيده ، سمعته يقول أنه مشغول ، انصرف . عند العاشرة والنصف ظهر الدكتور جلال يسير محاطا بمساعديه وطَلَبَتِه ، وللأطباء الكبار فى سائر المستشفيات هيبة وحضور قوى . أَسْرَعْتُ نحوه ، قلت أننى جئت فى التاسعة كما طلب منى ، ولكن حتى الآن لم يتم شىء .

بعد لحظات ظهر الطبيب الشاب . بدا ودوداً عندما دعانى إلى الحجرة المخصصة للعملية ، بدت الحجرة نظيفة ، والملاءات بيضاء ، ولكن ثمة شىء ما يوحى بإهمال وكساد معاً ، الجهاز حديث جداً ، لكنه غير مغطى، الممرضة تتحرك متمهلة ، مفتقدة للحماس .

كان الطبيب الشاب دقيقاً فى عمله ، أبدى حذقا ومرونة أثناء إدخال

المنظار عبر حلقي . كنت راقداً على جنبى الأيسر ، بحيث يمكننى رؤية الشاشة . هكذا أُتِيحَ لى أن أرى حركة الحياة فى قلبى ، ما بين بسط وقبض . هكذا ، تماما كحركة الفرج عند بلوغ النشوة، وتعلق الأنثى بالذكر قبل لحيظات من صب بذرة الحياة فى اتجاه الرحم . كانت الصورة تشبه مجرة على بعد سحيق فى أعماق الكون . وعندما حان الوقت للإصغاء إلى تدفق الدم فى غرف القلب المختلفة ، سمعت أصوات الطبيعة كلها ، فهذا التتابع يشبه موج البحر ، وهذا الصوت النحيل المتوالى يشبه الرياح فى ليلة شتوية ، وذاك يشبه مرور النسيمات بين أوراق الشجر ، صورة شرايينى على الشاشة المواجهة لى عند إجراء القسطرة فيما بعد ، كانت تشبه جذوع الشجر وجذور النبات وأطراف الأغصان التى تَيَبَّسَتْ ، الإنسان مُصَغَّر للكون إذن ، بالضبط كما قال القدماء : الإنسان عالم صغير ، والعالم إنسان كبير .

أثناء عمل الطبيب الشاب ـ اسمه إسحق باخوم على ما أذكر ـ وأثناء وجود المنظار خلف القلب ، وانسداد حلقى بالخرطوم الأسود اللون ، فُتِحَ الباب فجأة ، وظهر رجل متوسط القامة ، طبيب قلب شهير ممن يظهرون فى برامج التليفزيون ، تلقى تعليمه أو تدريبه بمعنى أدق فى كليفلاند ، أمضى فيها مدة ، فوجئت به يقول :

« شَهِّلْ شوية ، أحسن أحمد بك مستعجل . . »

طبعا أخذنى ذهول ، ولم يكن باستطاعتى الرد ، عاد مرة أخرى ليقول :

« أحمد بك قلقان . . حنعمل له حاجة بروباجندا كده . . »

تبادلت النظر مع زميلى محمد رجب ، السائق الخاص لسيارة أخبار الأدب ، وبعد أن انتهت عملية تصوير القلب والصمام ، وأخرج الدكتور باخوم الخرطوم الطويل ، سألته :

« مين ده ؟ »

قال بلهجة اعتذار . .

« معلهش . . ده أستاذى . . »

أبديت دهشتى ، وفى هذه اللحظة اقتحم هذا الطبيب الباب ، وخلفه أحمد بك ، يتقدمه كرشه ، عرفته من ملامحه ، إنه مُحَام كبير . اضطررت للخروج من الحجرة قبل أن يبدأ الطبيب فى كتابة التقرير . وانتظرت فى الممر حوالى ثلاثة أرباع الساعة ، إلى أن انتهى من عمل المنظار ، وتصوير قلب أحمد بك ، الذى اتضح أنه يعانى من أوهام نفسية ، وأن قلبه سليم والحمدلله . للأسف ، سيطرت علىّ حالة من رد الفعل البطىء ، ذلك أن استجابتى للأفعال والأحاديث على مستويين ، أو من خلال حالين ، فإما سريع ، أرد خلاله رداً مباشراً ، وهذا أفضل ، وإما جمود ، فاسترجاع لما كان ، مع تصاعد حاد فى الانفعال ، ورغبة أَحَدّ فى الثأر ، أو الرد على ما اعتبرته إهانة ، وهذا أصعب وأوعر ، ولكنه للأسف غالب علىّ . وهذا ما جرى لى تلك الضهيرة ، وحتى الآن لا أستعيد وقائع هذا الموقف ، إلاّ وينتابنى توتر ، وحدة مزاج . أقول لنفسى : كان يجب أن ألقنه درساً . لَكَمْ كلفتنى ردود الفعل البطيئة تلك . . خاصة مع تصاعد غضبى ، الذى لا يتجه إلا إلَىّ ، طَبْعٌ جُبِلْتُ عليه ، وغَلَب .

للمرة الثالثة أتمدد فى مواجهة الجهاز الذى يرسل موجاته الصوتية إلى قلبى . لم يكن ثمة منظار هذه المرة ، ولكنها تلك القبضة الصغيرة المتصلة بالجهاز تتحسس صدرى المطلى بمادة تشبه الجيلاتين . مرة أخرى أصغيت إلى الرياح ، إلى اصطدام الأمواج بشواطئ روحى ، إلى النسمات العليلة الهادئة ، إلى عويل كونى ، غير أننى كنت المنبع والمصب ، البداية والنهاية ، كنت موجزاً للمسار كُله ، وملخصاً للحكاية . .

قطعة فى وصل

لكل امرئ وقته عندى ، عدا أمى .

كل مَنْ عرفته ، أو ارتبطت به ، طالت المدة أَمْ قصرت ، أستدعيه مقترنا بساعة نهارية معينة ، فهذا له الصباح ، وذاك معه العصر ، أما الآخر ، فَلَهُ الغسق .

أمى خارج كل إطار ، لا يحدّها حد ، كافة لحيظات اليوم نابعة منها ، وسائر أنواع الهبوب منها وإليها ، حتى بعد غيابها الأبدى تفاجئنى بحنوها عبر حضورها الهادئ ، المستكين ، وطلتها الصابرة ، المتعبة ، لكنها تجتهد فى إخفاء ما يمكن أن يثير الهم عندى ، ومالى لا أرى التى فطرتنى ، ورعتنى ، وأغدقت علىّ الود الجميل ، منها وفدت ، وها أنا دانٍ . أُوَلّى وجهتى صوبها لأبلغها ، حتى وإنْ طالت المدة .

بعد إصغائى إلى أصوات الكون المنبعثة منى ، مضيت إلى مكان الانتظار. طال أكثر مما قَدَّرْتُ . أغمضت عينى ، تذبذب حضورى ما بين الإغفاء واليقظة ، ثمة شىء ما أعاق التقرير ، لا أدرى ما هو ا . طال مكوثنا ، وكنت أنزف حنينًا إلى أيام نائية ، آمنة ، أستعيدها من طفولتى، من صباى، تتداخل الأمكنة ، من جهينة إلى الجمالية ، إلى ميدان القلعة

الذى اعتدت عبوره لزيارة بعض الأقارب بصحبة الوالد والوالدة ، إلى بيت الشيخ محمد حسنين . كان من علماء الأزهر . أراه قاعداً فوق كنبة ، بجواره مكتبة رصت فوق أرففها كتب ضخمة مجلدة ، شروح ، تفاسير ، متون . كنت أَتَطَلَّعُ إليها بفضول ورهبة ، أتمنى تقليب صفحاتها ، لكن لم تُتَحْ لى إلا قراءة اسم مكتوب بحروف ذهبية « النواوى » . هذا ما علق بذاكرتى . ذات ليلة عاد أبى ليفضى مباشرة بما لديه من أخبار إلى والدتى ، قال : إن الشيخ محمد حسنين زنقته عربة نقل ثقيلة ، وإن السر الإلهى خرج عند وصوله إلى المستشفى .

أصغت أمى واجمة ، راحت تردد :

« لا حول ولا قوة إلا بالله . . »

وذرفت دمعاً هادئًا ، صبوراً . كانت لديها قوة داخلية ، لم أعرف لها مثيلا ، وقدرة على التحمل ، وكان هذا الراحل جزءا من عالمها المحدود الذى تتحرك فيه .

عندما بدأ ترددى على دار الكتب فى باب الخلق ، سَعَيْتُ إلى ابنه الأكبر، واسمه صلاح ، كان يعمل موظفا فى قسم الإعارة . ولَكَمْ ساعدنى على اختيار الكتب ، وإحضار ما وصل حديثا إلىَّ . دار الكتب بمدخلها العريض ، المهيب ، ورائحة الظل والورق والمعرفة الكامنة ، والردهة الطويلة التى تتوسطها فتارين عرض المصاحف المملوكية الثمينة التى تستقر فى متحف صغير مهمل بمبنى الدار الجديد على كورنيش النيل . دار الكتب أحد مصادرى الهامة فى قراءة المؤلفات التى لم يكن باستطاعتى شراؤها . كنت أسعى إلى الكتب داخلها ، وعلى أرصفة المساجد ، خاصة الأزهر ،

وسور الأزبكية ، ودكاكين الورق المستعمل فى الجمالية . اقتنيت من محل عم دياب للبورق عَشْرَةَ مجلدات من جريدة « المؤيد » التى أصدرها الشيخ على يوسف .

أُغْمِضُ عينى ، أُطِلُّ إلى الداخل على كتبى المصفوفة بالعناية ، كثير منها لم أقرأه بعد . حقا . . ما أضيق الوقت المتاح ، وما أكثر ذلك الذى بَدَّدْتُهُ . تتطلع إلىَّ أمى من نقطة تتلاقى عندها كافة الأمكنة ، فينتفى البعد والقرب، فى نظرتها تلك الوداعة الهائلة ، المستسلمة ، لمحتها عندما صحبتها إلى طبيب متخصص فى الأورام ، بعد ظهور كتلة مستديرة فى صدرها ، من عيادة الطبيب إلى معمل التحليل ، إلى البيت تسرى هادئة ، ساكنة ، غير باد عليها جزع أو خشية .

أُلِمُّ بهذه النظرة عندى ، أستشعر ما يبْدو منى بداخلى ، فكأنى أُطِلُّ على ذاتى بذاتى ، مقتديًا بنظرات أمى ، التى راحت تتابعنى عن قرب ذلك العصر ، نعود إلى الطريق السماوى ، بعد أن تسلمنا تقرير الموجات الصوتية، وأبدت نانسى احتجاجها على هذا التأخير غير المألوف . كان العاملون على الجهاز أربعة ، أحدهم هندى ، وآخر فيلبينى ، وثالث أيرلندى ، والرابع أمريكى ، وهذا التنوع فى الجنسيات نجده فى سائر أقسام المستشفى هنا ، أطباء من جميع الجنسيات ، هذه التعددية التى يقوم عليها المجتمع الأمريكى ، المهم أولا الكفاءة ، ومقدار تحصيل العلم ، والموهبة ، لافضل لهذا على ذلك إلا بعلمه وقدراته .

عدنا إلى المبنى «H» . إلى الطابق الثانى ، حيث القسم «G15» . هنا مقر العيادات الخاصة بأطباء القلب ، سواء الجراحين أَمْ المعالجين ، كنت هنا فى الصباح قبل بدء التحليلات اللازمة . كان المكان مزدحماً . . فاليوم الاثنين

أول الأسبوع . وعندما صاحت إحدى العاملات باسمى ، اتجهت بصحبة مرافقتى نانسى إلى حجرة صغيرة ، مزودة بسرير للكشف ، ومقعد ، ومكتب ، وكانت مصادر الضوء غير بادية ، لكنه ضوء قوى يستوحى ضوء النهار الخارجى . جاءت شابة جميلة ، هادئة الملامح ، محايدة النظرة ، كانت تعلق السماعة الطبية ، وأمامها أوراق . . بعضها أبيض تماما ، والآخر فيه سطور وكلمات مطبوعة ، مثل الاستمارات . على الفور بَدَأَتْ أطول عملية استجواب تَمَّتْ معى فى عيادة طبية ، أسئلة متوالية ، سريعة ، تتوقف وتتأنى عند بعض إجاباتى ، بَدَأَتْ بتاريخ الميلاد ، وانتهت بما تناولته صباح اليوم ، مروراً بالأمراض التى عانيت منها ، وتطور حالتى ، والعمليات الجراحية الأخرى التى أجريتها ، وتَفَحَّصَتْ موضع العملية الوحيدة التى تَمَّتْ عام تسعة وثمانين ، ورَتَقَ بها الدكتور عبد القادر قطب فتقاً فى جانبى الأيسر ، وقد ظهر فجأة بعد حالة حزن شديدة مرت بى صيف هذا العام لأسباب سَأُفَصِّلُهَا فى مُؤَلَّفٍ آخَر .

سألتنى عن وفاة والدىّ ، أبى سنة ثمانين ، وأمى سنة ثلاثة وثمانين ، وطلبت وصفاً لأعراض الأزمتين اللتين سبقتا الرحيل ، وعندما رحت أصف ما سمعته من أشقائى ، تمهلت قليلا . . ذلك أننى أتوقف لأول مرة أمام حقيقة كنت أعيها فى جملتها ، وليست فى تفصيلها ، أو لم أكن أدرى بالدقة توصيفها . دائما كنت أتمنى رحيلا سريعا مباغتا كما جرى لهما ، أخشى ما أرهبه العجز ، أن يصبح المرء عبئا على مَنْ يحبونه ويحبهم ، أليس من قبيل المأساة أن يجوب الإنسان الليالى والأيام ، يخوض الحروب ويواجه الجلادين ، وينتشى مع حالات العشق ، ثم ينتهى به الأمر إلى تمنى قضاء حاجته فى دورة المياه ، والذهاب ماشيا على قدميه فقط إلى الحمام ؟

لا . .

الإقلاع المباغت ، المفاجئ . رحمة ومِنَّة ، ولكَمْ توقفتُ فى تراجم الصوفية أمام وصف بعض حالات الموت التى عُدَّ بعضها من قبيل الكرامات ، مثل تمام الأمر أثناء الركوع للصلاة ، أو التنبؤ بلحظة إغماض العينين إلى الأبد ، كما حدث لوالد الشيخ الأكبر محيى الدين ، الذى أخبر ابنه بموته مسبقًا . على أى حال . . ليس لنا إلا التمنى ، فما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت! . قبل شهور فقط . . ربما لم أعرف بوجود ولاية اسمها أوهايو فى الولايات المتحدة ، ومدينة كليفلاند ، لم أسمع به إلا عند بدء تردده فى الصحف ، لذهاب بعض كبار المسئولين لإجراء جراحة فى القلب ، وقتئذ لم يكن الاسم يعنى بالنسبة لى شيئاً ، الآن . . يتقدر مصيرى فيه ، فى صميمه .

بعد وصفى الدقيق للطبيبة الأمريكية الحسناء ، الشابة ، أدركت أن أمى وأبى توفيا نتيجة أزمتين قلبيتين ، كيف ؟ هذا ما لن أعرفه أبدًا . العجيب أن توقفى عند هذه الحقيقة استولى عَلَيَّ ، حتى بلغتُ درجة الانشغال عن حالى .

الطبيبة الأمريكية لا يبدو على وجهها أى تعبير . إنها نائبة الدكتور مهدى رزاقى الإيرانى الأصل ، الذى سألتقى به بعد قليل . لابد أنها أعدت تقريراً وافياً ، لابد أنه اطلع عليه ، وبالتأكيد استعرض فيلم القسطرة الذى حملته فى حقيبة صغيرة لم تفارق يدى منذ خروجى من البيت ، ومفارقة الوطن . حقيبة تحوى سائر التقارير ونتائج الفحوص التى أجريتها فى مصر.

لم يكن فى الصالة الأنيقة الأصغر مساحة إلا عددٌ محدود ، عكس الحال عندما جئنا فى الصباح . نودى علينا ، تَبِعْنَا الممرضة إلى حجرة تتكون من

جزءين ، أمامى ، ويحتوى على مكتب وعدة مقاعد ، وداخلى حيث لمحت سريراً مماثلا لذلك الموجود فى الحجرة التى التقيت فيها بالنائبة الحسناء . جلسنا نتبادل النظر ، وأحاديث عابرة ، وأشارت نانسى إلى ناصية الممر عندما ارتفع صوت يحاور آخرين .

« هـو . . »

عدة حجرات متجاورة ، كل منها معد للكشف ، لحظات تفيض بترقب وتوقع غامض ، لكل حركه وقع ، ولكل صوت صدى فى النفس . إنه الطبيب الذى سيفحص ، ويصمت عندما ينظر ، ويسأل عندما يفرغ ، ويقدر . .

« السلام عليكم . . »

بالعربية المثقلة ،

هاأنذا فى مواجهته . فى الصباح لمحته يعبر الصالة . نَبَّهَتْنَا إليه نانسى . إنه متوسط القامة ، أسمر ، ملامحه عربية ، دماغه ضخم بالنسبة لجسده ، يرتدى معطفا أبيض ، نقش عليه اسم المستشفى ، وعلق بطاقة عليها اسمه ومنصبه ، إنه المسئول عن القسم الدولى أيضا ، السماعة لا تفارقه ، من جيب المعطف أطلت مجموعة من الأقلام الثمينة ، وحول معصمه ساعة رولكس ، لم أر مثيلا لها فى الساعات التى تهدى عادة من أمراء الخليج وأثريائه إلى الصحفيين . ضخمة ، صُفْرَةُ ذَهَبِهَا ملفتة للنظر . إنه الطبيب الخاص لعديد من الشخصيات البارزة فى الخليج والعالم العربى . بدا هادئاً، مرحاً إلى حد ما، كأنه يلتقى بأول مرضاه ، مع أننى علمت فيما بعد أنه بدأ يومه منذ الخامسة والنصف صباحا ، كان هادئاً ، وكأنه سيمضى بصحبتى ثلاث أو أربع ساعات .

قرأ أوراقًا ، ثم قدمت إليه نسخة من كتابى « الزينى بركات » المترجم إلى الإنجليزية ، وشريطًا مسجل عليه موسيقى صوفية ، وأشعار صوفية بالفارسية ملحنة . كنت قد اصطحبت معى مجموعة من الشرائط ، بينها خمسة للموسيقى الإيرانية والأغانى المؤثرة التى أعشقها . بالطبع كنت أسعى إلى الأُلْفَة ، وإزالة المسافة الفاصلة . قبل أن أتمدد فوق السرير سألته :

« فى أى مدينة وُلِدْتَ ؟ »

قال :

« أصفهان . . »

إذن . . أمضى طفولته وشبابه فى إيران . قلت له : إننى طالعت كتابا عن مسجد أصفهان الكبير ، ويتضمن صوراً رائعة له . هز رأسه بثقة وتأنٍّ :

« إنه مسجد عظيم بالفعل . . »

أصغى إلى دقات قلبى ، سألنى عن بداية الألم ، وعن اكتشافى ضيق الصمام الميترالى ، كلها أسئلة وَجَّهَتْهَا إلىّ نائبته فى الصباح . ثمة شىء فى نبراته جعلنى أنتبه . . استفسرت منه . .

« هل سأقابل الدكتور كوسيجروف قبل إجراء الجراحة غداً ؟ »

أشار إلى الخارج قائلا :

« سنتحدث فى ذلك . . »

عندما ارتديت ملابسى ، تذكرت الطبيب البيطرى الذى التقينا به عند مدخل بيت الضيافة لحظة وصولنا ، وما أفضى به إلينا عن تأجيل العملية

ستة أشهر ، واستدعيت إلى الذهن سؤالاً وُجه من محررة بمجلة نصف الدنيا إلى الدكتور رزاقى والدكتور فوزى اسطفانوس عن السبب فى إلغاء العديد من العمليات التى كانت مقررة لمصريين سافروا إلى كليفلاند .

كنت مواجهاً بوضع جديد يحيد بى عن الخطة تماما ، ويقلب أوضاعى رأسا على عقب . لحظة خروجى من الحجرة الداخلية قلت بالعربية مخاطبًا ماجدة :

« يبدو أن العملية ستتأجل أو . . تلغى »

بدت دهشة على وجه ماجدة ، وملامح نانسى . أمسك الدكتور رزاقى بالقلم ، بهدوء شديد ، راح يشرح الموقف على رسم يوضح شرايين القلب وصماماته .

قال انه رأى الفيلم الذى التقط أثناء عملية القسطرة فى القاهرة ، وأنه يختلف مع تقديرات الدكتور جلال السعيد . إن ضيق الشرايين أقل مما قُدّرِ فى القاهرة ، طبقا لما رآه . . فإن الشريان الأمامى به منطقتان نسبة الضيق فيهما ستين فى المائة ، بينما تقدير الدكتور جلال تسعين فى المائة لكليهما ، أما الضيق فى الشريان الخلفى ، فنسبته ستين فى المائة أيضا ، وليس ثمانين . بالنسبة للصمام الميترالى ، فثمة ضيق به ، لكن هذا الضيق موجود منذ حوالى أربعين عاماً ، بعد الإصابة بالحمى الروماتيزمية . نموه متوسط .

صَمَتَ لحيظات ، أمسكت خلالها أنفاسى . استأنف قائلا :

« إننا لا نقدم على العملية الجراحية ، إلا إذا كان الضيق فى الشرايين سبعين فى المائة على الأقل . . »

أشرت إلى صدرى :

« لكن هذه الآلام المتوالية . . »

سألنى :

« أى أدوية تتناولها لوقفها ؟ »

« دينترا . . أقراص دينترا .

قلت :

« لكنها تسبب لى صداعاً مؤلماً . . »

هز رأسه :

« نعم . . إنها تسبب صداعاً . . »

قلت راجياً :

« تذكر يا دكتور أننى جئت من قارة أخرى ، وبلد بعيد ، وسيكون من الصعب جداً حضورى مرة أخرى . . »

هز رأسه :

« أفهم . . أفهم . . »

استأنفت :

« وعدم إجرائى العملية . . »

رفع أصبعه ، متطلعا من تحت نظارة القراءة . . »

« أنا لم أقل أننا لن نجرى العملية . . »

قال أن اختباراً سيجرى صباح الغد لاستكشاف حالة الشرايين ، ونتيجة هذا الاختبار الذى سيتم بواسطة تصوير الشرايين بالصدى أثناء المجهود ـ

وذكر شيئا عن جهاز حديث جداً ـ نتيجته سوف تحدد الموقف . . إجراء العملية أم لا. وبناء على الوضع الجديد ، فموعد الغد أصبح ملغيا . .

خرجنا من الغرفة إلى صالة الانتظار ، إلى المصعد ، إلى خارج المبنى ، قالت نانسى مرافقتنا : إن إلغاء إجراء العملية لا يدعو إلى هذا الضيق كله . إن فتح الصدر أمر ليس بالسهل .

شكرتها على اهتمامها الحقيقى ، ورِفْقَتِهَا طوال اليوم ، وما بَذَلَتْهُ من أجلنا . لم أكن بقادر على شرح ما عندى ، غير أن ماجدة كانت تفهم عنى، وصولنا إلى كليفلاند ليس سهلاً . إعداد طويل ، وأيام صعبة اجتزناها للوصول إلى هذه النقطة ، تلك اللحظة ، ليس من ناحية الإجراءات المادية فقط ، مثل الجهد الذى تم لاستصدار قرار العلاج ، وتَدَخُّل شخصيات عديدة على مستويات مختلفة ، وتَرَقُّب الأحباب والأصدقاء لما سيجرى . كان محمد ابنى فى القاهرة يعيش مع شقيقته وفقا لتوقيت كليفلاند ، يحصيان ما تبقى على لحظة دخولى غرفة العمليات . وكان الحنو الذى يفيض عبر صوت شقيقى إسماعيل يدفع بى إلى حد الحزن على البعد والضعف وما أتانى عبر توالى الأيام . أما صاحبى عزت القمحاوى ، فَأَعَدَّ نفسه لانتظار طويل ، يستمر طوال ليلة الغد . أقسم أنه لن يفارق دار أخبار اليوم حتى وقوفه على أحوالى وخروجى من غرفة العمليات . وكان الشاعر نعيم صبرى يستخدم خط الهاتف الدولى فى منزله بمهارة وخبرة ، فقد أجرى من قبل عمليتين للقلب فى مستشفى هيوستون بولاية تكساس ، وكان يتابع تحركاتى بدقة لِيُطْلِعَ أستاذى وشيخى نجيب محفوظ على أخبارى .

اضطربت أمورى ، واهتزت الأحوال التى اجتزتها واحداً بعد الآخر.

كنت متعايشا مع التسليم ، دانيا من الاقتناع بقطع الرجاء حتى لا يرهقنى الأمل ويبدد ما تحقق من سكينتى . كنت أدنو من السكينة التى تنعدم فيها كافة المقاييس والأبعاد . هذا شعور بالراحة يأتى من بعيد ، بل ثمة فرح خفى بدأ يلوح لأننى لن أَلِجَ غرفة العمليات ، ولن أَمُرَّ بتجربة الغياب عن الوعى التى كنت أتطلع إليها ، باعتبارها أصعب المراحل ، فالغياب بالوعى كريه ، ممقوت عندى .

رحت أُنَاقِشُ الوضع مع ماجدة من جوانبه المختلفة ، وكان رأيها أن ما يعنينا قرار الطبيب ، وإذا كان الموقف لا يستدعى العملية ، فلماذا المخاطرة إذن ؟ ، ثم قالت : إنها إرادة الله ، ويجب أن نمتثل لها .

أجريت اتصالين ، الأول بالدكتور فوزى اسطفانوس ، لم يكن الأمر مفاجئاً بالنسبة له ، إذ كان على صلة مستمرة بالدكتور مهدى رزاقى ، لأنه قرر أن يقوم بتخديرى فى حالة إجراء العملية . قلت أننى لا أدرى جدوى هذا الاختبار الذى سيجرى غداً ، كنت أظن أن القسطرة هى المرحلة النهائية فى الوقوف على حالة القلب . قالت الدكتور فوزى أنه يُقَدِّر الموقف ، ولكن لابد أنه يريد التأكد من أمور معينة .

الاتصال الثانى بمساعد المستشار الطبى أحمد كمال فى واشنطن ، رغم وقوفه على خطوات حركتى أولا بأول ، إلا أنه شُغِل فى هذا اليوم . حاول أن يستوعب ما أقول ، ما جرى ، قال : « إن دور الطبيب المعالج والكارديولوجى محدود » . وربما كان ذلك نوعًا من الرغبة فى إثبات الدور. صحيح أن الدكتور رزاقى طبيب كبير جداً ، لكنه ليس نبيًّا ، ربما كان تقديره للموقف خاطئ .

« يعنى أروح أنا ضحية لهذا التقدير . . »

هنا قال أحمد كمال :

« وربما كان التقدير من القاهرة مبالغاً فيه . . »

ثم قص عليّ واقعة حضور أستاذ جامعى العام الماضى بقرار علاج مماثل على نفقة الدولة ، ثم اتضح أن مَنْ كتب التقرير الذى صدر على أساسه قرار السفر ، كان مبالغا فى تقدير الحالة .

لم يَخْفَ قَصْدُ أحمد كمال ، بل إن ما قاله مجرد عينة لما سيتردد هنا أو هناك . قرب نهاية حديثنا ، قال أحمد كمال أن تقديره . . لن تكون هناك عملية .

لكَنْ أصغيتُ إلى تفاصيل عديدة عن استغلال قرارات العلاج فى الخارج على حساب الدولة ، حتى إن بعض كبار المسئولين يجيئون إلى الولايات المتحدة لإجراء القسطرة ، وهناك من يسافر بشكل دورى ، معذور أحمد كمال ، فمثله يعمل فى موقع يتيح له أن يرى ، وأن يتابع ، وأن يصمت . أدركت المسكوت عنه فى حديثه إلىّ ، ما مضمونه أننى صحفى ، رئيس لتحرير جريدة أسبوعية ، ومثل هذه الشروط تضع احتمالاً للمجاملة فى قرار السفر ، هذا ما سيقابل به البعض قرار العودة بدون إجراء جراحة . مَنْ سيفهم أننى كارِه ـ منذ البداية ـ للسفر ، وأننى ذهبت بالفعل إلى مركز القاهرة للقسطرة ، كى أجرى عملية توسيع الصمام الميترالى بالبالون ، رغم نصيحة أطباء أصدقاء بإجرائها خارج مصر ، بل تطوع أحدهم ، وهو طبيب استشارى كبير للقلب ، يَمُتُّ بصلة قرابة إلى صديق عزيز ، كتب بالفعل تقريرًا ينصح بإجراء التوسيع بالبالون فى إحدى المستشفيات الطبية الفرنسية ، غير أننى لم أمض خطوة واحدة فى هذا الاتجاه ، ولكن لم تتم العملية بسبب ما اتضح من ضيق الشرايين ، وقرار الدكتور جلال السعيد ،

واختياره الجراح ، الدكتور كوسيجروف أعظم متخصص فى الصمامات الآن فى العالم .

تداعيات كثيرة ، غير أننى لم أكن أفكر كثيرا فيها سيقوله الناس ، لم أخضع لهذا المنطق ، الذى طالما سخرت منه ، وطالما أفسد حياة كثيرين، أعنى تلك الجملة « الناس حيقولوا إيه . . ؟ »

ما يعنينى الآن . . أحوالى من كافة جوانبها ، ليس الألم فقط ، الذى تزايدت حدة موجاته المباغتة خلال الأيام الأخيرة ، والمراحل التى قطعتها داخلى ، حتى وصولى إلى لحظة ، صِرْتُ فيها قاب قوسين أو أدنى .

إنها أسوأ ليلة مرت علىّ فى كليفلاند منذ وصولى ، من قبل ومن بعد، قبل نومى ، وما بين اليقظة وبدء الإغفاءة ، خفق قلبى عندما طالعتنى ملامح محبوبة لى ، هِمْتُ بها زمناً فى ديار غربة . كنت أجلس فى ميدان يتوسط مبانى مرتفعة ، أنتظر صعودى إلى طابق حددته بدقة ، وانتقلت إلى فراغ معلق يفيض بملامحها الطقوسية ، ولم تفد على ذاكرتى طوال الأيام الماضية ، لا هِىَ ، ولا أى معشوقة هِمْتُ بها زمناً على امتداد أيامى، وأدركت فى لحظة إفاقتى أنَّ تَجَدُّدَ الرجاء يفسح الرقعة ، ويمدد الأفق ، لاغياً الحصر .

ألـــــم

الثلاثاء .

التاسع من يوليو ، نهار أعددتُ له ومَهَّدْتُ ، غير أنه حَادَ عن الخطة ، وانقطع عن الصلة . أرقب الضوء الخارجى المنبعث من الفرجات النحيلة التى لم تحجبها الستائر .

أحتفظ دائما بالساعة فى متناولى ، وكوب ماء ممتلئ ، بذلك يهدأ حالى ، ويمكن لى مفاوضة الوَسَن .

السادسة صباحاً .

اتسعت القطيعة مع الحالى الذى سعيتُ إليه وسعى إلىّ . لم يتساو عندى الأمر . أليس من الأفضل ألا يخاطر المرء بنفسه ؟ إنما سعيت إلى الجراحة ، دَرْءًا لآلام وعرة ، وأخطار متوقعة ، لكن . . . إذا رأى الطبيب إمكانية المعايشة والمواءمة ، أليس ذلك أفضل ؟ .

السابعة يرن جرس الهاتف

الثانية ظهراً فى القاهرة الآن .

لم يكن الدكتور فوزى فهمى كما توقعت . فى مثل هذه الساعة يبدأ رنين

القاهرة . ومنذ وصولنا . . اعتدنا أن نتلقى أول هاتف من الدكتور فوزى فهمى الصديق العزيز ، ورئيس أكاديمية الفنون . كان يبدأ حديثه مداعباً :

« أنا المسحراتى . . »

جاءنى صوت صاحبنا نعيم صبرى

« أقول صباح الخير ، أَمْ مساؤه . . ؟ »

« لا . . مساء الخير . . أنا الآن فى القاهرة »

بدا نعيم متعجباً ، وهو يسأل :

« سألت عنك فى المستشفى ، لكنهم أخبرونى

أن اسمك لم يدرج على الحاسب الآلى . . »

لابد أنه لحظ الحيرة فى صوتى ، تساءل . .

« لماذا ؟ ما سبب التأجيل ؟؟ »

قلت : إنه فيما يبدو لى . . خلاف فى قراءة نتائج القسطرة ، وبعد ساعتين سأجرى اختباراً حاسمًا ، فإما إجراء عملية ، أو . . لا عملية .

« إن هذا مقلق . . لكننى سأبلغ الأستاذ نجيب محفوظ ، لأنه قلق جداً ، وسأتابع الموقف من ناحيتى . . »

رنين تال ، بدا صوت عزت متأثراً ، وهو يصغى إلى ما أقول . قال بعض كلمات التشجيع ، ثم تحول الخط إلى البيت . كان عمال التحويلة فى دار أخبار اليوم - وتربطنى بهم صلة طيبة ، وطيدة - يحرصون على الاتصال

بالأولاد عبر المكالمة ، ولَكَمْ خفف عنا ذلك . بدا صوت محمد هادئًا ، متزنا ، وهو يطلب منى أن أتبع ما يقرره الطبيب ، ثم قال :

« عندك ما بيلعبوش يا بابا . . »

قالت ماجدة أنها تتمنى ألا تتم العملية . إنها مخاطرة بالتأكيد ، لكن لن نغادر كليفلاند قبل أن يصف لنا خطة علاجية ، الألم حقيقى ، وضيق الصمام قديم . إذا لم تُجْرَ العملية ، فماذا عن البديل ؟

الثلاثاء التاسع من يوليو

لا يذكِّرنى اليوم بشىء محدد ، لا من ناحية الثلاثاء ، ولا من ناحية يوليو. يذكرنى الثلاثاء بيوم دراسى طويل ، يعقب الاثنين المبهج ، البهيج ، لكن اختص الثلاثاء بلقائنا مع الأستاذ نجيب محفوظ . فى مثل هذا الوقت الأسبوع الماضى كنت أتأهب لزيارته ، متحسباً للحظة الفراق . وخلال جلستنا قلت مبتسما :

« فى مثل هذا الوقت الأسبوع القادم سيكون الشغل عمالاً فى . . »

لابد أنهم يتأهبون الآن للذهاب إلى العوامة التى نلتقى فيها ، « فرح بوت» وسيكون موضوع الحديث الليلة ما ينقله إليهم نعيم صبرى بعد مُهَاتَفَتى . اتصلت بنا مرافقتنا ، قالت أنها ستنتظرنا أمام مدخل الـ-G16 . بعد أن عبرنا الطريق دخلت إلى المبنى (H) . توافدت علىّ صورة طبيبة أو ممرضة ترتدى الرداء الخاص بالعمليات ـ الأزرق الفاتح ـ أثناء مرورنا أمس بالممر الذى تطل عليه الأبواب المصمتة المؤدية إلى غرف العمليات ، فُتِحَ أحدها فجأة ، واندفعت بخطى سريعة ، وجلة ، تعكس اضطراب . . أو هكذا خُيِّلَ إلَىَّ . ربما كانت بصدد إنجاز مهمة عاجلة تتصل بحياة إنسان يتمدد موثقاً داخل غرفة العمليات .

من هو ؟

ماذا يعانى ؟

أتطلع إلى المبنى ، كان المفروض أننى راقد الآن تحت العيون الفاحصة ، والأيدى المعالجة ، لا أعرف شيئا عن التوقيت الذى كان مفروضا أن تُجرى فيه العملية ، لكنهم يبدأون عند الخامسة فجراً .

ندخل مباشرة إلى قسم التصوير بالمجهود ، هكذا أطلقت عليه ، لكننى لا أعرف اسم الجهاز بالضبط ، والحقيقة أنه ليس جهازاً واحداً ، بل عدة أجهزة متصلة ببعضها .

تمددت فوق منضدة تتوسط المسافة بين جهاز داخله ثلاث شاشات فوق بعضها ، سوداء ، تبدو الخطوط من خلالها بلون أخضر ، فى الجهة الأخرى آلة المشى ، حيث سير من الجلد ، لكنها لا تشبه تلك التى رأيتها فى عيادات الأطباء . تبدو أكثر تعقيداً ، وتتصل بشاشات أخرى لأجهزة طبية فى المواجهة ، ثمة أجهزة أخرى ، بعضها يشبه المذياع ، والآخر الأجهزة المصاحبة لمكبرات الصوت التى رأيتها فى الأفراح والمآتم . مؤشرات ، وخطوط متعرجة ، وأخرى بيانية .

لا شىء آخر فى الغرفة ، إلا تلك المعدات المتصلة ببعضها . بجوار المنضدة جهاز يشبه ما رقدتُ أمامه من قبل ، الخاص بالموجات الصوتية ، غير أن هذا بدا أعقد ، عدد الأزرار أكثر . وكان متصلا به جهاز آخر لم أر له مثيلا .

عَرَّيْتُ نصفى العلوى . اعتدتُ تلك الرقدة ، والاستسلام ، والامتثال التام لتعليمات الطبيب ، قامت الممرضة أو الطبيبة ـ لا أدرى ـ بتوصيل عدد

كبير من الأسلاك بصدرى ، متصلة بالجهاز . مرة أخرى أصغى إلى أصوات الدم فى غرف قلبى ، وعبر صماماته وشراييته . حاولت أن أعلق ببضع كلمات ، غير أن الممرضة الجميلة ، الشقراء ، بدت صارمة الملامح ، كذلك زميلتها التى لزمت موقعها أمام الشاشات الإلكترونية . ما مِنْ مداعبة أحدثت رَدَّ فعل . وعندما طَلَبَتْ مِنِّى أن أرقد على جانبى الأيسر ، لاح النذير . .

تلك النقطة التى يصعب علىّ تحديدها أو تعيينها ، يصعب رصدها فى موضع بعينه ، أو لحظة ما ، منها يبدأ الألم الغريب ، الوافد الثقيل ، بدأ يتزايد ، مصحوبا بما يشبه القرقرة فى منطقة ما من الصدر ناحية القلب .

« قُم الآن ، وقِفْ على الجهاز . . »

أَشَرْتُ إلى صدرى ، إلى الألم المتصاعد . . لكنها راحت توضح لى كيفية الوقوف على الجهاز . كانت تقوم بتوصيل أسلاك أخرى . ضممت شَفَتى ، وقفت منفذاً تعليماتها بالحرف ، الإمساك بِجَانِبَى الجهاز ، وَضْع القدمين خارج السير الجلدى العريض ، بمجرد ضَغْطِهَا الزر ، وبَدْء حركة السير ، أضع القدم اليمنى ثم اليسرى ، وأقوم بحركة المشى ، إلى أنِ يبدأ التعب ، فانتقل على الفور إلى المنضدة المستطيلة . .

« بأسرع ما يمكن . . »

« حاضر »

كان الألم يتصاعد زاحفا ، ثقيلا ، غتيتاً ، غير أننى غالبت نفسى ، متخذاً الوضع المطلوب .

ضغطت الزر ، بدأ هدير الجهاز ، وضعت القدم اليمنى فوق السير

المتحرك ، ثم اليسرى ، خطوة ، خطوة أخرى ، اندلع فى كتفى وصدرى حريق ، شىء ما غشيم عكم أنفاسى . مِلْتُ إلى الأمام ، ولسانى مُتَدَلٍّ ، سارعت بإيقاف الجهاز ، فى أقل من الثانية تمددت فوق المنضدة .

« آه . . آه »

آه حقيقية ، لا يضطر إلى إطلاقها الرجل الصعيدى إلا إذا ناء بالحمل ، وبرك مثل الجمل الكسير ، قليل الحظ . راحت الممرضة تحرك القبضة الصغيرة فوق صدرى المبطن بالشوك . فى هذه اللحظة ، ظهر ثلاثة أطباء ، أحدهم أسيوى الملامح ، كانوا يتابعون الموقف من خلال الحجرة المجاورة ، وهم جالسون فى مواجهة شاشات أخرى متصلة بقلبى ، الذى أصبح مجرد رموز خضراء ، خطوط ، أرقام ، رموز لا أفهمها . ومهما سألت ، لن يجيبنى أحد .

تراجع الدكتور مهدى رزافى إلى الوراء قليلا ، قال :

« نحتاج إلى إجراء جراحة . . »

قبل أن ألفظ كلمة واحدة ، تابع :

« نتيجة الاختبار إيجابية . . »

مال إلى الأمام ، ملوحاً بأصبعه :

« تقدير الدكتور جلال السعيد أدق . . »

تطلعتُ إليه باحترام . أَكْبَرْتُ فيه تواضع العلماء ، وقدرتهم على النطق بالخطأ إذا وقع ، حِدْتُ بالحوار إلى ما كان يشغلنى

« المهم الآن الموعد الجديد للعملية . . ما أعرفه أن الدكتور كوسيجروف لن يكون هنا ، بدءا من الخامس عشر . . سيقوم بإجازة . . »

أشار بيده مُطَمْئِنًا :

« سأتولى كل شىء . . »

ثم قال :

سأخبرك الليلة بالموعد الجديد . . »

ثمة وُدّ اتصل بيننا ، خاصة أن الرجل أدرك معايشتى للثقافة الفارسية ، من خلال حديثى معه عن بهزاد المصور ، وحافظ الشيرازى الذى أحفظ عددا من غزلياته ، وسعدى ، وعبد الرحمن جامى ، وسجاد شيراز وكرمان وقم وغناء مهستى التى تنفذ إلى روحى ، رغم أننى لا أفهم الكلمات ، لكننى أستشعر المعنى .

لأيامى علامات ، منها الغناء . صباى يرتبط بصوت ليلى مراد ، وأغانى الظهيرة ، عندما كنت ألعب فى الحارة ، قبل نشرة أخبار الثانية والنصف يتردد صوتها فى الحارة عبر المذياع الوحيد الذى كانت تمتلكه جارتنا روحية .

« أكتب لك جوابات

واستنى ترد علىّ . . . »

أو

« الحب جميل للى عايش فيه . . »

أو

« مين يشترى الورد منى

وانا بانادى وأغنى . . »

أيضا أغنيات محمد عبد الوهاب « افتكرنى » ، « جبل التوباد »

« عشان الشوك اللى فى الورد

باحب الورد . . »

وغيرها من أغانى تلك المرحلة . أما أم كلثوم ، فلها بدايات النهار ، ومرحلة التفتح ، واجتياز ميدان الحسين إلى العالم الفسيح .

« يا صباح الخير ياللى معانا . . »

أو

« شوف الزهور واتعلم . .

بين الحبايب تعرف تتكلم . . . »

أما مرحلة غربتى فى المنيا عام خمسة وستين ، فلم أكن أتحمل سماع أغنية عبد الوهاب

« يا ترى يا نسمة حتقولى إيه . . »

حروب مصر ، ترتبط عندى بأناشيد أم كلثوم « ثوار » « أنا النيل مقبرة للغزاة » و « الله أكبر » للمجموعة ، و « أخى جاوز الظالمون المدى» لمحمد عبد الوهاب ، و « مصر نَادَتْنا فَلَبَّيْنَا نِدَّهَـا »

مع بدء الأسفار ، تعرفت إلى صباح فخرى ، إلى صوته الجميل ، إلى يوسف عمر ، ومحمد القبنجى ، وناظم الغزالى ، إلى محمد باجدوب المغربى ، وخميس ترنان التونسى وصبرى مدلل السورى .

أفيض بالأنغام التى تميل إلى الأزمنة البائدة ، وتبث الشجن . هكذا جُلْت . للموسيقى الإيرانية موقع عظيم فى نفسى . وعندما علم صديقى عزت القمحاوى أن الطبيب إيرانى ؛ أهدانى خمسة شرائط ، سمعت

أحدها ؛ فأصبح علامة على الرحلة ، ونصب للفترة ، مطربة اسمها مهستى ، أما الشريط نفسه ، فاسمه « مسافر » . صديقى الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا ، أستاذ الأدب الفارسى فى جامعة القاهرة ، ترجم لى بعضا من أبيات إحدى الأغنيات . تقول :

أنا راضية بوحدتى وحزنى

فامنحنى يا إلهى الرجاء

ارتعش قلبى

إلهى يدى متشبثة بك

فخذ يا إلهى بيدى

إلهى قضيت وقتى فى عشقك

يا إلهى امنحنى حبا

يختلف عن كل حب ...

كنت أجلس فى حجرتنا بمواجهة النافذة الطولية ، أتطلع إلى البيوت الكابية ، وموقف انتظار العربات ، والسماء البعيدة ، وأصغى إليها ، فأوشك على البكاء ، غير أننى أحوش دمعى ، ذلك أن الحال الذى خرجت عليه من بيتى لا يساعد على ذرف الدمع ، إنما يمسك بالشجن . تستقر الأنغام والنبرات داخلى بحيث تعاودنى فى بعد ان سماع ، بدون إصغاء إلى اللحن مباشرة . بعد خروجنا من حجرة الدكتور رزاقى ، تصاعدَ داخلى صوت تلك المطربة الإيرانية الجميل . أصغيت إلى داخلى أثناء وقوفى أمام المصعد ، أخشى ما يواجهنى الآن ألا يسمح برنامج الدكتور كوسيجروف

بإجراء العملية قبل قيامه بالإجازة يوم الخامس عشر. إذن . . لابد من الانتظار أسبوعين ، حتى عودته ، لو أننى دخلت اليوم ، لو أن الأمور مضت طبقا للترتيب الأول ، غير أننى أرد على نفسى بعبارة كان يرددها والدى دائما عند اختلاف الأحوال :

« لا أحد يعرف أين الخير ؟ ! » .

وقفت أمام المصعد صامتاً ، أحاول أن أعيد ترتيب مكوناتى من جديد ، يد تلمس كتفى ، أَلْتَفِتُ ، الدكتور مهدى رزا فى بنفسه ، خرج مسرعاً ليلحق بنا . قال كلمة واحدة :

« الخميس . . »

النَّجْـم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

«والنَّجْمِ إذا هَـوَى

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَاغَوَى

وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى

إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ

عَلَّمَهُ شَـدِيدُ الْقُوَىٰ

ذُو مِـرَّة فاسْتَوَى

وهوِ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ

ثُمَّ دَنَـا فَتَدَلَّىٰ

فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ

فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ

ما كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ »

صدق الله العظيم .

أقرأ وأستمع ، أستمع وأقرأ، أقرأ الآية التى أحفظها عن ظهر قلب ، أرى مكوناتها من حروف وكلمات فى الفراغ الذى أطل عليه ، نابعة ، آتية من داخلى ، قادمة من أعماقى ، من نواة مركزى ، تَفِدُ عَلَيَّ هذه السورة الكريمة بغتة ، فَأَمْتَثِلُ لترتيلها النابع مِنِّى . أستمع أيضاً إلى صوت الشيخ محمد صديق المنشاوى عبر الجهاز الصغير الذى ألصقت سماعتيه بأذنى ، صاحبتُ نسخةً من المصحف المرتل بصوته كاملة . فى صوته أبعاد يصعب توصيفها ، صوت مصرى يختزل كافة المغارب الشتوية والصيفية والخريفية والنخيل والأشجار بكافة أنواعها ، وصمت الوادى ، ولواح الأيام النائية ، والأسرار المخفية .

أصغى وأطالع الحروف التى يصعب إدراكها بالنظر العادى ، حولى ومِنِّى ؛ فأستعيد ما كنت عليه من سكينة قبل القطع الذى حدث . كنت أَشْبَه بتلميذ خرج من بيته ليؤدى امتحانا ، أَعَدَّ له العُدَّةَ فترة طويلة ، حتى بلغ درجة التمكن ، وعند وصوله إلى المدرسة ؛ يُفَاجأُ بإلغائه تماماً لصدور قرار مفاجئ ؛ تنتابه مشاعر متناقضة ، فحسرة على ما بَذَلَهُ ، وفرح للإلغاء، فمهما بلغ المرء من قدرة على التحصيل والتمكن ، لا يمكنه أن يتنبأ بالمسار الذى ستمضى بموجبه الشئون .

« مَا زَاغَ البَصَرُ ومَا طَغَىٰ . . »

الخميس ، الحادى عشر ، بعد غد ، هذا أفضل ، عندى وقت ، أمامى فسحة يمكننى أن أطل خلالها على بعض من الدنيا ، وجانب من ذاتى ، الوقت محصور ، والمسافة محدودة ، يمكن أن نخرج معاً الليلة لتناول العشاء معاً ، نستعيد أيام الصفو . أعرف أنها تخفى أكثر مما تظهر ، ولست بالساعى إلى نكْأ جراح ، أو تفتيق مواجع ، إنما رغبت فى القربى ، فهذا

ظرف آت مُقَدَّر ، وسفر غامض ، وَطَّنْتُ النفسَ على ألاَّ يأس من الرجعى، وسَلَّمْتُ تسليماً بما سيكون ، فالصحبة لمن شاركتنى العمر ، والسعى إلى القربى مطلوبة . لا تمضى الأمور كما يرغب الإنسان ، حتى فى حدها البطىء ، الأدنى ، لا أرغب فى إبداء الوصايا ، أو التلميح إلى أمور عملية رتبت شئونها ، ولم أترك أدق التفاصيل سعياً إلى مساعدة من عالم إلى عالم . قوانين كل منهما مغايرة ، مختلفة ، ولكنها الرغبة فى تخفيف الثقل والأعباء عن الأحبة .

«أَمْ لِلْإِنْسَانِ ما تَمَنّى . .»

كنا نخشى الخروج بعد الثامنة ، أو التجوال حول المبنى ، الخطر قائم ، وحوادث القتل والسرقة والاغتصاب هنا لها الصدارة فى المعنى، لكن يمكن استدعاء عربة أجرة ، والعودة فى أخرى ، غير أننا عندما تهيأنا وعبرنا الممر إلى المصعد ، فوجئنا بالسيدة الأسوانية الشهمة ، الجدعة فى المصعد . إِسْتَفْسَرَتْ . . وأَفْضَيْنَا إليها بما جرى . قالت أن الخيرة فيما اختاره الله ، وأن هذا أفضل ، وخير البر عاجله ، وأن الوضع هكذا أفضل من آخرين يجيئون ويضطرون إلى الانتظار الطويل ، بالتأكيد هذا أحسن . فى الصالة كان الجمع مكتملاً ، إضافة إلى أستاذ جامعى بكلية هندسة عين شمس ، جاء إلى كليفلاند بدون مرافق ، بمفرده ، كان نحيلاً ، طويلاً ، بقدر حِدَّتِهِ البادية ، وملامحه الصارمة ، بقدر ما ينطوى عليه من رقة ولطف ودهشة ، كالأطفال أحياناً ، رغم صرامته . أثار وضعه تعاطفنا ، وعندما انتحى بى ركناً ، وهمس لى برقم هاتف بيته فى مصر ، تأثرتُ . . كان يوصينى بأخبار أسرته إذا جرى له شىء ، قلت له أننى سأجرى العملية غداً ، ولا أعرف شيئاً عما سيكون عليه الوضع . . ماجدة ستحتفظ برقم الهاتف ، عندئذ

قال أنه سيسلمها غداً مفتاح الخزينة الخاصة به فى الفندق ، تحوى جواز سفره ، ومبلغاً من المال ، وبطاقة الطائرة ، وخطابًا إلى زوجته فى مصر ، ما يرجوه توصيل «الأمانة» إلى أسرته فى القاهرة ، إذا وقع ما يخشاه !

« أَفَرَأَيْتَ الَّذِى تَوَلَّىٰ
وأَعْطَىٰ قليلاً وأَكْدَىٰ
أَعِندَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ »

طال علينا الوقت ، وامتدت الجلسة ، اتصل الحوار حول ظروف الجراحات ، وما جرى مع الأطباء ، وتطور الحالات ، وأحوال مصر، وأخبارها وشئونها . تقاعسنا عن الخروج . أمامنا يوم كامل غداً نقضيه فى الخارج، بدلاً من العشاء الليلة ، نتناول الغداء غداً فى المدينة . أما الآن ، فَلْنَعُدْ إلى الغرفة . نتصل بالأولاد فى القاهرة لنطمئنهم ونطمئن، نتفرج على التليفزيون بقنواته المختلفة ، خاصة العربية منها ، الفضائية المصرية ، قناة دبى الفضائية ، محطة عربية تبث إرسالها من نيويورك مستواها متواضع ، وبالطبع القنوات الأمريكية الأخرى ، صافحنا زملاء الإقامة ، هكذا يبدأ انصراف الجمع إلى أن يَنْفَضَّ . صعدنا إلى الطابق الرابع ، عندما دخلت لاحظت الضوء الصغير فى جهاز الهاتف يشير إلى وجود رسائل مسجلة ، ضغطته لأستمع إليها ، فوجئتُ بمن يتحدث الإنجليزية ، صوت قوى ، مرتفع ، سريع ، نذير ، النبأ العظيم ، الظهور الوشيك .

« أنا دكتور باتريك مساعد دكتور كوسيجروف . دكتور كوسيجروف اتصل . . إجراء الجراحة غداً الأربعاء ، بدلاً من الخميس

من فضلك اتصل بى على الهاتف رقم . . . أربعة ، أربعة ، أربعة . . . »

« ياه . . »

تضامت ملامح وجهى ، وتغير أفقى . تساءلت ماجدة جزعة . .

« الأولاد جرى لهم حاجة فى مصر . . ؟»

تطلعُت إليها لأقول باختصار

« لا . . العملية بكرة ، بدلاً من الخميس . . »

ضغطتُ أزرار التليفون ، طلبتُ توصيلى بالدكتور باتريك ، جاءنى صوته ، بدا أهدأ ، قال أنه يطلب منى البقاء فى الحجرة صباح الغد ، حتى اتصاله بى ، أو عن طريق نانسى داوود مرافقتنا ، قلت بهدوء أننى ماكِثٌ إلى جوار الهاتف ، وطلبت منه إبلاغ الدكتور كوسيجروف مودتى .

أسندت ذقنى إلى يدى مطرقاً . أحاول ولوج الظرف الجديد بقدم راسخة ، وتفكير هادئ ، أعود تدريجياً وعلى مهل إلىَّ ، أتطرق إلى تفاصيل عملية ، أسلكها ، أرتبها ، أحاول الاستغراق فيها ، تجنباً واستعداداً لتعديل أمرى .

كم الساعة الآن :

العاشرة والنصف . .

الوقت متأخر بالنسبة للحديث عبر الهاتف إلى الدكتور فوزى اسطفانوس ، لا أعرف فى أى ساعة يأوى فيها إلى الفراش ، بشكل عام . . لا أستريح إلى إزعاج أقرب الأصدقاء ليلاً ، فما البال بمن لم تتوثق علاقتى بهم بعد ؟ . أما الدكتور صبرى عوض الله ، فأخبرنى بسهره إلى ما بعد منتصف الليل . ولأن الرجل كان متابعاً لكافة التفاصيل خلال اليومين

الأخيرين ؛ جاءنى صوته الهادئ، عبر الليل ، قلت : إن الدكتور فوزى لايعرف ، قال : لا تقلق . سيبلغونه .

حسناً . . لم نتناول العشاء ، يطلبون الامتناع عن الطعام منذ منتصف الليل . أكلت الظهر فى الثانية ، هذا أفضل ، إخلاء المعدة بقدر الإمكان ، قمت إلى الحمام ، فتحت علبة الصابون الطبى المطهر السائل ، نصفها استخدمه الآن ، النصف الآخر فى الصباح ، وقفت تحت الدش الدافئ مدة طويلة ، دعكت جسدى جيداً بالسائل الأحمر الفاتح ، رائحته لم أعرفها من قبل ، لم تذكرنى بشىء محدد ، رغم أن الروائح عامة من أكثر العناصر استثارة لكوامن ذاكرتى . أغسل نفسى بنفسى ، أعد للأمر عدته بيدى . عندما عدت إلى الحجرة ، كنت أستعيد ما توصلت إليه ، ما كان عليه الوضع قبل قرار الدكتور رزاقى بتأجيل العملية ، وزاد على الأمر حال جديد ، كنت أستشعر دبيبه داخلى ، نفيت الجزع تماماً من لهجتى عند الحديث إلى ماجدة ، وتبادلنا حواراً هادئاً ، استعدنا خلالها بعضاً من لحظاتنا الماضية ، وعندما انفرد كل منا بنفسه بعد الجملة التقليدية .

« تصبحى على خير . . »

كنت أثق أنها لم تَغْفُ . تمددتُ مستلقياً على ظهرى ، وهذا وضع لم أعتد النوم معه ، لم أغمض عينى . كنت أحملق فى السقف خلال العتمة ، أخشى الضجة التى يثيرها بعض الشباب الخليجى فى الممر الخارجى ، وإغلاق أبواب حجراتهم بعنف ، وكنت أخاف ذلك القلق الذى يفاجئنى ليالى السفر ، أو الإقدام على حوادث مهمة . توتر يصاحبنى خلال السنوات الأخيرة ، وكثيراً ما أمضى الليل أرقا ، وإذا اقترب الفجر ، فإن اليأس يدركنى ، وأستيقظ تماماً . لم أرغب فى استخدام مهدئ فرنسى

الصنع ، نصحنى به صديق عزيز يعمل بالطب النفسى ، هو مصطفى صفوان نزيل باريس منذ عام خمسة وأربعين ، أى منذ العام الذى ولدت فيه . أستعيد درج السلم الخشبى العتيق المؤدى إلى شقته فى الطابق الرابع ، وتضم عيادته ومقر إقامته أيضاً ، تطل على شارع عتيق بالحى اللاتينى ، قريب من السين ، لا تتجاوز ذاكرتى درج السلم ، أنثنى بسرعة إلى القاهرة القديمة ، إلى تخيل الوضع الذى يتخذه الأقربون الآن . هذه اللحظة ، محمد ، ماجدة ، أشقائى إسماعيل ونوال وعلى ، امرأة خالى فى جهينة ، تلك النخلة التى أشار إليها أبى عندما كان يمسك يدى طفلاً ، ليقول لى أنها تخُصُّنا ، النخيل ، يهفهف ، يدوم ثبوت ، رسوخ ، أزلية بادية ، الساحة التى يطل عليها باب البيت الذى ولدت فيه ، ممر يفصل حارة سيدى معاز ، حيث يقيم صديقى حسن بكر ، أقدم صحبى منذ الطفولة ، وبين شارع كفر الطماعين ، ذلك الضريح عند الحارة الصغيرة ، أمر به منذ أربعين عاماً ، ولم أعرف اسم مَنْ يرقد به ، واجهة البيت الذى أقمنا به فى عطفة باجنيد ، حارة درب الطبلاوى .

عند الاقتراب من الخطوط الفاصلة ، من اللحظات الفاعلة ، يتمركز القَصِىُّ والقريب حول ما يتعلق بالذات . أغمض عينى ، أصغى إلى الليل وما سجى ، يبدأ الترتيل داخلى من جديد . عندما تستحيل رؤية الأشياء ؛ تحضر كلها . عند انتفاء العناصر ، تثبت راسخة . صعب فهم الصلات ، تبريرها ، أو شرح ما يبدو سهلاً . أى أضمومة يحتوى عليها المرء ، أو يحتويها .

« وَأَنْ لَيْسَ للإنسان إلا ما سعىٰ

وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ

ثُم يُجْزَاهُ الجزَاءَ الأَوْفَىٰ

وأَنَّ إلى رَبّكَ المُنْتَهَىٰ

وأَنَّهُ هو أَضْحَكَ وأَبْكَىٰ

وأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وأَحْيَا . . »

صدق الله العظيم

مَـــدَد ..

سُبَاتٌ هادىء ، غويط ، تدليت فيه ، لم أعرف مثيله ، مضيت عبره بيسر ، مخالفاً كافة توقعاتي ومخاوفى ، لم أستيقظ إلا مرة واحدة ، وسرعان ما استأنفت . بَدَا وسنى وافياً ، تاماً ، كنت أمضى محاذياً لى وغير منفصل عنى أيضاً ، كأنى أتأمل حالى بعينى ونظرى ، لكن . . من بعد قريب . عبثاً حاولت تذكر أحلامى ، اللحظات الآنية كثيفة ، قوية الحضور ، تلغى ما عداها ، الوقت المتاح جد قصير .

النهار فى بدايته ، الساعة السادسة صباحاً ، مازال أمامى متسع من الوقت، دكتور لوب وأطباء آخرون يبدأون إجراء العمليات فى الخامسة والنصف ، لكن مساعد الدكتور كوسيجروف حدد الاتصال ما بين العاشرة والحادية عشرة .

فى الحمام دعكت جسدى بالصابون السائل للمرة الثانية ، تعطرت بالعطر الخاص ، الذى يعده لى عم محمد النوبى فى سوق الحمزاوى ، الوقت الآن عنده يقترب من الثالثة بعد الظهر ، يجلس فى دكانه الصغير محاطا بالقوارير والأوانى الزجاجية الحافظة ، عطرى مزيج من عنبر وليمون وسوسن ، أضحك لمن يستفسر منى عن مصدره ، أقول هذا من الأسرار ، إنه «الغيطانى بارفيوم» . أبتسمُ عند عودتى إلى الغرفة .

هكذا واجهت ماجدة عندما أزحت الستارة الثقيلة الخضراء ، التى تحجب ضوء النهار . يبدو أنها استراحت لرؤية ملامحى الهادئة ، وحمدت الله عندما أصغت إلى حديثى عن نومى العميق ، قالت إن خشيت تقلبى وقلقى ، لكنها لم تغمض عينيها إلا بعد أن شعرت بانتظام أنفاسي نوماً ، لم تشأ الإفطار ، مشاركةً منها لصيامى ، غير أننى لم أفارق موضعى إلا عندما رشفت من كوب اللبن حسوات ، واكتفت بذلك . كان كل منا قريباً جداً من الآخر . لقد واجهنا ظروفاً عديدة عبر واحد وعشرين عاماً من الرفقة الحميمة . ومن الحظ الطيب أن تصحبنى فى تلك الساعات المعدودات . مع السابعة يبدأ رنين الهاتف . مكالمات الأصدقاء من مصر ، صديق وزميل دراسة لشقيقى إسماعيل ، طلبت منه إبلاغ أخى بإجراء العملية اليوم، والدعاء لى فى مسجد وضريح مولانا ، مولانا الحسين طبعاً ، أصغى زميلى وصاحبى عزت القمحاوى متأثراً ، وطمأننى على أوضاع العمل ، وحولنى زميلى عامل تحويلة أخبار اليوم إلى البيت . أَفْضَتْ ماجدة إلى ابننا بالخبر ، وطلبت منه ألا يخبر ابنتنا إلا بعد اتصال هاتفى ستقوم به ليلاً بتوقيت الولايات المتحدة لتطمئنه (أى صباح الخميس بتوقيت القاهرة) . احتويت كتبى المصفوفة فوق المنضدة ، وشرائط التسجيل ، لم أصحب معى إلا القرآن الكريم ، طبعة عتيقة ، متوسطة الحجم ، بخط الشيخ عبد العزيز الرفاعى ، مصحف جميل أصحبه دائماً معى .

خرجنا من الحجرة ، نزلنا إلى صالة الاستقبال ، أقبل علينا يوسف الليبى الأصل ، وجهه طيب ، هادئ .

« اليوم ؟»

امتد أصبعى إلى نقطة ما أمامنا

« الآن . . »

قال :

« بالسلامة . . »

بدا ودوداً ، وللود والمحنة فى تلك اللحيظات منزلة خاصة ، تُرَىٰ . . كم وَدَّعَ منذ أن بدأ عمله هنا ، وكم استقبل ؟ . لَوَّحَتْ لى موظفة الاستقبال التى تُضَفِّر شعرها على طريقة بعض القبائل الأفريقية ، ممشوقة ، لم أرها إلا باسمة . تخرج أحياناً لتدخن سيجارة أمام المبنى ، التدخين فى الداخل ممنوع .

فلأتملى وأتزود من ملامح البشر الذين تقع عيناى عليهم أثناء خَطْوِى هذا ، كل ما أراه يختزل عندى عشرات الملامح التى مررت بها من عشيرتى الإنسانية ، أُطِلُّ عَبْرهُم إلى مَنْ لا أقدر على إدراكهم الآن ، أَجْتَازُ الباب مرتديا قميصاً جديداً ، وبنطلونا من قطيفة ، وبلغة مغربية . . بدون جورب ، ليس بيدى سوى المصحف الشريف . كانت العربة البيضاء الصغيرة التى تمر بانتظام على مبانى المستشفى واقفة ، غير أننىَ أبديت الرغبة فى المضى سيراً على قدمى .

هكذا بدأ عبورى طريق ايوكلاند صوب المبنى (H) ، ثم الرصيف الذى تتخلله أحواض الزهور ، والحشائش المنمقة ، وبعض الدِّكَك المستطيلة ، كنت أَسْرِى ولا أخطو . تلك السكينة المتزايدة ، والاستكانة إلى كل ما يمكن أن يجرى الآن ، مع تدقيق فى زُرْقَة السماء الصفاء ، ولاحظت أنها دانية ، قريبة .

أسرى بكينونتى ، بأعوامى الواحدة والخمسين ، بلحظات الوجد ،

وساعاتِ الحنين ، وأوقات الفرح باكتمال الصحبة ، بالإقبال والإدبار ، بالوصول والسفر ، باجتياز العتبات والتِّيه فى الساحات ، بالنواصى التى حِذْتُ عندها ، وكل الطرق التى سلكتها ، المؤدية إلى تلك الأوقات ، والميادين والمدن الصغيرة ، والقرى الحميمة ، وأبراج الحمام ، وأسراب الطير المهاجرة ، ورفرفات الموسيقى الندية ، بكل من واجهت ، باللحظات الأولى لنداوة العشق ، وبدء طراوة المحبة ، بمراراتى وأحزانى المدرة لدمعى، واكتمال غربتى فى أوقات عسرة يصعب خوضى فى مسبباتها ، أو حتى الإشارة إلى بواعثها ، فَلَكَمْ كتمت ، ولكم حاولت التلويح والإشارة ، لكننى لم أصرح لأقرب الأقربين ، مع أن الأمر بسيط ، وكلمة حِنيَّة أو بَصَّة رقيقة ، أو إيماءة شفقية كانت كفيلة بتغيير الأمر كله . فات أوان المكاشفة، وما سَعْيى الآن إلا اكتمال لحظى أمضى بها وخلالها منذ سنوات ، ولَكَمْ تحددت مرثيات ذاتى ، وفاجأتنى لحظات اكتملت لى فيها رؤية العالم بعدى. غفوت . . ولكننى سرعان ما امتثلت ، انثنيت إلى سعيى هذا ، فلن يمضى وقت طويل ، فقط ساعة أو ساعتين إلا . . وتتساوى الأبعاد ، الطول بالعرض ، الفوق بالتحت ، يتصالح البعاد والقرب ، الذهاب والإياب ، فيصبح السفر وصولاً ، والمحط إقلاعاً . . لا فرق .

مع كل خطوة تنأى عنى حقبة ، وأدنو من مراحل وعرة عَلَىَّ ، مجهول أمرها ، يرتد وجودى إلى غير وجودى الذى كنت عليه قبل وفادتى إلى العالم، حقاً . . لَكَمْ أنهكتُ ذلك الماعون محدود الطاقة ، الذى يحوى مالا يمكن إدراكه منى ، وهاهى النتيجة ، والمحصلة . . . إننى متقبل، رَاضٍ، مكتمل تسليمى بما سيكون ، بل إننى متقبل لصيرورتى نحو مالا يكون ، أشبه بالمسافر الذى نوى وعقد العزم ، فخرج من موطنه لايحمل إلا تراثه

داخله ، ليس بيده من الأمر شىء ، قَطَعَ تذكرة ذات اتجاه واحد ، نَوَىٰ الإقامة فى المجهول ، عَقَدَ الجهد وأضمر النية ، فإذا طال الأمر ، هان عليه النَّأْىُ ، وإذا جاء الوقت بعودة ، فهذا فيض لم يعد له العدة ، وكرم المنة ، عندئذ ربما جاز له إعادة النظر فى ترتيب الأمر ، وتقليب الأحوال .

كل خروج لابد أن يعقبه دخول ، وإلا لَمَا جاز اعتباره خروجًا أصلاً . هكذا اجتزت المدخل الفسيح الأنيق لمبنى القلب (H) ، فى هذا المبنى سيتقرر أمرى ، فى موضع منه ، بأيدى مَنْ لم ألتق بهم ، ومن المقطوع به أننى لن أقابلهم أبداً . . فالمريض هنا لايعرف أولئك الذين شقوا صدره ، وحَوَّلُوا دورة دمائه إلى جهاز صناعى ، وراقبوا خفق مهجته ، وقاموا بالحرص كله عليه .

المصعد .

الطابق الخامس

لم يعد يعنينى الآن التدقيق فى الملامح ، أو التطلع بفضول إلى الجهة التى تقع فيها غرف العمليات ، بعد قليل سأصبح جزءا منها ، الطابق الخامس ناحية أعرفها ، حيث مكاتب وعيادات أطباء القلب ، ومكان الانتظار الذى مكثت فيه قبل لقائى بالدكتور رزافى ، وغرف الفحص .

تتقدمنا نانسى بحضورها المصرى المرح . هنا فى الجانب الآخر يجرى إعداد المرضى وتجهيزهم لغرف العمليات ، لا حجرات ، إنما المكان مقسم إلى خلوات صغيرة ، محاطة بستائر منقوشة بزخارف بيضاء وزرقاء ، تماما مثل مركز القاهرة الذى أجريت فيه القسطرة ، سرير مرتفع يتوسط المساحة ، ممرضة فى الثلاثينات باسمة ، تحمل أوراقاً ، أجيب على أسئلة

عديدة ، أَجَبْتُ عنها من قبل ، ثم تطلب منى خلع ملابسى ، وارتداء جورب سميك إلى حد ما ، وسترة مفتوحة من الخلف ، تُضَمّ برباط يَسْهُلُ فَكُّهُ . قبل أن أتم خلع ثيابى ، جاء رجل مصرى لم أره من قبل ، بدا ودوداً، مرحباً ، قال أنه من حلوان ، وأن شقيقه مُحَام يرقد هنا ، ويتم تجهيزه الآن . سيجرى له العملية الدكتور لوب . طلبتُ منه أن يسلم عليه. وبمجرد فراغى من ارتداء «المريلة» الزرقاء ، اتجهت إليه ، كان متمددًا ، مسنداً رأسه إلى ذراعيه . قام مصافحاً . قال أنه سيجرى تبديل ثلاثة شرايين ، واستئصال جزء من العضلة . فهمت أنه أعزب ، لم يتزوج ، وأن شقيقه يصاحبه كمرافق ، وأنهما جاءا على نفقتهما . لم يَمْضِ وقت طويل ، وجاء من يدفع سريراً متحركاً ذا عجلات ، انتقل إليه جارى فى حلوان . لوحت إليه ، ودعوت له . عدت إلى التمدد فوق السرير ، جاءت ماجدة بكيس من البلاستيك ، ملون ، مخصص لمتعلقات المرضى . وضعت فيه ثيابى والبلغة المغربية ، أما المحفظة فسلمتها إلى ماجدة . خلعت خاتم زواجى بصعوبة ، استقر مكانه منذ زواجنا فى ديسمبر عام خمسة وسبعين ، طلبتُ منها أن تضعه حول أصبعها ، حيث الخاتم الذى يحمل اسمى . عُدْتُ إلى الرقاد الحميم ، منتظراً الخطوة التالية ، وبين الحين والحين كنت أصغى إلى صوت العجلات الصغيرة للأَسِرَّةِ المتحركة ، تمضى بالمرضى إلى الطابق الثانى .

حوالى الواحدة جاءت الحلاّقة ، سألتنى عن اسمى ، وعن بلدى ، وعن أولادى ، وسألتها بالمثل ، قالت أنها من جامايكا أصلاً ، متزوجة من سائق يعمل بالمستشفى أيضاً ، هما جاءا إلى الولايات المتحدة منذ سبع سنوات فقط ، هى أُمّ لطفلين ، كلاهما فى المدرسة .

كانت بدينة ، حضورها أمومى ، شعرها جعد ، سواده غميق ، بشرتها أميل إلى البنى المحروق ، عكس بعض من أراهم هنا عميقى السواد ، أسود له لمعة جميلة ، وتفجر بالضوء الداخلى الأسطع من أى مصدر .

قالت أننى السابع الذى تقوم بالحلاقة له ، كلهم ذوو شعر كثيف . أرهقها ذلك كثيراً ، ضحكت ، بادلتها الابتسامة ، رحت أدقق ملامحها ، خاصة وجهها الطيب ، كل من أراه الآن أراقب من خلاله ملامح البشر كافة ، الذين عرفتهم ، وأولئك المجهولين لى . ربما يكون هذا الوجه الأفريقى الأصل أحد الوجوه الأخيرة .

صوت العجلات فى الممر ، يعنى أنهم جاءوا ليصحبوا مريضاً جديداً إلى غرفة العمليات . بعد أن فرغت الحلاقة الودودة انصرفت ، ساد صمت قبل أن أصغى إلى صوت خطوات سريعة نشطة ، متدفقة . أزيح الستار . . وفوجئت بالدكتور فوزى . بدا منفعلاً . .

« لماذا لم تبلغنى ليلاً ؟ » .

« ترددت أن أزعجك . . »

قال ، وهو يميل قليلاً إلى الأمام :

« هذا ما خمنته أيضاً . . لقد أبلغونى منذ ساعة . . »

أشار إلى القميص الأبيض ، والبنطلون الأبيض ، والحذاء الأبيض ، والمعطف الأبيض ، قال :

« هذه ملابس غرف العمليات . . »

إنها ملابس الأطباء الكبار ، بيضاء تماماً ، لكل مستوى هنا ملابس

معينة ، وألوان محددة ، كبار الممرضات يرتدين البياض ، الأقل يرتدين قميصاً أخضر وبنطلوناً أبيض ، أما الرجال الذين يقومون بنقل المرضى ، فقمصانهم بنفسجية ، النواب والمساعدون فى غرف العمليات لهم اللون السماوى ، لون أحبه ، بل إنه لونى المفضل ، غير أننى كنت أرهبه هنا ، أتطلع إلى من يرتدونه بفضول ، خاصة عندما ألتقى بهم فى الممرات أو المطعم ، أتساءل عمن يرقد فى انتظارهم . ما أنا الآن إلا واحد من أولئك الذين عبروا اللحظات الحرجة قبلى ، إننى الآن موضوع الموضوع الذى أثار فضولى .

قال الدكتور فوزى أنه سيلتقى بى فى غرفة التخدير ، بمجرد التجهيز بعد انتهاء العملية التى تجرى الآن . أومأت ، مجيئه سَرَّنِى ، وبث عندى ونسة ، غير أن رفرفة لم تطرأ علىّ ، ولم أعرف تبدلاً . كنت خطاً متساوياً ، بلا ارتفاع أو انخفاض ، بلا أبعاد ، كنت أتلملم متحوراً حول نقطة لا تُدْرَك ، ولا يمكن تعيينها . أصغيت إلى الهدوء الذى ساد القسم كله ، وأيقنت أننى بمفردى . تأكدت عندما اتخذت طريقى إلى دورة المياه لأتبول ، لإفراغ مثانتى تماماً ، هكذا يحدث عند نومى كل ليلة . كان الممر الخارجى بارداً ، ولم أكن أرتدى إلا هذا القميص المفتوح ، والجورب السميك أزرق اللون . عندما عدت إلى سريرى المؤقت ، فوجئت بشاب مصرى الملامح ، يرتدى ملابس غرف العمليات بما فيها غطاء الرأس الذى يشبه الطاقية الخفيفة ، بدت ماجدة منفعلة وهى تقدمه إلىّ :

« دكتور حمدى السيد من الزقازيق .. تصور أنه يعمل هنا فى التخدير . . »

كان يحمل ملفا ، ويمسك قلماً ، كان مكلفاً بتوجيه أسئلة اللحظات ما

قبل الأخيرة ، أسئلة سبق توجيه معظمها فى مراحل الفحص المختلفة . تذكرت حساسيتى تجاه مُرَكَّبَات السَّلْفَا . عندما ذكرتها له ؛ دَوَّنَ الملاحظة ، وتحدث فى الهاتف ، جاءت الممرضة لتحيط معصمى بسوار أحمر من البلاستيك ، يحذر من استخدام السلفا. وسوار آخر أبيض يحمل علامة المستشفى ، مكتوب عليه اسمى .

حمدى السيد من أسرة ريفية مكافحة ، رحلته إلى كليفلاند شاقة ، مرهقة ، بعد تخرجه عمل طبيباً للتخدير فى إحدى الدول النفطية ، ادخر مبلغاً من المال جاء به إلى الولايات المتحدة ليتم تعليمه ، وليبحث عن فرصة حياة أفضل ، هنا تعرف على « سارة» وتزوجها ، صحبها معه إلى الزقازيق ، وتعرفت إلى أسرته ، وإلى الريف المصرى ، كان يعيش فى ولاية كاليفورنيا بالغرب ، ثم أعلنت مستشفى كليفلاند عن حاجتها إلى أطباء تخدير ، تَقَدَّمَ ، وكان عدد الأطباء أكثر من مائة . اختبرهم الدكتور فوزى بنفسه ، واختار منهم أربعة ، أحدهم حمدى .

قال لى حمدى أنه لم يعرف شخصاً فى دقة وعلم موضوعية فوزى أسطفانوس ، وأنه فخر لكل العرب فى المستشفى ، وليس بالنسبة لنا كمصريين فقط . بدأ يحدثنى عن بعض المعلومات الخاصة بالتخدير ، ثم قال أنه سيفضى إلىّ بمعلومة غريبة ، لكن . . يجب أن ألم بها .

اِلْتَفَتُّ إليه .

ماذا يمكن أن يبدو غريباً لى الآن ؟

ماذا يمكن أن يثير فضولى ؟

ما الذى يمكن أن يرف فى هذا الاستواء الذى أصبح عندى وأصبحت عنده ؟

ماذا ؟

قال أنه يحدث فى حالة بين كل عشرة آلاف حالة أن يسترد المريض وَعْيَهُ فجأة أثناء إجراء الجراحة ، يزول تأثير المخدر ، وبالذات حاسة السمع . قال أن ذلك حدث بالفعل . طبعاً . . الأمر يُعَالَج على الفور، لكن . . لو جرى ذلك ، فيجب ألاّ أفزع .

تطلعتُ إليه مبتسماً ، ابتسامة وافدة ، لم أُعَلِّق ، لم أخبره أننى الآن فى لب التسليم ، وأننى غير قادر على الدهش ، وما أتمناه انتهاء الأمر بسرعة ، فالانتظار طال ، غير أننى لم أنطق .

عندما وقف وقال أنه سيعود مرة أخرى ليرانى ويطمئن ، لكنه الآن يجب أن يذهب لإنجاز بعض الأعمال ، لاحظت أنه يشبه فى بعض ملامحه محمد ابنى ، غير أن صوته الريفى ، وحضوره القوى ، أتى إلَىَّ بأزمنة وبأماكن غالية ، لاحت ، وسرعان ما وَلَّتْ .

الثانية والنصف .

هدوء أعمق ، حتى أحاديث الممرضات العابرة كفت ، جاء الأستاذ الجامعى بكلية الهندسة ، المفروض أنه سيجرى الجراحة غداً صباحاً ، غداً الخميس ، ماذا يعنى الخميس الآن عندى ؟

إما . . وإما . .

جلس الأستاذ إلى الجهة اليمنى ، فتح المصحف ، بدأ يتلو من سورة الكهف .

جلست ماجدة فى المواجهة ، فتحت المصحف ، واستغرقت فى قراءة صامتة متوازية مع القراءة الهادئة الخفيضة التى بدأها الأستاذ .

« قالَ لَهُ موسى هل أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْدًا ، قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعَى صبراً وكيف تصبر على مالم تُحِطْ به خُبْرًا قال سَتَجِدُنى إنْ شاءَ الله صابراً ولا أعْصى لك أمْراً قال فإنْ اتَّبعتنى فلا تسألنى عن شَيْء حتى أُحْدِثَ لَكَ منه ذِكْراً . . فَانْطَلَقا . . . »

تميمـــة ...

ياه . . غفوت .

طال علىّ الأمد ، رغم أنها مجرد خلسة واهنة ، لم تستمر إلا دقائق ، إلا أنها زادتنى سكينة ، إنها عينة مما سأجده وسألقاه ، مما أنا مقدم عليه .

يتطلع إلىّ الأستاذ الجامعى ، يمسك المصحف مدخلاً أصبعه عند الصفحة التى توقف عندها . لم أَدْرِ . . هل أكمل قراءة السورة أَمْ أنه ختم عندما لمح غفوتى ؟ الوقت عصر هنا ، ليل فى القاهرة ، أتوزع بين وقتين ، ثمْ أضمهما معاً ، النهار ممتد الآن . الليل ساج هناك ، لايعنى هذا شيئاً ، الوقت الذى يحتوينى الآن ذو مستوى واحد ، فلا قبل ولا بعد ، لا ماض ولا آت ، إنها امتزاج لكافة الأبعاد ، ما أدركته من قبل ، ومالم أعرفه بعد ، تتجاور عندى كل المدارات . وتتقاطع الجواذب فى توحد سرمدى .

أتأهب لولوج الأبدية ، يفيض بى سكون قطبى ، يعرفه مَنْ وصلوا إلى تلك الأقاصى النائية ، حيث لا فرق بين الصمت والضجيج ، بين الذهـاب والإيـاب ، بين الصحو والغفلـة ، بين الوسـن واليقظـة ، بين القعـود والقيام . لا ليل ، ولا نهار، إذ إن الضوء السارى غير مـا يعهده الإنسان ، أدرك أن بعضًا من السر يكمن فى تلك المتناقضات ، وعندما

تنتفى ، عندما تتساوى الأمور ، وتتشبه الأشياء بعضها ، يحل العدم ، ويكتمل الفناء .

الثالثة والنصف

الثالثة والنصف وخمس دقائق

الرابعة إلا دقيقتين

تروح عيناى وتعبران بسرعة الساعة المستديرة المثبتة إلى الجدار فى الممر . أُزيحت الستائر بعد أن خلا المكان إلاّ مِنِّى ، لم يعد ثمة مرضى آخرون فى الانتظار ، خفت الحركة تماما ، عمق الصمت . أتبادل عبارات سريعة مع ماجدة ، أو نظرات أسرع بعد ذهاب الأستاذ الجامعى إلى موعد مع طبيبه المعالج . كان حضورها قربى تميمة واقية .

أبتسم ، أحاول طمأنتها . أعرف أن تلك اللحظات سَتَمْثُلُ فى الذاكرة ، لا أفتعل الهدوء ، إنما حيادى يؤطرنى . ما أقدم عليه الآن ينتمى إلى تلك الأفعال المضطربة الخاوية والدالة ، أقدم عليها قبل لحظات الوداع ، أو دَرءًا للحظات فاصلة ، حاسمة ، أدارى بها اضطراباً أو خجلاً أو انسحابا . ما أخفيته أكثر مما أظهرته ، أستمع إلى مالا يفد علىّ الآن ، كنت أودع أمى فلا أقبلها ، يتطلع كل منا إلى الآخر بصمت ، لم أحتضنها إلا بعد زواجى ، وبدء ترددى الأسبوعى المنتظم ، كان ما بيننا يتجاوز اللفظ المنطوق . هى تدرك وأنا أفهم .

ها هى ماجدة ماثلة أمامى ، منتظرة ، شاخصة ، قلقة ، مثابرة على التماسك ، تطل علىّ عبر اللحظات الأولى التى التقينا فيها أمام مصعد دار روز اليوسف ، عندما تطلع كل منا إلى الآخر ، وشكل ما جرى تَنَاغُمًا خَفِيًّا، دغم أننا لم نتكلم .

قالت لى فيما بعد أنها أيقنت من صيرورة شئ ما مع صاحب تلك الملامح . . وقلت لها فيما بعد أن جمالها وحضورها أدخلنى على الفور إلى مداره . كنت وثيق الصلة بمجلة صباح الخير ، ولى فيها صحب أعزاء . أتردد بانتظام ، فى ذلك اليوم لقيتها ،كانت ترتدى قميصًا أصفر من حرير، وبنطلونا أسود يتناغم مع شعرها الغزير الفاحم . كنت أنتظر تجارب كتابى « المصريون والحرب » الذى صَدَرَ فى سلسلة كتاب روز اليوسف بعد انتهاء حرب أكتوبر، كان ذلك فى فبراير عام أربعة وسبعين ، قالت أنها ذهبت إلى محافظة السويس ، التقت بمجموعة من أبناء المدينة ، كانوا معروفين بين الناس ، ولهم ذيوع ، أعضاء منظمة سيناء العربية . قالوا لها أن الصحفى الوحيد الذى عايشهم فى الأيام الصعبة ، عرفوه وارتبطوا به وارتبط بهم ، اسمه جمال الغيطانى . قالت لى أنها منذ عودتها إلى القاهرة وهى ترغب فى رؤيتى ، ثم فوجئت بتحقيق منشور فى الأخبار بعنوان « رسائل مقاتل من سيناء » ، وأنها كانت تعد لتحقيق مشابه يدور حول نفس الفكرة . فى ذلك اللقاء دعوتها إلى قاهرتى القديمة ، حددنا موعداً الخميس ، مضيت لأصحبها ، وفيما بعد قالت لى أنها كانت مترددة ، وشرعت فى الاعتذار ، لكنها جاءت وجئت ، وشرعنا .

لَكَمْ تَحَمَّلَتْ عنى ، إنها عماد الأسرة وسقفها ، تحملت نزقى واندفاعاتى ولحظات غضبى ، وقامت بتدبير أحوال الأبناء النفسية مع انشغالى الدائم فى القراءة ، فى الكتابة . كثيرة هى التفاصيل ..لم أتحدث عنها من قبل ، ولن أبوح إلاّ بقدر . الشأن العائلى عندى خاص جداً ، تماماً كأى جنوبى من أبناء الصعيد ، يجوش أكثر مما يظهر ، ويكتم أكثر مما ينطق به ، خاصة إذا تعلق الأمر بالمرأة ، إنها العواطف الأعمق ، التى تعبر عن نفسها بالصمت

البليغ ، بالتوتر عالى النبرة ، الذى تهدئه بصة سريعة ، أو لمسة يد . هاأنذا أَكُفُّ ولا أسترسل ، أختلس النظر ، كأنى أطل عليها من مكان بعيد ، أو موضع قريب ، لكن يحول بيننا حاجز شفيف الآن ، تمر فى نفس اللحظة ، لكننى ماض إلى وقت مغاير ، يتألق جمالها الخاص ، سامى الملامح ، كأنى أتطلع إليها تلك اللحظات أثناء وقوفنا أمام مصعد روزاليوسف .

تلقى عيناها الواسعتان علىّ محبة حتى تقر عينى ولا أحزن ، لكن فات أوان السرور والغم . الإقبال والإدبار، لم أعد منتمياً إلى تلك الأزمنة والأمكنة ، أتجاوز كل لحظاتى بهدوء سَرَّنِى ، وبحال لم أتصور أننى بالغه . توشك أوقاتنا على اندثار عندى . لا يبدأ منى فيض ، لا تلوح غُصة . ولا يطل شجى ، فَأُوقِنُ من تَمَكُّنِى . من اكتمال التسليم . .

مرت الأوقات ، وانطوت الأمكنة

خطوات . .

الممرضة ، يتبعها شاب زنجى طويل ، متين الهيكل ، قوى البنية ، لم يكن يرتدى قميصاً بنفسجياً وبنطلونا أبيض ، الزىّ الخاص بالمسئولين عن النقل ، إنما رأيت زى غرف العمليات . ابتسم مبدياً المرح . .

خلاص ؟

تومىء الممرضة ، كأنها تعرف معنى ما نطقت به .

يبدأ الزنجى دفع السرير إلى الخارج ، قلقلة العجلات فى البداية ، ثم انتظامها خاصة عند أجتياز الباب المصمت إلى الممر ، إلى المصعد الفسيح ، ألوح للحلاّقة البدينة ، مرحة الملامح ، لمحتها فى الطرقة ، تُلَوِّحُ لى .

« حظ طيب . . »

تطالعنى ماجدة بابتسام . أتأكد من إطلالتها علىّ بأجمل حال ، وأرق هيئة ، أرفع أصابعى بإشارة النصر . حركة لا معنى لها أستمدها من الذاكرة المنسية . ألتف على اللحظة حتى تنقضى بسلام .

السقف يمر فوقى . أحملق فيه . الممرات تمتد وكأنها بلا حد . الأبواب موصدة ، كأنها لن تؤدى إلى شىء أبدا . أرى أطيافاً بعيدة ، أدقق النظر ، فأكاد أرى أمى فى قعدتها ، وأبى فى مشيه ، شواشى النخيل ، الجسور المؤدية ، خالى ينتظر ، أبراج حمام عتيقة . كل ما كان ويكون يتخذ سمت الصمت . خطوط وألوان فى لوحات متوالية . توحى ولا تنطق بما كان ، تترك بالإيحاءات حرية الخلق للمتلقى .

الرابعة الآن هنا

الحادية عشرة هناك

ماجدة الصغيرة ، محمد ، أراها عند الخط الفاصل ، هما الأقرب رغم نأيهما ، تنتفى المسافات ، مع بلوغ ذروة التسليم يتمركز الوجود كثيفا ، حول ما يخص الذات ، تماما كأى ثقب أسود يعقب انهيار النجم ، يبلغ درجة من كثافة المادة أنه لا يسمح حتى للضوء بالنفاذ ، ألا تقول بعض النظريات العلمية أن هذا الكون السحيق الأبعاد كان فى حجم بيضة يمكن احتواؤها براحة اليد ، لكنها على درجة من الكثافة الرهيبة ؟ . ترى . . إلى أى جزء أمضى الآن ؟

تطالعنى نظراتهما . أطيل التطلع إليهما

« محمد . . وماجدة »

هل لفظت الاسمين ؟

هل ناديت أمهما بهما عند بلوغنا الباب الذى سأجتازه وحدى . غير مسموح باستمرارها ، نظرتها الجانبية تخفى تأثراً ، وتستدعى ابتسامة صعبة التحقق ، يُغْلَق الباب .

أتأهب قبل البدء

أشرع قبل الشروع

حجرة غير فسيحة ، الغالب عليها لونان ، أزرق وأبيض ، يقف الدكتور فوزى اسطفانوس محاطاً بمساعديه ، لا أعرف أى منهم ، يثير حضوره عندى أمناً عميقاً ، سرعان ما يذوب فى تسليمى التام . بالنظر أحاول استيعاب مكونات الغرفة من دواليب وأدراج وقنينات مختلفة الأحجام، وحقن داخل أغلفة شفافة .

يعرف كل منهم ما يقوم له . الجدية تكسو الملامح ، رغم ذلك أقول مداعباً .

« ماذا لو قاوم المخ الصعيدى مخدركم القوى . . ؟ »

يجاوبنى الدكتور فوزى

« سنرى »

غرس بنفسه حقنة فى وريد ساعدى ، حقنة أخرى فى ذراعى ، وعندما شرع فى معالجة رقبتى ، غطى وجهى بقناع أزرق خفيف ، قال بدون توضيح :

« يستحسن ذلك . . »

ضغطة ثقيلة على جانب الرقبة الأيمن ، ثمة معالجة تتم لوريد الرقبة ،

لابد أن دماً تدفق ، عندما غرس إبرة فى رقبتى ترددت لسعات غريبة على داخل أطرافى ، مس من كهرباء خفية تسرى تفجر هناك . ضغطتُ شفتى .

« تتألم ؟ »

« شوية »

أزاح الغطاء عن وجهى . تمت تهيئة الكينونة ، ليس للنوم العميق فقط ، ولكن لتوصيلات عديدة سيتم من خلالها نقل الدورة الدموية إلى قلب صناعى ، وكذلك التنفس ، ثم شق الصدر ، ومراقبة عمل المخ أثناء إجراء الجراحة .

يتحرك السرير مرة أخرى ، المسافة أقصر ، حجرة فسيحة ، لكنها مدججة بأجهزة أكثر تعقيداً ، طاولة مستطيلة ، غير عريضة ، يحيطون بى ، ينقلونى إليها ، يوثق أحدهم ساقىّ بحزام أسود عريض ، يشدنى إلى الطاولة :

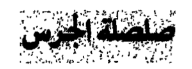
يبتسم الدكتور فوزى اسطفانوس

« هذه غرفة العمليات . . »

أسمعه

« نعم . . »

أميل إلى ما وراء الكون كله . .



زرقة سماوية ، لكنها زجاجية المرأى ، ممتدة ، غير محدودة

زرقة صافية يمكن من خلالها رؤية الأبيض والأسود ، كافة الألوان ، زرقة لا متناهية ، أبدية .

سقف من زجاج ، لا يستند إلى شيء

أرض من زجاج

كلاهما أزرق . حضور سماوى ، لكن يوشك الأعلى أن يتوحد بالأسفل .

الأصوات الأولى ، الأخيرة ، الأزلية ، رغم محدوديتها ، إلا أنها ممتدة ، متناثرة ، شاملة للكافة .

صلصلة خافتة ، حقيقية ، ما عداها وهم .

صلصلة .

صدر زجاج ، لذلك أختنق .

لا يمكننى التنفس ، رئتاى لهما اللون الأزرق ، زجاجيتان .

تقف ماجدة ، تتطلع إلىّ بجانب وجهها ، تلك ملامحها الباسمة ، أتعرف عليها ، لكنها سرعان ما تندمج بالزرقة الممتدة .

ممرضة ترتدى معطفًا أبيض ، تمسح جسدى بالقطن ، تزيل سائلاً برتقالياً، تقلبنى ذات اليمين وذات الشمال ، إذ تميل بى ناحية اليسار تتنابنى بهجة ، يعنى ذلك أننى أرقد على الجانب الذى يكمن داخله قلبى . إذن . . لاخشية ، اجتزتُ الخط الفاصل ، تخاطبنى الممرضة بكلمات ما .

صلصلة آتية

صلصلة مولية

تذوى

تختفى

كلمات ، لغة أجهلها ، أفتح عينى ، ماجدة تبتسم ، يتحرك السرير ذو الجانبين المرتفعين ، يدفعه اثنان ، تمضى ماجدة متطلعة إلىّ . كنت أتعرف عليها ، على المصعد ، الممر ، إلى الطابق العاشر . دخلوا بى إلى غرفة فسيحة ، يقسم فراغها ستارة . آخر يرقد خلفها ، لا أعرفه ، قالت ماجدة أنهم يجهزون غرفة أخرى ذات سرير واحد .

يتحرك السرير مرة أخرى ، تدفعه ممرضة شقراء ، الحجرات مفتوحة ، الأبواب على الجانبين ، أجهزة ، شاشات ، ماكينة لإعداد القهوة ، أرفف مجلة بصناديق .

أستقر فى الغرفة المستقلة . هذ أفضل .

نافذة زجاجية بعرض الجدار كله ، تطل على أفق أخضر فسيح ، أُوَلِّى وجهى ناحيته .

أى يوم ؟

تجيب ماجدة :

الخميس

أغمض عينى ، يستغرق السؤال والجواب وقتاً .

« اتصلت بمصر ؟ »

مصر تعنى الأولاد ، الرغبة فى الاطمئنان .

« كل شىء تمام . . خد بالك انت من نفسك »

« كم الساعة ؟ »

تجيب ماجدة

« السابعة . . »

« أليس من الأفضل أن تذهبى ؟ . . »

الخطر المصاحب لنزول الليل ، من المستشفى إلى بيت الضيافة مسافة خمس دقائق مشياً على القدمين .

« لابد أن تركبى العربة . . »

تهز رأسها مؤمنة على ما أقول . أغمض عينى من جديد ، أستوعب الضوء الآتى ، الجدران ، النافذة العريضة ، الفراغ ، تنفسى الهادئ . أنفاسى القصيرة ، جهاز صغير مثبت إلى صدرى . السرير يمكن تحريك أجزائه كما أرغب بواسطة أزرار مرسومة ، فى متناول اليدين ، اليمنى واليسرى ، مجرد لمسة صغيرة .

تليفزيون فى المواجهة .

شاشة المونيتور مثبتة أعلى الجدار خلفى ، الغرفة تفيض بالضوء ، كنت أتلمس الأشياء حذراً خلال وفادتى الثانية إلى العالم . الوقت مكتمل ، مختزل عندى ، قادر على تسمية الأشياء بأسمائها .

فى المواجهة ما يشبه السبورة ، عليها أسماء مكتوبة بالطباشير ، وعبارات لم أفهمها .

نظارتى ، الساعة ، المصحف إلى جوارى .

غدا صباحاً أريد قاتلاً بلا أجر وذكريات منزل الموتى

ونصوصاً فرعونية مقدسة . . »

قالت ماجدة ضاحكة :

ألا توجد عناوين أخرى أكثر تفاؤلا ؟ »

تطلعتُ إليها بِوَهَنٍ ، بحنو ، بأسى ، رحت فى نوم عميق ، لم أستيقظ منه إلا حوالى العاشرة ليلا ، كان الأفق غسقيًّا ، الشمس تغرب هنا متأخرة ، أيقظتنى الممرضة ، جاءت تحمل طبقاً صغيراً تتوسطه ثلاثة أقراص ، أحدها أبيض مستطيل ، كبير نسبياً ، يطلقون عليه « قاتل الألم » ، مسكن قوى ، قامع للأوجاع الناتجة عن نشر العظام والجروح العميقة التى لم تلتئم بعد . يقدم الدواء عدة مرات على امتداد اليوم . ويتم قياس الضغط عدة مرات ، والحرارة ، وقياس كمية الأوكسجين فى الجسم بواسطة جهاز صغير تمسك به الممرضة ، وينتهى بما يشبه مشبك الغسيل ، يمسك بالأصبع ، ويضيء بلون أحمر قانٍ . يبدأ النشاط الطبى فى الخامسة والنصف صباحاً . يفتح الباب الذى رجوتهم إغلاقه ، إذ إننى لم أعتد النوم فى مكان مفتوح ، وإن اعتدت هنا النوم متمدداً على ظهرى ، وكان ذلك مستحيلاً من قبل ،

غير أن نومى مستلقياً على جانبى الأيمن كان صعباً بسبب آلام صدرى ، التى سرعان ما تتحرك وتنعكس على تردد الأنفاس ، التى لاحظت قصرها وترددها ، كما أن تغيراً لحق صوتى ، كان باستطاعتى أن ألحظه . وكان الحديث المتصل يرهقنى ، واستمر ذلك لفترة . يبدأ اليوم بزيارة من مساعدى الجراح الأستاذ كوسيجروف ، اثنين فى حدود الثلاثين ، لم يدخلا غرفتى إلا باسمين ، مرحين ، كانا يكشفان صدرى ، يفحصان الجرح الطولى النحيل ، يصغى كل منهما إلى قلبى عبر السماعة ، يقيس أحدهما الضغط ، يدونان بعض الملاحظات ، ثم ينصرفان .

يبدأ توافد الممرضات لقياس الضغط مرة أخرى ، والحرارة ، وتقديم الدواء . فى السابعة يُقَدَّمُ الإفطار الذى أتناوله فى السرير ، ورغم أناقة المظهر ، وجودة الترتيب ، إلا أن الطعام لم يكن ذلك الذى اعتدته ؛ فَقَوِىَ حنينى إلى الفول المدمس فى أشكاله المختلفة ، بالزيت الحار ، والزيت الفرنساوى ، ومهروسا بالثوم والطماطم والبصل المقلى . تُقْتُ إلى العسل الأسود بالطحينة البيضاء مع الخبز البلدى الساخن . الغريب أن حنينى كله كان يتدفق إلى أنواع من الأطعمة عرفتها فى موطنى ، إلى أقراص الطعمية الساخنة ، إلى البسبوسة ، الكنافة بأنواعها ، إلى لحمة الرأس ، إلى الخبز الصعيدى المعروف بالشمسى ، أكلات مرتبطة بطفولتى ، بأماكن مختلفة تتوزع على موطنى مصر ، رغم أننى سافرت شرقاً وغرباً ، وتناولت وجبات فاخرة من بوردو الفرنسية ، وموربليا المكسيكية ، وبخارى الأوزبكية ، وروما الإيطالية ، وأقطار شتى ؛ لكن ما هفوت إليه واشتهيته ، تلك الأنواع التى تبدو متواضعة للبعض ، لكنها بالنسبة لى جزء من كينونتى ، من مكوناتى ، من تراثى .

تبدو قائمة الطعام التىَ تُقَدَّمُ للاختيار منها أنيقة ، مطبوعة طباعة فاخرة، أقرأ اسمى ورقم الغرفة عليها ، أتأملها .

خضار على الطريقة الفرنسية بالصلصة الإسبانية .

أسماء الوجبات فخمة ، مغرية ، لكن الطعام نفسه معد لمرضى القلب، أى خال من الملح ، كميته محدودة ، صحيح أنه نتاج دراسات طويلة ، وبُذِلَ فى إعداده جهد ، لكنه أكل يرتبط بالمرضى ! .

فى الثامنة صباحاً تدخل الممرضة المسئولة ، تكتب اسمها على السبورة التى تواجهنى ، واسم نائبتها ، وربما تكتب بعض الملاحظات . لم يحدث أن اجتازت إحداهن الباب إلى الداخل إلا مبتسمة ، مرحبة ، كأننا أصدقاء قدامى .

فى العاشرة تقريباً يقوم الطبيب المشرف على العلاج بالزيارة ، يدخل الأستاذ مهدى رزاقى ـ الإيرانى الأصل ـ مبتسماً ، جملة قصيرة ، اتصل بيننا حبل المودة ، واحتوى كل منا تقدير للآخر ، كنت أتأمل طريقة إمساكه بالسماعة ، وإصغائه إلى قلبى ، يخرج إلى رف خارج الغرفة ، فوقه ملف ضخم ، يدون به بعض الملاحظات ، ربما يبدى ملاحظة ، أو يطلب فحصًا يقتضى خطوة ما .

حدث بعد يومين من إقامتى فى الغرفة أن جاء ممرض من أولئك المسئولين عن نقل المرضى ، كان يدفع أمامه كرسياً متحركاً ، طلب منى أن أجلس ، سنذهب إلى الطابق الأسفل ، إلى قسم الأشعة ، لم أفهم المطلوب تماماً ، لكن لم يكن بوسعى إلا الامتثال ، كنت أطيع أى طلب منى ، ليس لى إلا الإصغاء والتنفيذ .

مضى بى إلى المصعد ، إلى الطابق الثانى ، حيث الممرات الطويلة المتقاطعة ، الخالية ، الباردة ، المتصلة بغرفة العمليات ، فوجئت بالممرض يسند المقعد إلى جدار ، يومئ إلىّ ، يفارقنى . أتطلع إلى المكان الخاوى ، والممرات الطويلة ، إلى أين ذهب ؟

لا أدرى

ماذا سيجرى ؟

لا أعرف

خطوات سريعة ، تومئ لى السيدة الشابة التى ترتدى معطفًا أبيض ، تدفع المقعد ، تمضى بى عبر ممر طويل أضيق ، اللون الغالب بنى فاتح ، تلج بى غرفة فسيحة ، سيدة أخرى تنتظر ، تدفع المقعد إلى غرفة بها جهاز أشعة أكثر تعقيداً من ذلك الذى رأيته فى الطابق الأول ، وتجردت من ملابسى أمامه يوم الفحص السابق على إجراء العملية .

تم التقاط صورة بالمواجهة ، وللجانب الأيسر . بعد أن فرغت عدت إلى المقعد ، سالكا الممر عينه ، تركتنى السيدة الشابة عند الجدار الذى غادرنى عنده الممرض ، لم أبق إلاّ ثوان ، ظهر رجل آخر ، دفع المقعد إلى المصعد ، إلى الغرفة ، علمت فيما بعد أن الرئة اليسرى تأثرت نتيجة مياه تكونت أثناء العملية ، وهذا وضع يحدث لكثيرين ، ويعالج بالمشى واستنشاق هواء جاف ، عندئذ يمتص الجسم كمية المياه ، أما إذا تعسر ذلك ، فتتم عملية بذل ، ولحسن الحظ لم أحتج إليها .

ما لفت نظرى فى ذلك اليوم هذا الترتيب الذى أوصلنى إلى غرفة الأشعة ، لكل إنسان دوره المحدد بدقة ، نظام صارم ، لا يُلْحَظ تطبيقه ، يؤدى فى النهاية إلى مصلحة المريض .

تجيىء ماجدة من بيت الضيافة فى الثامنة تقريباً ، وتمكث حتى نهاية اليوم ، وخلال النهار تتردد على المرضى المصريين الذين تعرفنا إليهم ، الأستاذ الجامعى الذى عانى بعض المشكلات بعد إجراء الجراحة ، وتابعنا علاجها ، كما اتصلت ماجدة بمساعد المستشار الطبى أحمد كمال فى واشنطن ، وطلبت منه التدخل لتعيين مرافقة تقيم مع الأستاذ الجامعى بشكل شبه دائم خلال النهار ، بدلاً من بقاء الرجل وحيدا تماماً مع المضاعفات التى جرت ، ومنها سرعة النبض ، واضطرارهم إلى معالجتها بصدمات كهربائية . على الفور اتصل أحمد كمال بمديرة القسم الدولى شيرلى دونيل ، وتم تخصيص ممرضة مرافقة . أما المحامى القبطى الذى سبقنى بساعتين إلى غرفة العمليات ، فتأخر بقاؤه فى الرعاية المركزة يومين آخرين بسبب مشاكل عاناها فى عضلة القلب . أستاذة جامعية أخرى كانت ترقد فى غرفة مجاورة ، كان الأستاذ الأسوانى وزوجته ، والأستاذ الأسيوطى ، ومدير البنك السابق ، يتوافدون على زيارتى يومياً . كانت حجرة العلاج الطبيعى فى نفس الطابق ، وكانوا يقومون بزيارتى قبل أو بعد قيامهم بالتمرينات المطلوبة ، وإذ يدخلون غرفتى تعلو أصواتهم بالصلاة على النبى وشكر الله ، وكانت أصواتهم وكلماتهم تسرنى كثيراً .

بجوار النافذة صَفَّتْ ماجدة الكتب التى نقلتها من بيت الضيافة ، كنت أقرأ بِنَهمٍ يتجاوز رغبتى فى أول زمنى . أنظر إلى الكتب المتراصة فأتمنى لو استوعبتها كلها . وكان هذا الحال أول إشارة موحية ، ذات دلالة ، أعرف أبعادها ، تؤكد لى أننى أمسك بناصية الأمر من جديد .

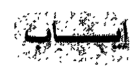
تحديقى فى الملامح ، فى الضوء ، فى الأفق الفسيح ، فى ملامح ماجدة ، فى حركة الأطباء والممرضين ، إضعائى إلى روائح العطر والأدوية الخفية ،

وبرودة الهواء المنبعثة من أجهزة التكييف ، كنتُ أُبْقِى الستائر منفرجة ، حتى أرى ذهاب النهار وإقبال الليل ، ثم إدباره فى الصباح الباكر .

كان التوق إلى شتى العناصر يشب داخلى ، بطيئا ، هادئاً ، كنت أشْبَه بمن يعود من رحلة طويلة ، شاقة ، اسْتَغْرَقَتْ عمراً ، رأى خلالها ما رأى ، وعندما عاد لم يقل لمعارفة وأهله أنه وافد بعد انقطاع ، وأن كافة ما يراه مستحدث عليه ، طارئ ، فى حاجة إلى التعرف من جديد على العناصر ، على الأشياء ، فالغيبة عن الوطن طويلة ، وما أشد الحاجة عنده إلى إدراك ما كان ، واستيعاب ما جرى ، ولادة جديدة فى الوطن ؟

بالتأكيد . .

ولم يكن وطنى إلا هذا الكون كله .



أتودد بالنظر إلى كل من يدخل دائرة بصرى ، راغباً القربى مع سائر المخلوقات الساعية ، تواقاً إلى رؤية أهلى وصحبى ، والعابرين المجهولين عندى . عندى فيض من امتنان لكل من سعى ـ ولو خطوة ـ لمساعدتى ، أو السؤال عنى بكلمة ، أو مكالمة ، أو باقة ورد . أستعيد الأيام السابقة على سفرى عندما توافد علىّ جَمْع هائل من الأدباء والمثقفين والسياسيين والزملاء القدامى ، جاءوا يسلمون علىّ ، ويشدون أزرى ، ومن سائر أنحاء العالم العربى توافدت الرسائل بالبريد وبواسطة الفاكس ، مشاعر فياضة تثبت لى أن العمر لم يضع هباءً منثوراً ، وأن الأيام المولية أودعت أثراً طيباً عند القوم .

كنت تواقاً إلى رؤية الأستاذ كوسيجروف ، الجراح .. مَنْ أمسك بأصابعه قلبى ، وشَقَّهُ وسوّاه من جديد ، أعاد صياغة الصمام الميترالى ، ونقل وريدى من فخذى وشريانى من صدرى إلى سكن جديد ، ومقام مغاير أوجده لهما فى قلبى .

كيف لا أراه ؟

كيف تمضى الأيام وأفارق الولايات المتحدة كلها ، ولا ألتقى به ؟

كيف لا أرى ملامحه وهو مَنْ شاهد ما يحتويه صدرى ؟ .

كنت أسأل عنه مساعديه ، وأطلب منهما إبلاغه سلامى إلى أن بلغت يوم الاثنين ، فى الصباح الباكر كعادتهم جاءا ، ولكن تبعهما ثالث ، كان باسم الوجه ، أزرق العينين ، وتذكرت أوصاف حدثنى عنها الدكتور أيمن أبو المجد عند لقائى به فى القاهرة قبل سفرى ، وهو ابن الدكتور أحمد كمال أبو المجد ، وتربطنى به صلة . كان الدكتور أيمن فى كليفلاند العام الماضى، وهو يعرف الأستاذ كوسيجروف . تحدث عنه بإعجاب ، وقال أن وجهه هادئ الملامح ، باعث للطمأنينة والسلام ، وعيناه زرقاوتان . كان الثالث متوسط القامة ، وعيناه فى لون الفيروز . كنت فى المرحلة الأخيرة من النوم ، المؤدية إلى اليقظة الكاملة . أشار إليه أحد المساعدين قائلا جملة ما ، لم أسمع منها إلا كلمة « كوسيجروف » .

اندفعتُ واقفاً، صافحته ، خاطبته بانفعال ، وحدثته عن رؤية أصابعه الماهرة التى أصلحت أمر قلبى . كان يصغى مبتسماً ، وعندما فرغت ، فوجئت بزميله يقول :

« لكنه ليس الدكتور كوسيجروف »

ثم أشار بيده إلى أعلى

« الدكتور كوسيجروف أطول . . »

خيبة وخجل داريتهما بابتسامة . قلت :

« يبدو إذن أننى لن ألتقى به . . على أية حال . . »

تناولت علبة من الورق المقوى تحتوى على تمثال من الجير لابنة الملك الفرعونى الشهير اخناتون ، نموذج مما تعده هيئة الآثار ويباع للراغبين ، تمثال نصفى جميل للملكة الشابة «تى» ، أضع مثيلاً له فى مكتبتى على مرأى

منى ، وما بينى وبين روح صاحبته حوار صامت ، لا يُسمع ولا يمكن تفسيره ، قلت للمساعدين الثلاثة مطرقاً :

« يبدو أننى لن أرى دكتور كوسيجروف ـ على أى حال أرجو تسليم هذا التمثال إليه وهذا الكتاب . . »

نسخة من روايتى « الزينى بركات » المترجمة إلى الإنجليزية ، والصادرة عن دار بنجوين ، وعدونى بتوصيلها إليه ، وعدت إلى مرقدى فوق السرير، أتأمل الأفق ، وأتبين الخيط الأبيض من الأسود .

فى مساء اليوم نفسه كنت أستعد لقضاء ليلتى الأخيرة فى المستشفى ، إذ زارنى الأستاذ مهدى رزاق ظهر الاثنين ، وأصغى إلى قلبى بدقة ؛ هز رأسه راضياً .

« يمكن الآن أن تخرج إلى الفندق . . »

رفع يده محذراً .

« لن تمضى وقتك فى السرير . . »

ثم قال :

« المشى ضرورى ، والتمرينات . . »

إنها ليلتى الأخيرة هنا . غداً ستصبح الأيام الماضية ذكريات ، أستعيد مجرياتها بالمخيلة ، وإنْ بَدَتْ متشابهة ، إلاّ أن بعض اللحظات تبدو متفردة . صباح السبت ، أول أمس بعد تناولى الإفطار ، دخلت الحجرة نائبة الأستاذ كوسيجروف ، بدينة إلى حد ما ، تبدو باسمة ، مرحة . بعد أن قاست الضغوط ، وأصغت إلى قلبى ، جلست إلى جوارى ، من الناحية

اليسرى . كشفت صدرى ، راحت تتفحصه بعناية . تحت الشق الطولى الذى كان مغطى بقطعة قطن وشريط أبيض طويل ، كان ثمة قطعة مربعة يخرج من تحتها سلكان يتصلان بالجهاز صغير الحجم الموجود فى جيب ردائى ، الذى يرسل الإشارات إلى « المونيتور » المعلق فوقى ، والموجود منه نسخ أخرى فى غرف الأطباء بالطابق . أزاحت برقة قطعة القطن الصغيرة ، المربعة ، لفت السلكين حول أصابعها ، وبمهارة بدأت سحبهما ، وإذا بهما يخرجان من صميم قلبى .

سحبة من أقصى العمق ، من الأغوار ، لم أعرف لها مثيلاً قط ، احتكاك السلكين بأغشية القلب .

تطلعت إليها صامتاً ، مأخوذاً ، تم الأمر بسرعة ، بمهارة ، لم أعرف أنهما متصلان بقلبى ، ولم أعرف أنها مقدمة على ذلك . أحيانا يكون الجهل نعمة . منذ عملى فى الجبهة أردد دائماً أن المعرفة مقلقة ، مقضة ، كنت ـ بحكم خبرتى ـ أعرف الانفجارات ومداها وأنواعها ، وكان الزائر غير المجرب يتطلع حوله مستفسراً أحياناً أو صامتاً فى معظم الوقت، غير منتبه إلى الأثر الحادث عن هذا الانفجار أو ذاك . أيضاً . . لم أكن أعرف أنها مقدمة على هذه «السحبة» . لو اطلعت على نواياها ، ربما تغير الأمر ، ولو أعرف ما عرفت لاضطربت . حتى الآن فى جسدى ندبتان صغيرتان تشيران إلى نفاذ السلكين إلى الداخل الأقصى ، لرصد أحوال القلب ولمساعدته إذا حدث عُسْر مفاجئ بعدَ الجراحة . أزالت الممرضة القطن والغطاء الأبيض ، رأيت الخط الطولى ، والقشرة البنية المتكونة .

« هل يمكن أن أدخل الحمام . . »

قالت :

« طبعاً . . »

كان الإذن بالاستحمام من اللحظات السعيدة جداً فى أيامى . لم أتأخر ، خلعت ثيابى ، وَلَجْتُ الحمام الملحق بالغرفة ، وقفت تحت الدش ، تحت المياه الدافئة ، رذاذها المنهمر ، وأخذنى الفرح حتى كدت أرقص ، لم أتدبر ـ لفرحى ـ الاحتياطات التى عرفتها فيما بعد ، ومنها ألاّ أَتَلَقَّىٰ المياه مباشرة على صدرى . عُدْتُ إلى الفراش منتشياً ، راضياً ، وأقبلت على القراءة بنهم، ومعانقة الأفق النهارى الفسيح . فى المساء وبعد ذهاب ماجدة إلى بيت الضيافة ، بعد أن تمددت لتهيئة نفسى للنوم ، بعد أن أغلقت باب الغرفة ، فوجئت به يُفتح والنائبة الممتلئة ، المرحة تدخل ، معلنة بصوت مرتفع .

« الأستاذ كوسيجروف ومساعدوه . . »

أخيراً . .

لايجيىء العالم الكبير ، ذائع الصيت بمفرده ، إنما بصحبة الفريق العامل معه كله ، حوالى سبعة ، منهم الثلاثة الذين حاورتهم صباح اليوم ، كُنت منفعلا بتأثير الزيارة ، وقيامى من السرير بسرعة .

ها هو فى مواجهتى .

حضوره طيب ، حميم ، هادئ ، ملامحه متواضعة ، ملامحه محددة ، نحيل ، طويل ، يرتدى نظارة طبية .

« أشكرك على التمثال والكتاب . . »

قلت بإنجليزيتى المحدودة :

« أشكرك على عنايتك ، وعلمك ، ومهارتك .. أشكرك على العناية بقلبى . . »

ثم قلت :

« لقد بَدَأَتْ صلة بينى وبينك من ناحيتى قبل أن نلتقى ، ولكم كنتُ تَوّاقاً إلى لقائك . . »

أومأ مرات ، لم يتكلم ، سألته :

« هل زرت مصر ؟ »

أجاب

« نعم . . لمدة أسبوع فقط »

قلت بحرارة :

« فى المرة القادمة سأكون دليلك . . »

يسألنى :

« التمثال من الدولة الحديثة؟ . . »

أُفَاجَأُ . . . . إنه سؤال من يعرف الحضارة الفرعونية وأطوارها . قال أنه يعرف إخناتون . إنه أقدم الموحدين .

توقف لحيظات ، لامس ذقنه بأنامله الطويلة ، المدربة ، الحاذقة ، هذه الأنامل أمسكت قلبى ، شَقَّتْهُ للوصول إلى الصمام العليل فى عمقه ، قال بصوته الهادئ :

« هناك طبيب فرعونى وفيلسوف أيضًا اسمه إيمحوتب . . »

أومأت مجيباً ، غير باذل أى جهد لإخفاء زهوى بحضارة أنتمى إليها ، وطبيب أمريكى كبير ، عالم فى تخصصه ومثقف أيضاً . قلت :

« إنه مهندس أيضاً . . وهو مصمم هرم سقارة . . »

أشار بأصبعه :

« هل لديك معلومات عن كتب صدرت عنه بالإنجليزية ؟ . . »

قلت أننى أذكر كتاباً مترجماً إلى العربية ، قرأته منذ سنوات ، وأحتفظ بنسخة منه . أظن أنه مترجم عن الإنجليزية ، قلت أننى بمجرد عودتى سأرسل إليه معلومات وافية عن المراجع التى تناولت هذا الطبيب الفرعونى ، الذى تحول إلى إله فى المعتقَد القديم (وهذا ما فعلته) .

هز رأسه ، بدا هادئاً ، وديعاً ، متواضعاً .

« هل يمكن التقاط صورة ؟»

أشار إلى مساعديه ، قال :

« مع الفريق . . »

تقدم أحدهم ممسكاً بآلة التصوير ، برق الضوء الحاد ، السريع مرة واحدة ، وتلك نتاجها صورة وحيدة أقف فيها أمامه وحولنا مساعدوه ، أحتفظ بها مستعيداً لحظة هامة كنت تواقاً إليها .

عدت إلى الفراش .

ثمة نفرة مفاجئة مصدرها قلبى . كنت مصغياً إلى كافة مالم أعهده من حركة عندى ، من ذلك تدفق سرسوب من الدماء عبر الشرايين ، رغم أن الدماء لا تكف عن المرور ، غير أننى فى لحظة معينة أشعر بذلك السرسوب

المفاجئ ، أما تلك النفرة ، فكانت تدفعنى إلى الإصغاء ، إلى ما سيكون . إنه القلب يحاول التكيف مع الوضع الجديد ، مازلت أذكر نكوصه عندما وَصَلَتْ إليه أسلاك القسطرة لأول مرة ، أول جسم غريب يتطفل عليه ، إنه قابع فى عمق صدرى ، بين جوانحى ، مُصَانًا، له حرمته ، لكن لأول مرة يجرى التجرؤ عليه ، لذلك شعرت بِرَدِّ الفعل . ما البال بعد العملية التى جرى خلالها ما جرى ، إنه يتكيف مع الوضع الجديد ، مع الشرايين الجديدة .

مع الجروح التى مازالت طرية ، كانت الآلام شديدة ، خاصة إذا عطست أو اضطررت إلى السعال ، حدث أن عطست لأول مرة ، فكدت أنفلق ، آلمتنى ضلوعى ، وعظام صدرى ، واضطررت إلى عض شفتى .

رغم كل شىء كنت أفيض بفرح داخلى عميق ، فى تعليمات مطبوعة توزعها المستشفى باللغة العربية . . تحذيرات خاصة بالطعام ، وضرورة الرياضة والمشى ، والبعد عن التدخين ، ومن حالة اكتئاب نفسى يمر بها المريض عقب إجراء العملية . لم أعرف هذا الاكتئاب ، بل عشت نقيضه ، فرحاً نادرًا لم أعرفه من قبل ، تَوْقاً إلى الحياة ، إلى الجمال ، إلى الآفاق النائية ، إلى اللحظات الحميمة ، إلى زيارة الأماكن الحميمة وكلها فى وطنى ، فى القاهرة القديمة ، فى صعيد مصر ، فى الإسكندرية ، بورسعيد ، الصحراء، الواحات . أنوى زيارة المدن التى لم أرها ، مثل رشيد . كيف لم أقم بزيارتها ، رغم أننى كنت أحياناً على بعد كيلومترات معدودات ، كيف؟ .

كنت فى شوق إلى زيارة المكتبات التى أعتدت التردد عليها كل أسبوع للتزود واقتناء الجديد ، كنت فياضاً بالنزوع إلى مكتبتى الخاصة ، إلى

مصافحة مقتنياتى من كتب ومخطوطات بالنظر ، إلى تقليب الصفحات ، إلى قراءة مالم أطالعه، واستعادة ما تعلقت به وأحببته .

فى غرفتى تلك عشت التوحد بالكون ، وتلك لحظات نادرة فى حياتى ، لم أغلق الستائر قط . كنت أتأمل الأفق الفسيح الذى أطل عليه ، وغزارة الأشجار واللون الأخضر ، وغيومًا رمادية سابحة .

فجأة . .

تكاثفت الغيوم ، واشتدت سرعة الرياح ، رأيت قمم الأشجار تميل مع العاصفة التى نشبت فجأة ، هنا يتغير المناخ بسرعة . فى يوم واحد تتعاقب الفصول الأربعة ، خاصةً فى الصيف . أظلم الجو ، واختفت زرقة السماء ، وتراكمت الغيوم ، حتى كادت تلامس الأرض .

برق

تتعاقب شواظ الضوء

تمرق أمامى عند حافة النافذة

فى قلب العاصفة فعلاً .

يتعاقب الرعد ، البرق ، الرعد ، المطر ، تقترب السحب من النافذة العريضة ، أتذكر جملة قرأتها فى « موبى ديك» التى جئت بها معى ، تقول «ما أجملَ العاصفة إذا كان البيت قوياً» . استعدت متعتى القديمة فى الستينات ، عندما كنت أجلس داخل مقهى أسترا ، أو إيزائيفتش ، وأتابع الأمطار ، والمارة يسرعون . كنت ألصق وجهى بالزجاج ، وأطيل التأمل ، لكن شتان ما بين أمطار القاهرة وعاصفة كليفلاند ، غير أن خوفاً لم

يدركنى، يبدو أننى رأيت من المخاطر ما جعل الخوف ينأى عنى ، بل إننى تطلعت بهذا الفيض الفرح داخلى إلى الرعد ، إلى البرق ، ابتسمت لقطرات المطر المتعاقبة ، وخاطبت الغيوم الثقال ، وقمم الأشجار ، وجذورها المخفاة فى باطن الأرض . عانقت الرياح ، وتمكنت من استيعاب الرعد . كنت طرفاً فى الكون ، ساعياً إلى الاندماج . حدث فى أثناء عبور المحيط الأطلنطى ، بعد الإقلاع ليلاً من مطار نيويورك بالتحديد، بعد ثلاث ساعات ، أن أَزَحْتُ الغطاء الذى يحجب زجاج النافذة المستديرة ، فوجئت بالشفق الفجرى ، ضوء أحمر ، حمرة لم أعرفها ، رغم إتقانى لدرجات الألوان ، واستيعابى لها ، حمرة خفيفة لا تكاد تدرك ، وعميقة إلى درجة احتوائها كافة الكون ، وسائر الألوان ، كانت أمواج المحيط بادية ، واضح تجاعيدها ، دانية كأن الطائرة الضخمة من طراز 747 سفينة تبحر عبر الماء، وليست طائرة تشق الفراغ على ارتفاع سبعة وثلاثين ألف قدم . اللون الشفقى يلغى الارتفاع والأبعاد كلها . طال تحديقى . . حتى فَنَيْتُ عن ذاتى ، وأصبحت طيفاً ، أو قطرة من المحيط ، أو مويجة من الضوء ، . . تَوَحَّدْتُ بالعناصر كلها ، وأدركتُ مقدار ضآلتى وشموليتى معاً .

انتهت العاصفة كما بدأت . يصفو الجو ، وأتأمل ما كان ، وما سيكون، يمتزج فرحى بالحنين ، أستوعب بالنظر ملامح الحجرة التى ستصبح جزءا من ذكرياتى غدًا ، حقاً . . إن المرض ليس شراً كله ، إنه يضعنا فى نقيض العادى والمألوف ، حتى إذا افتقدنا ذلك العادى ، وحالت بيننا وبينه المسافات ، أدركنا كم بَدَّدْنا من وقت ، وكم قَصَّرْنَا فى حق الأحبة ، وكم هى جميلة ورائعة وقصيرة ونادرة تلك الحياة .

أشرقت شمس الثلاثاء ،

أطوف بالممر الذى خطوت فيه أولى خطواتى ، أُدَوِّن اسمى فى قسم العلاج الطبيعى ، سأبدأ من الغد ، أتوقف عند النوافذ المطلة على الطريق الفسيح ، لم أر فيه إلا عربات تتدفق فى اتجاه واحد ، وفى صفوف منتظمة ، ما من مشاة . عندما وقع بصرى عليه أول مرة ، تبلورت حقيقة فى ذهنى .

« تلك أمريكا . . هذا الشارع لا يمكن رؤيته فى مكان آخر »

يمتد إلى الأفق الأخضر الذى تغطيه الأشجار . زرت الأستاذ الجامعى ، بدا أفضل حالاً ، زرت المحامى الذى كان بصحبة شقيقه ، أخيراً خرج من غرفة العناية المركزة ، الممرضات يبتسمن ، يلوحن لى ، يعرفن بمغادرتى اليوم ، جاءت ماجدة ، وضعت الكتب والمذياع الصغير وجهاز التسجيل والشرائط فى الحقيبة ، خرجت أتوكأ على عصاى ، لم تكن ثمة حاجة إليها ، ولكننى اعتدتها منذ أن جئت . نزلنا إلى الطابق الأول . أنفاسى قصيرة ، متتابعة ، لكنها نشطة ، ثمة وَهَن . . لكن عندى توق .. كنت أحذر اصطدام أى شخص بى . ولذلك انحنيت قليلاً إلى الأمام .

عبرت الباب الزجاجى .

فارقت الهواء المكيف ، البارد ، والضوء المنبعث من المصابيح ، إلى الهواء الصيفى ، الحار قليلاً ، الرطب قليلاً ، أفسحت له شعاب صدرى ، بقدر ما استطعت تنسمته ، استنشقته ، غسلت عينى بالضوء ، شفتاى منفرجتان قليلاً ، كمن يتطلع بدهشة إلى شاطئ المحيط الأعظم ، متسائلاً عما يوجد خلف الأفق البعيد . الناس يروحون ويجيئون ، تماماً كحركة القلب فى بسطه وقبضه ، الزهور مهرجان من الألوان ، متجاورة فى أحواضها ، سنجاب غليظ الذيل يخرج من حفرة تتخلل الحشائش الخضراء .

عاشقان يتعانقان ، أبتسمُ تجاههما حنوا وإعجاباً ، إنها القُبْلَة الأولى العلنية التى أراها منذ وصولى الولايات المتحدة ونزولى كليُفلاند . أدركنى الوهن ، أمسكت بذراع ماجدة ، توقفت . لم أشأ أن أقسو على قلبى الجريح ، المضمد ، كما قسوت عليه عمرى كله ، أَطْرَقْتُ مصغياً إلى العصافير ، وأصداء الورود ، وأصوات الخلق المتداخلة فى بعضها ، وهمس الأقاصى ، وكنت راغباً فى معانقة الوجود كله . .

جمال الغيطانى

المنزل ـ المعادى

الاثنين الحادى والعشرين من أكتوبر سنة ست

وتسعين الساعة الحادية عشرة والنصف ليلاً .



فى المبنى (هـ) بمستشفى كليفلاند فى الولايات المتحدة الأمريكية تمضى كل الخطوط فى اتجاهات واحدة ، محددة ، مستقيمة ، الألوان من الخارج تتدرج من اللون البنى ، وفى الداخل تتراوح مابين الأزرق والأبيض ، كل الخطوط فى سمك واحد ، لا تخرج عن هذين اللونين عدا خط واحد فقط . سميك، أحمر .. إنه الخط المؤدى إلى الغرف الخاصة المجهزة لشقّ الصدور والقلوب . إنَّه خطٌّ فاصلٌ بين رحلتين، عبره الروائى الكبير جمال الغيطانى وعاد من هناك ليقصَّ علينا مارأى وما عاين ...

الناشر



١٦ عبد الخالق ثروت - تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥
٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - ص . ب ٢٠٢٢
برقيا دار شادو - القاهرة .

